تاريخ المغرب الكبير

المغرب الكبير

١

العصور القديمة

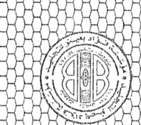
أسسها التاريخية الحضارية والسياسية

دكتور رشيد الناضوري

١٩٨١

دار النهضة العربية - بيروت





المغرب الكبير

١

العصور القديمة

أسسها التاريخية الحضارية والسياسية

تاريخ المغرب الكبير

المغرب الكبير

١

العصور القديمة

أسسها التاريخية الحضارية والسياسية

دكتور رشيد الناضوري

١٩٨١

دار النهضة العربية
للطباعة والنشر
بيروت ص. ب ٧٤٩

مقدمة الموسوعة

تزايدت أهميـة المغرب الكبير وضوحاً فى السنوات الأخيرة ، نتيجة لأحداثها وتطوراتها الهامـة والعميقة فى نفس الوقت ، ونمو المجتمع بشكل سمح له بالنزول إلى معارك واضحة ساعدت على تغيير مجرى التاريخ العام ، وتاريخ هذه الاقاليم بشكل خاص .

وعلينا أن نعترف بأن تلك السنوات الطويلة التى قضاها العـــالم العربى تحت الاستعمار قد عملت على فصل كل إقليم عن الاقليم المجاور له ، نتيجة لتعدد القوى الأجنبية ذات المصالح الاستعمارية ، ومنافسة كل من هذه القوى لغيرها . وكانت صعوبة المواصلات ، وانصراف الناس عن الدرس والبحث وانشغالهم بقوت يومهم تمنعهم من التعرف على جيرانهم ، بل أبناء أعمامهم وإخوانهم ، والذين يتحدون معهم فى الكثير من العوامل الثقافية والدينية والاقتصادية ، علاوة على تماثل مصالحهم وأمانيهم وأهدافهم .

وكانت بلاد المغرب قد لفتت انظار العالم إليهـا فى الفترة الواقعة بين الحربين العالميتين مع حركات الكفاح المسلح والجهاد التى أمتدت فى أنحائها، وبخاصة فى ليبيا بقيادة السيد عمر المختار ضد الغزو الايطـالى ، وفى إقليم الريف فى شمال المغرب الاقصى بقيادة الأمير عبد الكريم الخطابى ضد التوسع الاستعمارى الأوربى ، ومن أجل تحرير البلاد .

ورغم أن هذه الحركات الأصيلة لم يكتب لها النجاح فى ميدان معركة اعتمدت على تسليح حديث ، وامكانيات اقتصادية كبيرة ، إلا انها سجلت أسمها بحروف من نار فى سجل تاريخ كفاح الشعوب من أجل حريتهـــا وعزتها واستقلالها .

ولقد كان انشاء جامعة الدول العربية يعتبر مرحلة هامة من مراحل نمو المجتمع فى البلاد العربيــة ، وتطور الأوضاع السياسية والاقتصادية والمعنوية فيها . وإذا كان الدور الاساسى فى إنشاء هذه الجامعة قد وقع على كاهل الدول العربية فى الشرق ، والتى كانت قد تمكنت من الوصول إلى حريتها السياسية واستقلالها ، فان أنظار هذه الدول وقلوب شعوبهـا كانت شاخصة إلى المغرب العربى ، خافقة له ، مؤيدة لكفاحه ونضاله ، وبطولته فى وجه استعمار غاشم مستحكم مستغل . وبدى التكامل بين العالم العربى واضحاً ، وبين الشعوب ، أكثر منه بين الحكومات ، وكانت وصول أنباء المغرب تهز كيان المشارقة،وتدفعهم إلى ضرورة العمل والتضامن من اجل مستقبل احسن ، وللجميع .

وساعد كل ذلك على زيادة الرغبــة فى التعرف ببلدان المغرب العربى ، ومعرفة احوالها وتاريخها ، وتمت مع ذلك دراسة تحاول معرفـة الحقيقة ، وبين اقاليم وحد الله بينهـا ، ولم يفصلها عن بعضها إلا الضعف والتخلف والأطماع وعمليات الاستغلال . وكان هذا من الاسباب التى دفعت بنا ، وبصفتنا من الدارسين ، إلى مواصلة البحث الوصول إلى الحقيقة وتخليصها من الشوائب المغرضة ، ومن عوامل الدعاية التى زادت مع القرن العشرين . ولقد هيأت لنا فرصة الدراسة فى الخارج ، وفى دول حاولت الفصل بين هذه الاقاليم العربية ، وبين المشارقة وكل ما يأتى من الشرق ، علاوة على عملنـا كأساتذة فى جامعات الرباط وفاس فرصة هامة للتعرف على هذه البلاد وابنائها وتاريخها وآثارها . ونرى دينا علينا ان نقوم بكتابة تاريخها ، ونسد بذلك نقصا واضحا فى المكتبة العربية فى هذا الميدان .

* * *

ولقد ثبت بالبحث العلمى وجود صلات تاريخيـة بين المشرق والمغرب منذ أقدم العصور ، ورغم ذلك فقـــد ظل الإنتاج العلمى العربى فى تاريخ المغرب القديم محدوداً للغاية ، مما دفعنا إلى محاولة إبراز الآسس التاريخيـة الحضارية والسياسية لهذا الجناح المغربى لعالمنا العربى . وتوخينـا فى ذلك المبادرة إلى الإشارة إلى المصادر الأصلية ، الأثرية والنصية الخاصة بتراث المغرب القديم حتى يتسنى للدارسين الإطلاع عليها ، والاستزادة منها .

ويعتبر الدور التاريخى لإنسان تلك المنطقة ، منذ العصر الحجرى القديم الأسفل ، وما يتبعـه من عصور حتى بداية العصر التاريخى وأثنـائه ، مادة هامة تلفت نظر الدارس فى تاريخ المغرب الكبير . فلقد شارك إنسان هذه المنطقة فى تطوير الحياة الإنسانية ، المـادية والفكرية ، تطويرا ملموسا ، دفعه نحو الانتقال إلى المراحل الحضارية التالية . وكانت هـذه المنطقـة كذلك بمثابة منطلق للعناصر الحامية والسامية، التى تمكنت من صنع حضارة تأثرت بمقومات البيئة المحليـة ، واتصلت بالمراكز الحضارية الإفريقيـة والأوربية المعاصرة لها فى ذلك الوقت . ووضح هذا الاتصال بصفة خاصة مع مصر ، فى العصر المتأخر من التاريخ الفرعونى ، ومع شبـه جزيرة ايبيريا والمدن الفينيقية واليونان كذلك . وعلينا أن نشير هنا وبهـذا الصدد إلى تلك الصلات الوطيدة إلى حد كبير بين البربر والفينيقيين ، وذلك عنـدما بلغ الاتصال بالمشرق قمته فى العصور القديمة ، وفى أثناء العصرين الفينيقى والقرطاجى بعد تأسيس المحطات والموانىء الفينيقية على الساحل المغربى . وبدأ المغرب بعد ذلك يدخل إلى الإطار الدولى السياسى والحضارى لمنطقة البحر المتوسط .

وعلينا ألا نغفل الإشادة بدور المغرب الفعـال فى تاريخ الانسانيـة فى

مجال الرحلات الإستكشافية والاقتصادية على سواحل إفريقية الغربيـة ، وحتى منطقة الكونجو ، وكذلك على ساحل أوربا الغربى ، وأيضا فى داخل الصحراء الكبرى وحتى النيجر . وحينما امتدت موجة الحـكم الرومانى على تلك المنطقة قام البربر بثورات متعددة لتحرير بلادهم من التحكم الرومانى وكانت أيام الرومان الأخيرة فى بلدان المغرب الكبير غير مشرفة لهـــذه الامبراطورية ، وفى علاقاتها مع شعوب هذه المنـاطق ؛ وفى وقت بدأت فيه غزوات البرابرة وتهيأ الميدان لتغيرات جديدة على أيدى العرب .

* * *

لقد أثر الفتـح العربى على بلاد المغرب الكبير تأثرا واضحـا ، خاصة وإنه جاء لأبنائه بالإسلام ، وبلغة القرآن ، واعتز المغـاربة باسلامهم وبعروبتهم وحتى الآن .

ورغم ذلك فلقـــد تعاقبت على المغرب فى العصر الإسلامى فترات من الإزدهار والانتكاس ، شهـد أقطاره فى أيام ازدهاره مرتبطـة فى وحدة سياسية وحضارية وثيقة ، وشهـدها فى أيام انتكاسه وضعفه مفككة إلى دويلات منفصلة متحاجزة : فالمغرب العربى كان يتمتع بوحدة شاملة فى عصر الدولة الأموية ، ولكن هذه الوحـدة لم تلبث أن انفصمت عراها وتفكك المغرب فى العصر العباسى إلى دويلات مستقلة متنافرة فى القرن الثانى للهجرة . وحاول الفاطميون فى طليعة القرن الثالث الهجرى ربط المغرب العربى كله فى وحدة سياسية ، ولـكنهم أخفقوا أمام تدخلات الأمويين فى الأندلس فى شؤون المغرب الأقصى ، ولم يتهيأ لهذه الوحدة الشامله أن تتحقق . وظل المغرب منقسما كذلك إلى أن قامت دولة الموحدين القوية على أنقاض دولة

المرابطين ، وتولى عبد المؤمن بن على مهمة وصل أقطـار المغرب المنفصلة ، ونجح فى ذلك على نحو لم يكن فى الحسبان .

ولم تكن أبواب المغرب فى هذه العصور الاسلامية جميعها موصدة أمام تيارات التقاليد المشرقية التى كانت تفد اليه عن طريق مصر ، بل لقد كانت هـــذه الأبواب مفتحة أمام جيوش الخلافة الأموية والعباسية ، أو أمام هجرات قبائل العرب الهلالية ، وأمام حشود الغز فى عصر الموحدين . ولم تزل هذه التيارات تصل المشرق بالمغرب منذ الفتح العربى وحتى بعد انضواء المغربين الأدنى والأوسط إلى فلك الدولة العثمانية، دولة الخلافة الاسلامية، وبقاء المغرب الأقصى معتزا بقيادة الشريفيــة ، سواء أكانت من السعديين أو من العلويين .

وتاريخ المغرب فى العصر الإسلامى لم يكتب حتى يومنا هذا كعصر قائم بذاته، ذلك أن معظم ما كتب عنه يتناول فترات محدودة من تاريخه الإسلامى الطويل ، كفترة فتح العرب للمغرب ، أو المغرب فى عصر الدولة الأموية، أو المغرب حتى القرن الثالث للهجرة ، أو قيـام دولة المرابطين فى المغرب ، إلى آخر ذلك من أبحاث ، هذا علاوة على أنه لم يصدر حتى الوقت الحاضر بحث شامل يتنـــاول تاريخ الأسرات التى تولت حـكم المغرب فى العصر الإسلامى ، بالإضافة إلى آثارها الفنية الباقية ، كما أنه لم يراع فى معظم هذه الأبحاث مسألة ربط الأحداث المغربية بالأحداث الأندلسية ، وهو أمر حاولنا تحقيقه فى القسم الإسلامى من المغرب الكبير .

وكان طبيعيا أن نصطدم فى هذا القسم بعدة مشكلات : من بينها مشكلة المصادر العربية ، وخاصة مصادر الفتح ، فهى على قلتها إما تضم روايات متناقضة فيما بينها، أو يكتنفها الغموض ولقد قارنا فى هذا القسم بين الروايات

المختلفة ، وحاولنا تصفية الأخبار التاريخيــة الواردة فى هــذه الروايات مما يعلق بها من غموض . وهناك مشكلة الوضع السياسى للمغرب الأقصى عند قيام الدولة الفاطمية، وخضوعه لحكام وولاه مستقلين عن الدولة الفاطمية. متصلين بصلة الولاء للأمويين فى الأندلس، أو الفاطميين فى المغرب الأدنى. كما أن هناك مشكلة تحديد مناطق نفوذ بعض المذاهب السياسية والدينيــة فى بلاد المغرب ، كالشيعة والأدراسة ، وهراطقــــة برغواطة والخوارج الاباضية والصفرية . وهناك مشكلة انفصال المغرب عن الدولة الفاطمية ، والمراحل التى تم بها هذا الانفصال .

ولقد حاولنا فى هذا القسم الإسلامى معالجة هذه المشكلات ، وإجــلاء غوامضهــا ، ودون أن نغفــل دراسة الجانب العمرانى فى تاريخ المغرب ، والتى لعبت دورا هاما فى تاريخ البلاد من النواحى السياسيــة والاقتصادية والفكرية ، والتى مازالت ، بما تضمه من آثار فنية رائعة ومنشآت دينيــة ومدنية وحربية، تذكرنا بالدور الطليعى الذى قامت به فى العصر الإسلامى. من أمثلة هذه المدن : القيروان قاعدة الفتــح العربي للمغرب ، وتونس دار صنعته ، وتاهرت حاضرة الرستميين الإباضية ، وفاس حاضرة الأدارسة، ومراكش مقر دولة المرابطين ، بالإضافة إلى العباسية ورقادة اللتين أسسها الأغالبة فى المغرب الأدنى . كذلك اهتممنــا بدراسة الآثار البــاقية فى التراب المغربى فى العهود الإسلامية المختلفــة منــذ الفتــح العربى حتى سقوط دولة الموحدين .

ولقد قدمنا لهــذا القسم الاسلامى من المغرب الكبير بفصلين منفصلين ختمنا بهما تاريخ المغرب قبــل الفتح العربى ، الأول عن عصر الوندال ، واستعرضنا فيه غزو الوندال لنوميديا وإفريقية فى عهد جنصريك ، وأهم

الأحداث التى وقعت فى المغرب فى عهده وعهد خلفائه ، وكذلك نظم الوندال فى الحكم ببلاد المغرب ، وسياستهم نحو أهل البلاد ، وأفردنا الثانى للعصر البيزنطى ، وضمناه عدة موضوعات عن استرجاع البيزنطيين أرض المغرب ، والمشكلات التى واجهوها فى البـلاد ، واختتمناه بدراسة نظام البيزنطيين الإدارى والدفاعى فى المغرب .

ثم مهدنا للعصر الاسلامى بدراسة لأهم مصادر تاريخه فى هذا العصر ، وقسمناه إلى أربعة أبواب كبرى: الأول منها عن فتح العرب لبلاد المغرب ، ويتضمن مرحلتين ، هما المرحلة الأولى ثم مرحلة الفتح المنظم ، والثانى عن عصر الدولتين الأموية والعباسية ، وخصصنا الباب الثالث للولايات المستقلة فى القرن الثالث الهجرى ، وتحدثنا فيه عن دولة الاغالبة وآثارهم ، ثم عن دولة الادارسة فى فاس ، ثم بعـــد ذلك عن دولتى الرستميين بتاهرت والمدراريين بسجلماسة ، وعن المغرب فى ظل الفاطميين ، وكذلك عن المغربين الأدنى والأوسط فى ظل بنى زيرى وبنى حماد الصنهاجيين . أما الباب الرابع فقد تحدثنا فيه عن المغرب الاسلامى فى ظل دولتى المرابطين والموحدين . وختمنا هذا العصر الاسلامى بدراسة موجزة للدول الثلاث التى قامت فى المغرب بعد سقوط دولة الموحدين : وهى دولة بنى حفص فى تونس ، ودولة بنى عبدالواد فى الجزائر ، ودولة بنى مرين فى المغرب الأقصى .

* * *

أما عن تاريخ المغرب فى العصر الحديث فقد قسمناه إلى مراحل تتمشى مع التطور المنطقى لبلدان شمال إفريقية منذ القرن السادس عشر وحتى الفترة المعاصرة . وإذا كنا قد أوجزنا فى شرح ظروف بلدان المغرب فى مرحلة عصر النهضة ، وفجر التاريخ الحديث ، فان أهمية الموضوعات التاليـــة قد

استلزمت افراد باب هام لكل ماحدث فى أقاليم المغرب .

لقد بدأ المغرب الكبير فترة فجـــر التاريخ الحديث بصفته دولا أو دويلات منفصلة عن نفسها متناحرة مع بعضها ، واستمرت على هذه الحالة فى الوقت الذى زادت فيه قوة الدول الأوربية وأخذت فى إعادة غزو الاندلس من المغرب ، بل وأخذت فى مهاجمة بلدان المغرب العربى كلها . وأصبح على المغرب فى فجر التاريخ الحديث أن يخضع لهذه الهجمات المنتظمة وخاصة بعد سقوط غرناطة آخر معاقل العرب فى الاندلس فى عام ١٤٩٢.

لقد كانت هذه الاخطار الخارجية ، وهى اقتصادية وحربية ، ومدعمة بروح دينية صليبية، أكبر دافع للعرب والمغاربة على أن يتحدوا مع بعضهم وخاصة فى وجه الهجمات الموجهة ضدهم وضد بلادهم . ورغم اشتداد هذه الهجمات قام المغاربة بدورهم كاملا فى الجهاد من أجل بلاد الاسلام،واتجهت أنظارهم إلى القسطنطينة عاصمة الدولة العثمانية ، وعملوا على الاتحاد معها ، وأصبحوا بذلك الحراس الاماميين للعالم الاسلامى فى وجه الغزو الاجنبى المسيحى . ولقد اتحدت كل من الجزائر ثم تونس وليبيا مع هذه الدولة العثمانية ، إلا أن المغرب الأقصى اعتز بقيادة الشرفاء ، وهى القيادة السعدية، واحتفظ باستقلاله وحاول أن يدافع بامكانياته الاقليمية عن بلاده.

ومع تطور الأحوال فى حوض البحر المتوسط بشكل عام ، وفى الاقاليم الآسيوية والعربية بشكل خاص ، نتيجة لتحول طرق التجارة العالمية عن هذا البحر إلى المحيطات وطريق رأس الرجاء الصالح ، تدهورت الأحوال الاقتصادية فى هــذه المنطقة ، وأخذت فى الدخول فى مرحلة طويلة من التخلف ، وذلك فى الوقت الذى احتاجت فيه الدولة إلى الضرائب، وبشكل يزيد من إرهاق الكادحين،وفى نفس الوقت الذى استمر فيه المجتمع الاوربى

فى النمو والتقدم واختراع الألآت ، واستخدام البخار ،وبطريقة تجبرهم على زيادة الاهتمام بالمواد الاولية، وكذلك بالاسواق اللازمة لتسويق منتجاتهم.

ولقد كانت صدمة عنيفة للعالم العربى والاسلامى حين جاء الجنرال بونابرت إلى مصر ، ولم تمض سنوات عديدة حتى عمدت فرنسا إلى تهيئة الجو وإرسال قواتها لاحتلال الجزائر . لقد انقلب الميزان ، وتغيرت الاوضاع ، وكان سقوط الجزائر فى أيدى الفرنسيين أول اسفين يدق فى قلب بلاد المغرب ، وكان نذيراً بتوسع النفوذ الفرنسى ، والنفوذ الأوربى فى المناطق التى كتب عليها الزمن أن تعيش فى ظل نظام اقطاعى ، وتواجه قوى ضغط واعتداء استعمارى ورأسمالى .

وبعد الجزائر جاء دور تونس التى حاولت أن تستند إلى وسائل إدخال الحضارة والمدنية الحديثة فى بلادها ، وتطوير شئونها ، فاعتمدت على القروض ، وتمهد بذلك الجو لاستيلاء فرنسا عليها بعد أن هيأت لذلك الجو من الناحية الدبلوماسية .

وكما تمكنت فرنسا باستنادها إلى الجزائر من أن تتوسع فى تونس وتخضعها لنظام حمايتها ، تمكنت هذه الدولة كذلك من زيادة مصالحها فى المغرب الأقصى . وتوصلت فرنسا عن طريق اتفاقيات ثنائية مع كل من إيطاليا وبريطانيا وأسبانيا إلى أن تصبح الدولة الاوربية الاولى ذات النفوذ فى المغرب الاقصى . ورغم أن المانيا قد حاولت عرقلة هذا النفوذ الفرنسى فى هذا الاقليم المغربى ، إلا أن فرنسا تمكنت بدبلوماسيتها ، وفى مؤتمر الجزيرة من أن تزيد من نفوذها فى الاقليم ، ثم استندت بعد ذلك إلى سوء الاحوال الداخلية فى المغرب، وإلى قواتها والاوضاع الدولية لكى تتولى الأمور العامة فى هذا الاقليم ، وتضعه تحت حمايتها سنة ١٩١٢.

ولم يبق من بلدان المغرب العربى بعد ذلك إلا طرابلس وبرقة، وكانت

ظروفها وأصولها هى ظروف التخلف العامة التى سادت كل أقاليم الدولة العثمانية فى السنوات الأولى من القرن العشرين . ولقد تزايدت الاطماع الايطالية فى هذا الاقليم وخاصة بعد فشل مشروعات التوسع الايطالى فى أشرق أفريقية فى أواخر القرن التاسع عشر . ولقد أفادت إيطاليا من الظروف الدولية الناتجة عن مشكلة أغادير سنة ٩١٢ وأرسلت انذارا إلى الدولة العثمانية ثم أعلنت الحرب وعملت على احتلال هذين الاقليمين . واضطرت الدولة العثمانية رغم شدة مقاومة الاهالى لعملية الغزو الايطالى إلى أن تنفض يديها من هذه الحرب ، خاصة وأن أخطارا أخرى كانت تواجهها فى البلقان ، وقرب عاصمة الدولة.

لقد شهدت السنوات السابقة لاعلان الحرب العالمية الاولى تقسيم بلدان المغرب الكبير إلى مستعمرات تخضع للدولة الاوربية ، أو محميات تضع نفسها فى خدمة الاوربيين، وتحت إشرافهم وتوجيههم ، ولصالحهم، وإن كان المغرب الكبير قد امتلأ تاريخه بعمليات كفاح أصيلة للوصول إلى الحرية وإلى الاستقلال .

* * *

تأتى بعد ذلك الفترة المعاصرة من تاريخ المغرب الكبير والتى تمتد منذ الحرب العالمية الأولى حتى الآن . ونلاحظ فى هذه الفترة أن المغرب قد قدمت مثلا عليا للوطنية والجهاد، واثبتت أسمها بحروف من نار فى سجل التاريخ

على أننا نلاحظ فى هذه الفترة اختلاف الطريقة التى كافح بها المغاربة فى كل إقليم عن الطريقة التى كافحوا بها فى الاقليم الآخر. لقد كانت هناك درجات مختلفة فى البذل والتضحية، وتبدأ بعمليات الكفاح السياسى، والتقدم بمطالب ، والتهيىء للدخول فى مفاوضات ، أو مباحثات ، وللوصول إلى إعتراف باستقلال والسماح بمنح دستور، وتستمر بعد ذلك فى شكل اضطرابات تستخدم فيها القوة إلى مرحلة معينة ، وتصل فى نهايتها إلى مرحلة الثورة الواضحة والنزول إلى ميدان الجهاد المسلح، وطلب الموت فى ساحة المعركة وبالسلاح من اجل انتزاع الاستقلال .

لقد اشتمل تاريخ المغرب المعاصر على حركات جهـــاد الاخوان السنوسيين فى ليبيا بقيادة السيد عمر المختار والتى استمرت حتى آخر رمق ، رغم تفوق أسلحة المعتدين . واشتمل كذلك على تسجيل لتلك العمليات التى قام بها ابناء الريف فى شمال المغرب الاقصى بقيادة الأمير عبد الكريم الخطابى فى وجه كل من الاسبانيين ثم الفرنسيين . هـذا من ناحية الجهاد المسلح . أما من ناحية الكفاح السياسى فان عملية نمو الوعى الوطنى قد استمرت فى كل اقليم ، واخذت الاحزاب السياسية فى التطور وفى الاصرار على مطالبها الوطنيـــة ، سواء أكان ذلك فى تونس أو الجزائر ، أو حتى فى المغرب الاقصى . وساعدت ظروف الحرب العالمية الثانية على اشتداد ساعد الحركات الوطنية ، وجاءت نهاية هذه الحرب مع إنشاء جامعة الدول العربية لكى تفتح الطريق أمام شعوب تلك المنطقة للقيام بثوراتهم العتيدة والاصيلة فى وجـه الاستعمار . وإذا كانت ليبيا قـــد نجحت عن طريق الدبلوماسية والأمم المتحدة فى الحصول على استقلالها ، فان كل من تونس والمغرب الاقصى قد أضطرت إلى اعلان الثورة للحصول على حقوقها المشروعة ، وخاصة بعد قيام الفرنسيين بنفى محمد الخامس ملك المغرب .

ولقد كانت ثورة عارمـــة ، وانتشرت فى كل مكان ، وزاد من حدة اشتعالها نزول احرار الجزائر إلى ميدان العمليات الثورية فى فاتح نوفمبر سنة ١٩٥٤ . إنها الثورة ، إنه الجهاد ، ولن يتمكن الاستعمار بعد ذلك من مواجهة قوى شعوب عقدت العزم على انتزاع حقوقها بقوة ايمانهـا وقوة وعيها ، وما تنتزعه من أسلحة من ايدى المستعمرين .

لقد كانت ثورة « المليون شهيد » أولى ثورات العالم التى سارت بعزم وتصميم ، ولمدة سنوات ، وضحت بهذا العدد من ابنائها . كانت الاولى فى قوتها ، وكانت الاولى فى النتائج التى وصلت إليها ، وعليها أن تعتز بنفسها ، بل على كل العرب أن يعتزوا بها ، وكذلك الاحرار فى كل مكان .

إن تاريخ المغرب الكبير المعاصر لهو صفحة مجيدة عجز التاريخ حتى الآن

عن كتابتها ، وبأى لغة من اللغات . وإن قصة كل مجاهد وكل شهيد ليمكنها أن تروى لنا جزءاً من قصة ذلك الشعب الاصيل .

ولكن المسألة لاتقتصر على مجرد الحصول على الاستقلال السياسى ، ، إذ أنها اعمق من ذلك بكثير ، وتهدف تحرير المواطن المغربى من رواسب الماضى ، سواء أكانت داخلية أم خارجية ، وتحريره من كل عمليات الاستغلال ، سواء أقام بها المستعمر الاجنبى ، أو المستغل الداخلى، وبأى شكل من الاشكال. انها الثورة ، ولكنها الثورة العميقة،الثورة الاشتراكية. لقد أنصهر أبناء المغرب الكبير فى أثنـاء جهادهم وكفاحهم مع بعضهم واصبحوا طليعة الكفاح الاشتراكى فى العالم العربى . وتزيد وضوح هـذه الظاهرة فى المناطق التى طالت فيها فترة الجهاد والكفاح عنها فى المناطق التى تمكنت من الحصول على استقلالها السياسى بسهولة نسبية . أو فى الميـدان الدبلوماسى ، وما دمنا نعيش فى عصر متكامل ، فمما لاشك فيه أن هـذه الاتجاهات الثورية العميقة ستعمل على التأثير فى بقية الاقاليم المجاورة وتتكامل مع الاتجاهات المشابهة لها ، ومن أجل مستقبل أفضل للمغرب والمشرق .

* * *

وعلينـا أن نشير إلى صعوبة البحث فى الفترة المعاصرة ، وبشكل تختلف عنها فى العصور الاسلامية والعصور القديمة ، خاصة وأن المـادة التاريخية المعاصرة مليئة بالدعاية وتخضع للاتجاهات المتعارضة المتضاربة. ولذلك فانه رغم وفرتها تحتم على الدارس عبء تنقيتها واخراجها بصورة تقرب من الواقع الفعلى.

ومادام هذا البحث باجزائه المختلفة هو أول بحث يكتب فى العربية بهذا الشكل فانا نرجوا أن نكون قد وصلنا إلى درجة من النجاح تساعد على تزويد المكتبة العربية بمرجع يحتاج اليه كل من الدارس والباحث والطالب ، حتى والقارىء العام، وبكتاب يمكنه أن يسد نقصا واضحا فى هذه المكتبة .

وعلى الله قصد السبيل .

المؤلفون

القسم الاول

المغرب الكبير فى العصور القديمة

للدكتور رشيد الناضورى

الباب الأول

أقسام التاريخ المغربى القديم وبعض مصادره الرئيسية

مر تاريخ المغرب القديم بالمراحل الرئيسية فى تاريخ الانسانية كعصور ما قبل التاريخ والعصر التاريخى . ويعتمد الباحث فى دراسة هذا التاريخ على المصادر الأصلية الأثرية واللغوية المدونة لمحاولة الوصول إلى حقائق تاريخ الانسان فى هذه المنطقة . هذا بالاضافة إلى بعض الظواهر الأنثروبولوجية الثقافية التى تلقى ضوءاً على جوانب معنــــوية واجتماعية فى هذا التاريخ . وأيضا ما سجله الكتاب اليونان والرومان والمسيحيون والمسلمون والعرب عن هذه البلاد . وقبل تتبع بعض هذه المصادر تنبغى الاشارة أولا إلى الأقسام الرئيسية للتاريخ المغربى القديم .

الفصل الأول

أقسام التاريخ المغربي القديم

حاول الانسان منذ توصله إلى المرحلة الانسانية تطوير حياته والعمل على تثبيت كيانه فى كافة المجالات الاقتصادية والحضارية . وقام فى هذا الصدد بجهود متواصلة فى سبيل محاولة تحقيق ذلك . وقد اتجه العلماء إلى البحث والتنقيب عن آثار هذه الحضارات الأولى التى صنعها هذا الانسان الأول فى كافة أنحاء الأرض . وثبت من هذه الأبحاث أهميـــة الدور الذى أداه هذا الانسان فى منطقة المغرب القديم ، من حيث كونها من المناطق الهامة التى استقر فيها الانســان الأول إلى جانب منطقتى الشرق الأدنى والشرق الأقصى فى العصور القديمة .

ويتميز تاريخ هذه المنطقة ببعض الخصائص التى تشكله بنمط معين نابع من المقومات الرئيسية الفعالة فى هذا التشكيل . ويمكن للباحث تتبــع هذه الخصائص والمقومات فى عاملين رئيسيين : العامل الأول هو الموقع الجغرافى ، فالمغرب يقع فى موقع له طبيعته الخاصة فى شمال وشمال غرب أفريقيا ؛ وهذا المكان فريد من حيث اتصاله بالجانب الأوربى من ناحية ، والأرض الأفريقية التى تمتد إلى العالم الصحراوى جنوبا وشرقا من ناحية أخرى ، وحوض البحر الأبيض المتوسط و امتداده حتى الشرق الأدنى وجنوب أوربا من ناحية ثالثة . هذه الحقيقة الجغرافية قد ميزت تاريخ المغرب بظاهرة خاصة هى الاتصال بهذه البيئات التى تقع فى محيطه . ويؤيد التاريخ القديم منذ أقدم مراحل عصور ما قبل التاريخ هذه الظاهرة بالأدلة الأثرية . ويظهر ذلك فى وجود اتصالات

حضارية وسياسية لا تقتصر على جانب واحد بل تجمع فى بعض العصور بين أكثر الجوانب . ولقد كان لهذا الاتصال أثره البالغ فى تاريخ المغرب القديم ؛ هذا بالاضافة إلى دخول عناصر بشرية جديدة إلى المغرب وتأثيرها بدورها من هذه الناحية فى طبيعة تكوين العناصر المحلية . وقد اختلفت هذه المؤثرات من حيث مدى قوتها وضعفها أثناء تاريخ هذه المنطقة . أما العامل الثانى فيظهر فى موضوع البيئة من حيث طبوغرافيتها وما تشمله من تضاريس خاصة ، فقد صدق المؤرخون العرب عندما اصطلحوا على استخدام تعبير جزيرة المغرب . وبصفة خاصة بالنسبة لأقطاره الثلاث . عندما حلوا به بعد ترحالهم الطويل . فالصحراء تحد المغرب من الجنوب وتتخللها بعض الأودية التى كانت تتجمع فيها القبائل والعناصر البشرية المختلفة الآتية من الشرق والجنوب فى طريقها إلى المغرب الذى كان بمثابة الجزيرة التى رست عندها قوافلهم . هذا بالاضافة إلى طبيعة التضاريس المغربية من حيث كونها تتضمن سلاسل جبال الأطلس بامتدادها من الجنوب الغربى حتى الشمال الشرقى إلى جانب وجود الأنهار الدائمة الجريان والجافة فى بعض الأحيان والهضاب المتناثرة المؤدية إلى المناطق السهلية وكذا الغابات . وكانت هذه الطبيعة من العوامل الفعالة فى تشكيل حياة الانسان وتاريخه فى هذه المنطقة لأن الصفة السهلية ليست متوفرة إلا فى بعض الأقاليم وعلى ذلك اضطر الانسان إلى بذل جهود كبيرة فى سبيل التحكم فى هذه البيئة والانتشار وتثبيت كيانه فيها . وقد استوجب هذا الجهد وقتا كبيرا مما كان له أثره البالغ فى هذا التاريخ المغربى القديم .

وقد نتج عن تأثير هذه المقومات الرئيسية فى حياة الانسان فى المغرب القديم ملاحظة وجود منطقة ساحلية لها وضعيتها التاريخية القديمة الخاصة ومنطقة داخلية اكسبتها هذه المقومات مكانة أخرى. وليس معنى ذلك انعدام وجود

اتصال بين المنطقتين بل لقد توفر هذا الاتصال على الرغم من الصعوبة البيئية التى تعوق تحقيقه بسهولة ، ولكنه كان متفاوتا من عصر إلى آخر إلى أن اكتمل أخيرا خلال العصر القرطاجى وما تلاه .

وتنبغى ملاحظة ظاهرة أخرى فى تاريخ المغرب القديم وهى جمع هذا التاريخ بين الصفة المحلية من ناحية والصفة الدولية من ناحية أخرى فى إطار حوض البحر الأبيض المتوسط. ومع أن هذه الظاهرة تتضح فى تاريخ حياة مختلف الدول والشعوب بوجه عام إلا أنه بالنسبة لتاريخ المغرب القديم بالذات تتجسم هذه الظاهرة منذ بداية العصر التاريخى الصميم ، بل إن هذه البداية قد حدثت نتيجة الصلات الخارجية بصفة خاصة ؛ ولا يعنى ذلك انعدام الكيان الذاتى بل لقد ظل هذا الكيان محتفظا ببعض أسسه مؤثرا ومتأثرا بعلاقاته الخارجية فى المجالات الاقتصادية والحضارية والسياسية ومثبتا وجوده التاريخى فى بعض فترات العصر القرطاجى والعصر الرومانى إلى أن اندمج فى الكيان العربى الاسلامى .

وقد قام العلماء بالبحث والدراسة والتنقيب عن آثار التراث المغربى القديم الذى يرجع إلى عصور ما قبل التاريخ بمختلف أقسامه وأيضا العصر التاريخى. وقد تضمن هذا البحث الآثار المادية كبقايا القرى والمدن والقلاع والطرق والطبقات الأثرية والكهوف والمغارات وما تشمله جميعا من آثار استقرار وحضارة وأيضا آثار فكرية سجلت باللغات البونية والليبية واللاتينية . وقد اشترك فى هذه الأبحاث علماء فرنسيون وأسبان وأمريكيون وانجليز ومغاربة.

ويمكن تقسيم العصور القديمة فى تاريخ المغرب إلى ثلاثة أقسام رئيسية :

القسم الأول :

عصور ما قبل التاريخ وتنقسم بدورها إلى العصر الحجرى القديم الأسفل والعصر الحجرى القديم الأوسط والعصر الحجرى القديم

الأعلى ثم العصر الحجرى الحديث . وتستمر هذه المراحل من الناحية الزمنية منذ ظهور الانسان الحامل للصفات الانسانية فى المغرب حتى نهاية مرحلة العصر الحجرى الحديث، وهى المرحلة التى تؤرخ نهايتها بصورة تقليدية معتمدة على المصادر الكلاسيكية بحوال سنة ١٢٠٠ ق.م بينما ترجع الأدلة الأثرية الفينيقية الأولى إلى حوالى القرن الثامن قبل الميلاد . ويمكن القول بأن هذا القسم الأول من تاريخ المغرب قد استمر لحد ما خلال العصر التاريخى فى بعض المناطق الداخلية .

والقسم الثانى :

العصر التاريخى ويبدأ بالعصر الفينيقى الذى يؤدى إلى العصر القرطاجى ويستمر من الناحية الزمنية حتى عام ١٤٦ ق. م ويتضمن مرحلة الممالك البربرية بصفة خاصة أثناء العصر القرطاجى . ويمثل هذا القسم مرحلة اتصال التاريخ المغربى القديم بالشرق الأدنى القديم وغربى أفريقيا وأوربا .

والقسم الثالث :

المغرب فى العصر الرومانى ثم الوندالى والبيزنطى ويستمر حتى عام ٦٤٧م. ويتصل فيه المغرب اتصالا وثيقاً بالجانب الأوربى ويتداخل تاريخه القديم مع تاريخه الوسيط إلى أن يبدأ العصر العربى الاسلامى الذى يمثل مرحلة جديدة فى تاريخ المغرب تستمر حتى الآن .

الفصل الثانى

بعض المصادر الرئيسية لتاريخ المغرب القديم

قبل دراسة المعالم الرئيسية لهذا التاريخ المغربى القديم تنبغى الاشارة إلى بعض المصادر الرئيسية فيه وتنقسم إلى خمسة أقسام :

المصدر الأول : مجموعة التقارير العلمية التى تسجل نتائج الحفائر فى المواقع الأثرية المختلفة وتتضمن عصور ما قبل التاريخ والعصر التاريخى . وتعتبر هذه التقارير بمثابة مصادر أساسية فى غاية الأهمية بالنسبة للأصول الأولى لهذا التاريخ ، وخاصة لأنها تتضمن الأدلة الأثرية المادية التى تشهد بصحة الحقائق التى يعبر عنها المؤرخون . وقد دعمت هذه التقارير بالصور والخرائط والجداول التقويمية وكذلك الرسومات البيانية ، ولكن على الرغم من ذلك فانه يلاحظ وجود اتجاهات مختلفة فى تفسير بعض الظواهر الحضارية والتاريخية التى سجلتها هذه التقارير . ويستوجب ذلك ضرورة إعادة النظر فى دراسة المادة الأثرية وتفسيرها فى ضوء الدراسات المقارنة من ناحية والآثار المكتشفة حديثا من ناحية أخرى . كما أن بعض المواقع الأثرية لم تستكمل عمليات الحفر فيها مما يستلزم ضرورة الاحتياط عند تناول مادتها الأثرية والوصول إلى حقائق تاريخية ثابتة . هذا بالاضافة إلى ملاحظة بعض آراء معينة فى تفسير الآثار ترمى إلى ربط بعض المراحل الحضارية المغربية القديمة بالحضارة الأسبانية القديمة على الساحل الأسبانى الشرقى أو ببعض حضارات الشرق الأدنى القديم ، وأحيانا بالحضارات الأفريقية . لكن هذا الاتجاه فى التأريخ ينبغى إعادة النظر فيه مرة أخرى بطريقة منهجية حديثة هادفة إلى الحقيقة المجردة .

وفيما يلى بعض هذه التقارير الأولى وتبدأ بالتقارير الخاصة بعصور ما قبل التاريخ :

Alimen H. et Chavaillon I., Découverte de la Pebble-Culture in situ au Sahara nord-occidental, C.R. des séances de l'Ac. de Sc. t. 248, 1959.

Alonso Del Real C., Fosiles humanos de Tanger, Cuad de Hist. Primit., t. 1, No. 2, 1946.

Alguier et Debruge, Le gisement d'ossements du Khroub, Rec. des Not. et Mém. de la soc. archéol. de Constantine, t. LV, 1923-1924.

Anonyme, M. Latapie, Stations préhistoriques des environs de Tébessa, Rec. des Not. et Mém. de la soc. archéol. de Cosntantine, t. XLIII, 1909.

Anonyme, Archeological field work of the university of Minnesota in 1930, Science, vol. LXXII No. 1877, 1930.

Antoine, M., Répertoire préhistorique de la Chaouia, I - VII 1927 - 1931.

— Notes de préhistoire marocaine, I : station néolithique des Ouled Haddou, Bull. de la Soc. de Préh. du Maroc, t. II 1928 .

— Notes de préhistoire marocaine, II : station néolithique des Trois Marabouts, Bull. de la Soc. de Préh. du Maroc, t. III 1929.

— Notes des préhistores marocaines, VI: la station de la poterie à l'Oued Mellah, Bull. de la Soc. de Préh. du Maroc, t.VII, 1933.

— Notes de préhistoire marocaine, VIII :Un gisement atérien en placç dans les alluvions de l'Oued Goréa près de Casablanca, Bull. de la Soc. de Préh. du Maroc, t. VIII, 1934.

— Notes des Préhistoires marocaines IX: la station ibéro-maurusienne de Bouskoura,Bull. de la Soc. de Préh. du Maroc, t. VIII, 1934.

— Notes de préhistoire marocaine, XI : une station intéressante du Paléolithique superieure dans le grand Atlas: Telouet, Bull. de la Soc. de Préh. du Maroc, t. X, 1936.

— Les fouilles américaines à Tanger, Un point d'histoire avant l'histoire, c.r. des séances mens. de l'Inst. des Hautes- Etudes maroc., Hespèris t. XXXVII, 1950.

— Un microatelier au Sahara, Soc. des Sc. nat. du Maroc, c.r. de séances mens., 1950.

— Deux industries d'âges très différents trouvées en place dans les limons rouges supérieurs, c.r. des séances mens. de l'Inst . des Hautes-Etudes, maroc, Hespéris, t. XXXIX, 1952.

- Notes de préhistoire marocaine, XXVII: L'Ain Djemaa, station atérienne à outillage mixte, Bull. de la Soc. de Préh. du Maroc, n.s. 1952.

Arambourg, C.,- Découverte d'un ossuaire humain du Paléolithique supérieur en Afrique du Nord, l'Anthr. t. XXXIX, 1929.

- La grotte de la Carrière Anglade à Guyotville, Bull. de la soc. d'hist nat. de l'Afr. du N. t. XXVI, 1935.

- Les fouilles du gisement de Ternifine et l'anthropus, Congr. Préhistorique de France, Poitiers-Angoulême, 1958.

- La faune fossile de l'Ain Tit Mellil (Maroc) , Bull. de la Sc. de Préh. du Maroc, t. XII, 1938.

- Note préliminaire sur quelques Eléphants fossiles de Berbérie, Bull. du Muséum nation. d'hist. nat. de Paris (2), t. XXIV. 1952.

- Nouvelles observations sur les gisements de l'Ain Hanech, près de Saint-Arnaud (Constantine), Acad. Sc. (c. r. hebd. des séances), t. 236, 1953.

- Résultats des fouilles du gisement pleistocène de Ternifine (Algérie) Société géologique de France (c. r. somm. des séances), 1954.,

—L'Atlanthrope de Ternifine, un chainon complémentaire de l'ascendance humaine, fabriquait des bifaces chelléens, la Nature, No. 3235, 1954.

Arambourg, C. & Balout, L., - L'ancien lac de Tihodaine et ses gisements préhistoriques, Actes du lle Congrés panaf. de Préh., Alger, 1952.

Arambourg, C. Boule, M., Vallois, H., Verneau, R., -Les grottes paléolithiques des Béni- Segoual (Algérie), Arch. de l'Institut de Paléontologie humaine, N. 12, 1934.

Arambourg, C., & Hoffester, R., - Découverte, en Afrique du Nord, de restes humains du paléolithique inférieur, Acad. Sc. (c.r. hebd. des séances) t. 239, 1954.

Balout, L. - Les fouilles américaines de la grotte haute (Mougharet el Aliya, zône de Tanger) et la questicn s'baikienne, Bull. de la Sco. d'histoire nat. de l'Afrique du N., t. XXXIX, 1949.

- Découverte d'un squelette humain préhistrorique dans la région de Tébéssa, Bull. de la soc. d'hist. nat. de l'Afr. du N., t. XL., 1949.

Balout, L. & Briggs, L. C., - Tête osseuse du Kef Oum Touiza, Bull. de la Soc. d'hist. nat. de l'Afr. du N., t. XL, 1949.

- Tête osseuse de Mechta el Arbi (fouilles de 1912) Trav. du labor d'Anthr. et d'Archéol. Préhist. du Mus. du Bardo, III, 1951 .

Barbin, A. - Fouilles des abris préhistoriques de la Mouillah près Marnia Bull. de la Soc. de Géogr. et d'Archeol. d'Oran, t. XXX, 1910.

- Fouilles des abris préhistoriques de la Mouillah , près Marnia (deuxième campagne), Bull. de la Soc. de Géogr. et d'Archéol. d'Oran, t. XXXII, 1912.

Bardin, P., - La grotte du Kef el-Agab (Tunisie), gisement néolithique; avec une note sur les ossements humains par le Dr. H. V. Vallois, libyca t. I. 1953.

Beaumais, A., & Royer, P., - Fouilles de l'Adrar Queldaman, Bull. de la Société Préhistorique Française, t. XXIII, 1926.

Bertholon (Dr.),- Trois crânes d'aspect néanderthaloide de Mechta el. Arbi, XLII Congr. de l'Association Française pour l'avancement des Sciences, Tunis, 1913.

Biberson,P.,Decouverte d'os travaillés dans l'Acheuléen moyer du Maroc Atlantique, Actes. du Ve. Congr. de l'I N. Q. U. A., Madrid- Barcelone, 1957.

- Découverte d'une molaire d'éléphant à la carrière Schneider de Sidi Abderrahman, Soc. des Sc. nat. du Maroc, c. r. des séances mens. t. XVIII, 1952.

- Station paléolithiques des Regs du Draa inférieur (Apercu géographique et géologique) , c. r. séances mens. Soc. Sc. nat. Maroc, N.2 1954.

Bobo, J., - Une station du type Capsien supérieur dans l'Oued Souf. Ses relations avec le néolithique saharien, LXX Congr. de l'Association Française pour l'avancement des sciences, Tunis, 1951.

Breuil, H. & Clergeau, Oeuf d'autruche gravé et peint et autres trouvailles paléolithiques du Territoire des Ouled Djellal (Sahara septentrional), l'Anthr., t. XLI, 1931.

Briggs, L. C. Tête osseuse du Khanguet el-Mouhaâd (fouilles J. Morel), Libyca, t. I. 1953.

-Deux têtes osseuses de la collection Debruge:le "Crâne type"de Mechta el Arbi et le crâne «A» de la grotte des Hyènes, Libyca, t. II, 1954.

Burney, C.B. Mc., Trevor. J. C. & Wells, L.H., A fossil human Mandible form le vallois-Mousterian, Horizon in Cyrenaica, Nature, Vol.172, N. 4385, 1953.

Cadenat, P. - Nouvelles stations préhistoriques de la région du Tiaret,Bull. de la soc. de Géogr. et d'Archéol. d'Oran t. LXIII, 1942.

- Une nouvelle station atérienne au Koudiat Abou Gherara (commune mixte de Tiaret), Libyca, t. I. 1953.

Cadenat, P. & Vuillemot. G., - La station préhistorique de Kef el- Kerem (Djebel Nador), Bull. de la Soc. de Géogr. et d'Archéol. d'Oran t. LXV 1944.

Campardou, Lt., - La grotte de Kifan bel-Ghomari à Taza (Maroc), Bull. de la Soc. de Géogr. et d'Archéol. d'Oran t. XXXVII, 1917.

Campardou, Lt. j., - Stations préhistoriques à Guersif (Maroc), Bull. de la Soc. de Géogr. et d'archéol. d'Oran t. XXXIX, 1919.

Camps, G., - Escargotières du Capsien supérieur de la région de Colbert, Bull. de la Société Préhistrique Francaise, t. LII, 1955.

Clariond, (L.) & Lapparent, J. de, - La Station paléolithique du Djebel Rhassoul dans la haute vallée de la Moulouya, au Maroc, Bull. de la Soc. de Préhist. du Maroc. t. X. 1936.

Clément, Lt. - La station paléolithique de Si Said- Machou, Bull. de la Soc de Préhist. du Maroc, t. IV, 1930.

Darrien, - Découverte d'une escargotière à Ain Tinn, Bull. Mens. de la Soc. Archéol. de Constantine, No. 36, 1930.

Debruge, A., -Fouilles de la grotte Ali Bacha à Bougie, XXXI e Congr. de l'A. F. A. S. Montauban, 1902.

-La grotte sépulcrale «Ali Bacha», reprise de la fouille, Bougie (Algérie), Rec. de Not. & Mém. de la Soc. archéol. de Constantine, t. XL, 1906

- La grotte des Ours, Réc. des Not. et Mém. de la Soc. Archéol. de Constantine, t. XLII, 1908.

-Fouilles de la grotte du Mouflon à Constantine, XXXVIIIe Congr. de l'Association Française pour l'avancement des sciences, Lille, 1909.

- Catalogue des objets préhistoriques renfermés dans les vitrines du Musée de Constantine, Rec. des not. & Mém. de la Soc. archéol. de Constantine, t. XLIII, 1909.

- Les escargotières Kjoek-kenmoeddings de la région de Tébéssa, VIIe Congr. Préhist. de Fr., Nimes, 1911.

- La station préhistorique du Djebel Ouach (près Constantine) Rec. des Not. et Mém. de la Soc. archéol. de Constantine, t. XLVI, 1912.

-La grotte Dat S'lam, Rec. des Not. et Mém. de la Soc. archéol. de Constantine, t. XLVI, 1912.

-Nouvelles fouilles à Mechta el-Arbi prés de Châteaudun-du-Rhumel (Constantine), Bull. de la Scociété préhistorique francaise, t. XI, 1914.

- La grotte des pigeons à Constantine, Rec. des Not. et Mém. de la Soc. archéol. de Constantine, vol. XLIX, 1915, 1916.

-La grotte du Djebel Felten, Rec. des Not. et Mém. de la Soc. archéol de Constantine, t. L, 1916.

-La grotte de Bou Zabaouine, reprise des fouilles, Rec. des Not. et Mém. de la Soc. archéol. de Constantine, t. L, 1916.

- Escargotière de Mouhaad, immédiatement voisine de l'atelier d'El Oubira, Rec. des Not. et Mém. de la Soc. archéol .de Constantine, t. LIII, 1921-1922.

- L'escargotière de Mechta el-Arbi (Aurignacien ancien) Reprise des fouilles en 1923, Rec. des not. et mém. de la Soc. archéol. de Constantine, t. LV, 1923-1924.

- La grotte des Hyènes du Djebel Roknia, Rec. des Not. et Mém. de la Soc. archéol. de Constantine, t. LVI. et LVII, 1925.1926.

Doumergue, F., - La grotte préhistorique de la Forêt à Oran, Bull. de la Soc. de Géogr. et d'Archéol. d'Oran. t. XXVII. 1907.

- Description de deux stations préhistoriques à quartzites taillés des environs de Karouba (Mostaganem) et considération sur leurs relations stratigraphiques avec la plage émergée du niveau de 18 mètres, Bull. de la Soc. de Géogr. et d'Archéol. d'Oran, t. XLII. 1922.

- La grotte de la Guethna (Lourmel) ,Bull. de la Soc. de Géogr. et d'Archéol. d'Oran, t. XLIII, 1923.

- La grotte éboulée du Camp de Abdel-Kader, Bull. de la Soc. de Géogr. et d'Archéol. d'Oran, t. XLVI, 1926.

-La grotte du Cuartel (Oran), Bull. de la Soc. de Géogr. et d'Archéol. d'Oran, t. XLVI, 1926.

- La grotte du polygone (Oran), Bull. de la Soc. de Géogr. et d'Archéol d'Oran, t. XLVII, 1927.

- Grotte et brêche ossifère de Saint-Roch- sur-Mer (Ain el-Turck), Bull. de la Soc. Gèogr. et d'Archéol. d'Oran, t. LV, 1934.

- Grotte (démantelée) des carrières d'Eckmuhl, Bull. de la Soc. de Géogr. et d'Archéol. d'Oran, t. LVI, 1935.

Doumergue, F., & Poirier, - La grotte préhistorique de Oued de Saida Bull. de la Soc. de Géogr. et d'Archéol. d'Oran, t. XIV, 1894.

le Du, R. — Station préhitstorique de l'Oued Djouf el-Djemel, Région de Tébessa-Chéria, Bull. mens, de la Soc. archéol. de Constantine, N. 59 1933.

— Une station capsienne: l'escargotière d'Ain Bahir, Bull. mens.de la Soc. Archéol. de Constantine, 1934.

—Les gravures repestres de la région de Tébessa, Rec. des Not. et Mém.de la Soc. Archèol. de Constantine, t. LXIII, 1935, 1936.

— Gravures, Graffiti et peintures rupestres de la vallée de l'Oued Hallail et du Djebel Tazermnount, (région de Tébessa), IIIe Congr. de la Fédér. des Soc. Sav. de l'Afr. du N., Constantine, 1937, t. II 1938.

— Le gisement préhistorique de l'Ain Guedara, Actes du IleCongr. Panaf. de Préh., Alger, 1952.

— La grotte supérieure de l'Ain Guedara, Actes du Ile Congr. Panaf de Préh., Alger, 1952.

le Du, R. & Sérée de Roch,— Le gisement Capasien de Bekkaria, Libyca t. I, 1953.

Dumon, Et., — Découverte d'une station acheuléenne dans la région du Kef (Tunisie), Rev. Tun. nouv. série, N. 52, 1942.

Ennouchi, E., Ossements fossiles découverts dans les fondations d'une maison à Rabat, C.r. séanc. mens. Soc. nat. du Maroc, t. XIX., 1953

— Découverte d'un homme de Mechta à Rabat l'Anthr. t. LVII. 1953

Estaunié, D., — Découverte de stations préhistoriques à Ammi-Moussa (Oran-Algérie), Bull. de la Société préhostorique française, t. IX1912

Fitte, P. — La grotte du juif, près Sefrou,Bull. de la Société préhistorique française t. XLIV, 1947.

Flamand, G. B. M., — Deux station nouvelles de pierres écrites (gravure rupestres) découvertes dans le cercle de Djelfa, l'Anthr. t. XXV,1914

Forrer, R., & Ruhlmann, A., — La station paléolithique d'Àin Fritissa (Maroc Oriental) , Bull. de la Soc. de préhist. du Maroc, t. XII, 1939

Gobert, E. G., — Le gisement paléolithique de Sidi Zin (avec une notice sur la faune par R. Vaufrey), Karthago, t. I 1950.

— El Mekta, station princips. du capsien, Karthago, t. III, 1951-1952

— Le site quaternaire de Sidi Mansour à Gafoa, Quaternaria, t. I 1954.

Goetz, Ch. — La station préhistorique d'El Kcar) Baudens), Bull.de la Soc. de Géogr. et d'Archéol. d'Oran t. LXVI — LXVII, 1945 - 1946.

Goetz, Ch. & Tailliet, J., - La station préhistorique de Bou-Aichem, près de Kristel (Oran), Bull. de la Soc. de Géogr. et d'Archéol.d'Oran, t. LXIV, 1943.

Goetz, Ch., & Vuillemot, G., — Nouvelles stations préhistoriques du littoral oranais. Bull. de la Soc. de Géogr. et d'Archèol. d'Oran t. LIX 1938 .

Groube, W., — La station préhistorique de la Daya Chiker (région de Taza), Bull . de la Soc. de Préhistorique. du Maroc t. XI, 1937.

Gsell St., — Atlas archéologique de l'Algérie 1911.

Howe, B., & Movius (H.-L. jr.) A stone age cave site inTangier, Preliminary report on the excavations at the Mugharet el-Aliya, or high cave in Tanagier, Papers of the Peabody Mus., Vol., XXIII,No. 1, 1947.

Janier, E., Stations préhistoriques de la région de Tlemcen, Bull. de la Soc. des Amis du Vieux, Tlemcen, 1952.

Joleaud, L., — Grotte préhistorique de Khanguet Si Mohammed Taher (Aurés septentrional), J. de la Soc. des African. t. IV, 1934.

Joleaud, L., & Castellani, — Escargotière préhistorique de Champlain près Médéa (Alger), J. de la Soc. des African, t. V., 1935.

Julien, M., — Découverte de silex et tombeaux mégalithiques à Khenche Bull. de;la Soc. Alg. de Climat. t. XIV, 1877.

Koehler, R. P. H., - La grotte d'Achakar au Cap Spartel, Pub. de l'Inst. d'Etudes des Religions de l'Evêché de Rabat, No. 1.

— La station de l'Aguelman de Sidi Ali (Maroc), Bull. de la société préhistonique française t. XXX, 1933.

— La grotte dite « du juif » à Serou, Bull. de la S. P. E. t. LI, 1954.

Lacorre, Mad. & F., La découverte de l'Homme d'Ain Metherchem : Sa roumaidia, son industrie, Atti del 1. congr+ intern. di Preist. et Pro Mediterr., Florence 1951.

Lafanechère, Lt. R., La station néolithique de Taounate, Bull. de la Soc. de préhist. du Maroc, n,s., 1950.

Laplace - Jauretche, G., Découverte de galbts taillés (Pebble culture) du le quatrenaire ancien du plateau de Mansourah(Constantin) c. r. Ac t. 247, 1956.

Letourneux, M. Catalouge des monuments préhistoriques de l'Algieral Bull. de la Soc. algér. de Climat. t. VI. 1869.

Logeart, F., & Vaufrey, R., Les gisements capsiens supérieurs et néolith ïques des environs d'Ain M'lila (Département de Constantine) , Bull de la Soc. de Géogr. et d'Archéol d'Oran, t. LXVIII, 1947.

Malhomme, J., Gravures rupestres du Grand-Atlas, c.r. des séanc. mens. de l'Institut des Hautes-Etudes Marocaines, 1951.

— Aperçu sur les gravutres rupestres de la région de Marrakech Hespéris t. XL 1953.

— Fouilles à l'Oukai-meden, Bull. de la société prèhistorique française t. L. 1953.

— La station préhistorique de la Caza (Oukaimeden, Grand Atlas) c. r. séanc. mens. Soc. Sc. nat. du Maroc, No. 4, 1954.

Marchand, H., — Fouille à la station préhistorique deu Chenoua (notre préliminaire), Bull,de la Soc. d'Hist. nat. de l'Afr. du N., t. XXII, 1931

— Cherchell préchistorique, Bull. de la société préhistorique française t. XXIX, 1932.

— Gouraya préhistorique, Bull. de la soc. archéol. de Constantine, No 55, 1932.

— Une importante station préhistorique du littoral Est-Algérois,B de la Société préhistorique franÇaise, t. XXIX 1932.

— Une escargotière préhistorique à Tinar, près Sétif , Bull. mens. de de la soc. archéol. de Constantine, No. 56, 1932.

— Les stations préhistoriques Djebel Bouzegza (Dépt. d'Alger), Bull de l'Assoc. rég. de Paléont .et de préhist., Lyon, fasc. 5, 1932.

— La station néolithique du lac Halloula, Bull. d'e la société préhistorique française .t. XXX, 1933.

— Les squelettes du Souk- Khamis Zemaara (Maroc Occidental), Bul mens. de la soc. archèol. de Constantine, No. 60, 1933.

— Stations palélithiques des Monts. du Zab, bll. mens. de la soc. archèol. de Constantine, No. 61 1933.

— Stations paléolithiques littorales de la région de Ténès, Bull. de la soc. d'hist. nat. de l'Afr. du N., t. XXV, 1934.

— La grotte préhistorique de L'Oued Kerma, Commune de Draria (Alger), Bull, de la société préhistorique franÇaise, t. XXXI, 1934.

— La station préhistorique du Rocher Plate, Bull. de la l'Afr. du N t. XXX, 1939.

— Stations préhistoriques nouvelles de la région des ouled Djellal l'inter-atéro-capsien, Bull. de la société préhistrique franÇaise. t. XXXVI 1939.

— Stations préhistoriques de Yacouren et de l'Akfadou, Bull. de la Soc. d'Hist. nat. de l'Afr. du N., t. XXXI, 1940.

— Stations préhistoriques nouvelles pour l'Afrique du Nord, Bull. de la Soc. d'Hist. nat. de l'Afr. du N., t. XXXIX, 1948.

Marchand, H, et. Aymé. A., La station préhistorique du plateau de de Souanine, Bull. de la Soc. d'Hist. nat.de l'Afr.du N., t.XXIV, 1933

Marchand, H, & Cadéac, A., Une station du néolithique ancien à Ain Akbou (commune de Damiette), Bull. de la soc. d'hist. de l'Afr. du N t. XXIII, 1932.

Marçais,J., Découverte des restes humains fossiles dans les grès quater_naior de Rabat, Maroc, l'Anthr., t. XLIV, 1934.

Maufras, E., — Découvsrte d'une station préhistorique à Oude-Imbert Bull. de la soc. de Géogr. et d'Archèol. d'Oran, 1888.

Mercier, G., -- La station préhistorique de châteaudun- du-Rhummel, Rec. des not. et mém. de la soc. archéol. de Constantine, t. XLI, 190

Morel, J.,La station préhistorique de demnet el-Hassan, dans la commune Mixte de la Calle (Département de Constantine) et le problème de l'Ibro-Maurusien, Actes du IIe. congr. Panaf. de Préh., Alger, 1952

Morel, J., & Bobo, J., — La station de microlithes de Bir-el-Adal, dans le Sud-Constantion is, Bull. de la société préhostrique française t. XLVIII 1951.

Morgan, J. de, Les dernières dècouvertes préhoistoriques de M. Reygasse Rev. Afric. t. LXV, 1924.

Mortelmans, G., Choubert, G., & Hollard, H., Découverte d'industries du groupe de la «Pebblee Culture » sur le reg ancien des plaines du Dra (Sud Marocain), Acad. Sc. (c. r. hebd. de sèances), t. 235, 1952.

Neuvilme, R., & Ruhlmann, A., Une nouvelle industrille préhistorique nord-afrcaine: le (Rahmanien) (Clacto-Abbevillien), Public. du Serv des Ant. du Maroc, fasc. 6, 1941.

Pallary, P., Découvertes préhistorique dans le Maroc Oriental(1923-1926) l'Anthr. t. XXXVII, 1927.

Piquet, Découvertes d'une escargotière à château-dun-du-Rhummel, Bull mens. de la soc. archéol. de Constantine. No. 35, 19390.

Piroutet,M.., La station préhistorique d'Ain Taya, près d'Alger,Bull. de la société préhistorique française, t. XXVII, 1930.

Pomel, A., Station préhistorique de Ternifine de (Mascara), XIVe congr de l'association française pour l'avancement des sciences. Grenoble 1885.

Reygasse, M., & Latapie, M., — Découvertes préhistorique dans le cercle de Tébéssa, Rec. des not. et mèm. de la Soc. archéol . de Constantine,t. XLV. 1911.

Reygasse, M., & Latapie, M.., — Une grotte néolithique dans le massi de Mesloula, près Clairfontaine, (province de Constantine- Algérie Bull. de la Société préhistorique française, t. IX, 1912.

Robert, A., La grotte de Bou-Zabaouine, département de Constantine (Algérie), 1er. Congr. préhist. de Fr., Périgueux, 1905.

— Nouvelles stations préhistoriques dans les communes de Bordj-bou-Arreridj et des Maadid, Rec. de Not. et Mém. de la Soc. Archéol.de Constantine t. III, 1921-1922.

Roche, (Abbé J.) , La grotte de Taforalt, l'Anthr. t. LVII, 1953.

Roffo, P., Nouvelles découvertes préhistoriques dans le cercle de Djelfa (Sud-Algérois), Petite station de surface à Tilrempt, Rev. Anthr. XLV 1935.

— Découvertes préhistoriques dans le département d'Alger et la station de Souk el-Kremis, Rev. Afric. t., LXXVI, 1935.

— Découvertes préhistoriques dans le département d'Alger Bull. de la Société préhistorique française, t. XXXII, 1935.

— La station capsienne de l'Oued el Hamara (Sud des Ouled Djuellal Bull. de la société préhistorique française, t. XXXV, 1938.

Roubet, F. E., Nouvelles stations préhistoriques découvertes dans le Occidental (Algérie), Bull. de la Société préhistorique fran;ais XXXIII, 1936.

— Découverte d'un foyer néolithique par un obus, place de France, Oran, bull. de la soc. de Géogr. et d'Archéol. d'Oran, t. LXIX, 1947

Royer, P., Ossemsents humains paléolithiques provenant de la Meskiaan (Constantine), Bull, et Mém. de la soc. d'Anthr. de Paris, 1932.

Ruhlmann,A.,Les fouilles des grottes d'El-Khenzira et la chronologie du paléolithique marocain (moyen et supérieur) , Rapport préliminar Bull. de la Soc. de Préhist. du Maroc, t. IX, 1935 .

— Enceintes préhistoriques marocaines, Bull. de la société de préhi stoire du Maroc, t. X, 1936.

— Le tumulus de sidi-Slimane (Rharb) Bull. de la soc. de Préhist. du Maroc. t. XII, 1939.

— La station préhistorique de lá Daya de(Ghabt el-Bha) (Moyen-Atlas) ,Hespérise, t. XXX, 1943.

— L'homme fossile de Rabat, Hespéris t. XXXII, 1945.

— La grotte préhistorique de Dar es-Soltan, collec. Hespéri 1951.

Senyurek, M.-S., Fossil Man in Tangier. Papers of the Peabody Mus. Amer. Archéol. and Ethnol., t. XVI, No. 3, 1940.

Tailliet, J., & Goetz, Ch., Objets en coquille d'oeuf d'autruche du (cimetère des escargots), Bull. de la Soc. de Géogr. et d'Archéol.d'Oran, t. LXII, 1941.

Tarradell, M., Estado actual de la investigacion arqueologica en la zona de protectorado Espanol en Marruecos, cronica del Ive congreso Arqu— ologico del Sudeste Espanol, Elche 1948 (Cartagena, 1949),.

— Tres anos de investigaciones arqueolog cas en Marruecos, Cronica del IIo Congreso Nacional de Arqueologia, Madrid, 1951.

Troussel, R., Les pierres gravées d'Akfadou, Rec. des Not. et Mém. dela Soc. archéol. dd Constantine, t. LXVI, 1948.

Vallois, H.. -V., Le squelette d'Ain Méterchem (découvertes de Mad. et M. F. Lacorre), Atti del 1. congr. intern. di Pꝥviest. e protost . Medit. Florence, 1950.

Vuillemot,G., La grotte d'El Bachir, Bou-Sfer, Bull. de la Scc.de géogr et d'Archéol. d'Oran, t. LVIII, 1937.

— Stations préhistoriqus des Hauts-Plateaux Oranais, Bull. de la Soc de Géogr. et d'Archéol. d'Oran, t. LXXIV, 1951.

— La station préhistorique de Bégeyville, Actes du IIe congr. Panafed Préh., Alger, 1952.

Chatelain, L., Mosaiques des Volubilis.

وفيما يلي بعض التقارير الخاصة بالعصر التاريخي :

Thouvenot, R., Les Thermes dits de Gallien à Volubilis.

Ruhlmann, A., A propos d'une plaquette de caractère militaire à Thamusid

Thouvenot, R., Tablette de bronze découverte à Banasa.

Ruhlmann, A., Pierre gravée et tumulus du Djebel Siroua.

وجميعها فى المجلد الأول من مطبوعات مصلحة الآثار المغربية سنة ١٩٣٥ . وحوى المجلد الثالث سنة ١٩٣٨ التقارير التالية :

Chatelain, L., Les origins des fouilles de Volubilis, l'arc de triomphe de Caracalla, les centres romains du Maroc.

Thouvenot, R., Les deux têtes d'Exos de Volubilis, le silène endormi de Volubilis, chapiteaux romains tradifs de Tingitane et d'Espagne.

Ruhlmann, A., Gravures rupestres d'Oued Dia (Maroc Saharien).

وقد تضمن المجلد السابع سنة ١٩٤٥ :

Thouvenot, R., Inscription sur bronze trouvée à Volubilis, la maison d'Orphée à Volubilis. Deux. mosaiques de Volubilis à sujets mythologiques. Statuette de Mercure trouvée à Banasa. Maison romaine à Sala (Chella). Marques d'amphores romaines trouvées au Maroc.

وفى المجلد الثامن سنة ١٩٤٨ :

Thouvenot, R., — Volubilis, la maison aux travaux d'Hercule. Le quartier Nord-Est. La rive droits du Decumanus Maximus. Disque sacré du culte de Cybèle. Statuette d'Attis Criophore. Statuettes de Minerva et de la fortune.

وفى المجلد العاشر سنة ١٩٥٤ :

Etienne, R., Maisons et hydraulique dans le quartier Nord-Est à Volubilis.

Thouvenot. R., Les manufactures impériales au Marocromain. Lampes en bronzs. Eléments de pressoir à huile trouvès à Salé. Monnaies du Bas-Empire trouvées sur le littoral océanique marocain.

وفى المجلد الحادى عشر سنة ١٩٥٤ :

Thouvenot, R., le site de Julia Valentia Banasa. Le premier Nord-Est. La quartier Sud-Ouest. Les maisons de Banasa. Petits bustes de Bacchus Petit personnage bachique. Ornemnts de Klines. Statuettes de Vénus Statuette d'Hygie. Petit Atlante en bronze. Statuette de Génié domestique. Statuette de femme. Ornment de candélabre. Anse de vase historiée. Statuette de tigresse. Bracelet-bourse. Accessoires de voiture. Table de patronat. Lampes en terre cuite. Marques d'amphores. Intailles.

وفى المجلد الثانى عشر سنة ١٩٥٨ :

Thouvenot, R., Maisons de Volubilis: le palais dit de Gordien et la mais on de Vénus, 1958.

وفى المجلد الثالث عشر سنة ١٩٥٩ :

Malhomme, J., Corpus des gravuees rupestres du grand Atlas, 1ère partie.

وفيما يلى بعض التقارير عن الآثار المسيحية متضمنة المذهب الدوناتى :

Simon, H., Fouilles dans la Basilique d'Henchir el-Ateuch, Mélanege d'Archéologie et d'histoire de l'école franÇaise de Rome, 1934.

Gagé, J., Eglise et reliquaire d'Afrique, Mélanges d'Archéologie et d'his toire de l'éclle franÇaise de Rome. 1927.

Truillot, A., Ct. Martignon, Mosaiques tombales chrétiennes découverte à Sousse, Bulletin archéolohique du Comité des travaux historiques 1938, 1940.

St. Gsell, Fouilles des Benian, 1899.

Gayrel, P., Une basilique donatistae de Númidie, Melange d'Archéologie et d'Histoire de l'école franÇaise de Rome, 1934.

Gouvcelle, P., Une seconde campagne de fouilles à Ksar el-Kelb, Mélange d'archélogie et d'histoire de l'Ecole franÇaise de Rome, 1936.

Leschi, L., Basilique et cimetière donatistes de Numidie (Ain Ghorab), Revue Afr cain, 1936.

Bartoccini, R., Il recinto giustiniano di leptis Magna, Riv. della Tripol. t. II.

— Scavie rinvenimenti in Tripolitania neglianni 1926, 1927, Assbaa, Tripoli, En Nigla, Henscrir Suffit, Africa Italiana, t. II, 1928, 1929.

Poinssot, L., Fouilles de Tuberuc, Bull. archéoloique du Comité des des travaux historiques, 1926.

المصدر الثانى - النصوص التاريخية الليبية أى البربرية والفينيقية والقرطاجية واليونانية واللاتينية :

وهذا المصدر من الأهميـــة بمكان نظرا لاعتبار تلك النصوص كوثائق أصيـلة تعبر عن تاريخ المغرب القـديم فى المراحل المنتمية إليها . وفيما يتعلق بالنصـــوص الليبية فينبغى الاهتمام بها لأنها تصف جوانب من تفكير البربر وحياتهم وأدبهم وهذه الناحية لها دورها الرئيسى فى تاريخ المغرب القديم ، لأن البربر هم أقدم العناصر البشرية التى أدت دور أحضاريا وسياسيا قرب نهاية عصور ما قبل التاريخ وأثناء العصر التاريخى فى هذه المنطقة . وفيما يلى بعض هذه النصوص .

Chabol, J.-B., Recueil des Inscriptions Libyques, 1940, 1941.

Marcy, G., Les inscriptions libyques bilingues de l'Afrique du Nord, Chiers de la Société asiatique, fasc. V. 1936.

Chabot J.-B., Fantaisies libyques, Revue Africaine, 1937.

Marcy, G., Epigraphie berbère (numidique et saharienne) ,annales de l'Institut d'Etudes Orienales de la Faculté de lettres de l'univ. d'Alge t. II, 1936.

Salluste, Bellum Ingurthinum, éd A. Ernount, 1941, coll. G. Budé.

César, Bellum civile, éd. P. Fabre, 1936, coll. G. Budé.

وبالاضافة إلى هذه النصوص هناك النصوص البونيه والتى سجلها القرطاجيون وتعبر عن مختلف نشاطهم السياسى والفكرى فى المغرب القديم ، وتكمل بذلك بعض الجوانب التى تعمدت بعض النصوص الكلاسيكية اغفالها . وترتبط

هذه النصوص بالنصوص الفينيقية فى الشرق الأدنى لأنها تعتبر بمثابة امتداد لها ؛ هذا بالاضافة إلى تأثر القرطاجيين بالبربر واكتسابهم بعض الجوانب البربرية فى حضارتهم مما أعطى لهم طابعا خاصا يميزهم من الناحية الفكرية عن الفينيقين فى الشرق. ولا يعنى ذلك عدم تأثير البربر بهم بل أن التأثيرات الفينيقية والقرطاجنية لبعيدة المدى فى المجمعات البربرية القديمة . ومن هذه النصـــوص ما ذكر فى مجموعة

Corpus inscriptionum semiticarum, première partie, châpitre XIII.

Chabout. J.-B., Punica, Journal Asiatique, t. VII, 1916; VIII, 1916; I 1917; X 1917; XI, 1918.

أما النصوص اللاتينية فهى تعبر عن مراحل العصر الرومانى فى المغرب وهى المرحله التى تمكن الرومان فيها من فرض سيادتهم السياسية والعسكرية لحد كبير فى هذه المنطقة رغم محاولات البربر المتكررة القيام بثورات تحاول تخليص البلاد من نفوذهم واستعادة الحرية . وقد عثر على هذه النصوص فى المواقع الاثرية الكثيرة وخاصة المدن الرومانية التى تمكن الرومان من تأسيسها وتحصينها. وتماثل هذه النصوص لحد كبير غيرهـــا من النصوص اللاتينيـــة المنتشرة فى ارجاء الامبراطورية الرومانية فى حوض البحر الأبيض المتوسط فهى تعبر عن طبيعة الحكم الرومانى فى عصر الامبراطورية . ومن نصوص هذه المرحلة ما سجلته مجموعة .

Corpus inscripitionum latinarum, t. VIII.

St. Gsell, Inscripitions latines de l'Algérie, t. I, Paris 1922.

Chatelain L. , Inscripitions latines du Maroc. Paris, 1948.

Merlin, A., Inscriptions latines de la TunisMe, Paris, 1944.

اما بالنسبة للنصوص الخاصة بمرحلة الواندال فمنها :

FiebgerO., et Schidt L. Inschriften sammlung zur Geshichte derOsgerman Denkschriften der kaiserl. Akademie der Wissenschaften de Viennee Phil. Hist. Klasse. t. LX, Vienne, 1917.

وبالنسبة للنصوص فى العصر المسيحى متضمنة المذهب الدوناتى فمنها :

Von Sonden, H., Urkunden zu Entstehungsgesehichte des Donatismus, Kleine texte, de Lietzmann, H., t. CXXII, Bonn, 1913.

Duchesne, L., le dossier du Donatisme, Mélanges d'Archéologie et d'Histoi - de l'Ecole franÇaise de Rome, 1980.

Monceaux, P., L'Epigraphie donatiste, Revue de Philogie, 1909.

Gagé, J, Sur deux inscriptions chrétiennes d'Hippone, Bull. de l'Académie d'Hippone, No. 37, 1930-35.

أما النصوص اليونانية فهى نسبيا محدودة نظرا لعدم تمكن اليونان من فرض سيادتهم السياسية العسكرية الا لفترات وجيزة فى منطقة تونس، هذا بالاضافة الى منطقة برقة. ولا يمنع ذلك من وجود النفوذ اليونانى فى المجال الحضارى فى العصر القرطاجى فقد اعتمد القرطاجيون على بعض المظاهر الحضارية اليونانية من حيث النظم السياسية والدستورية، وأيضا فى المجال الفنى. بل لقد اتجه القرطاجيون إلى تدريس اللغة اليونانية باعتبارها لغة تعبر عن تراث حضارى له اهميته فى ذلك الوقت . وقد جمعت بعض هذه النصوص فى :

Cagna t, R.; Toutain, J., Jouguet, P., Inscriptiones graecae ad res romanas pertinentes, t. I, 1911.

وتعتبر جميع هذة النصوص السالفة الذكر من أهم المصادر التى يعتمد عليها الباحث فى تاريخ المغرب القديم وهى تكمل الجانب الممثل فى التركة المادية التى خلفتها مراحل هذا التاريخ فى هذه المنطقة .

المصدر الثالث - ما سجله الكتاب اليونان والرومان والمسيحيون ؛ عن تاريخ وتراث هذه المنطقة. وهذا المصدر له اتجاهاته الخاصة نظرا لان بعض أجزاء هذه المنطقة كانت قد دخلت فى نطاق النشاط الفينيقى فى المجالات الاقتصادية والحضارية ، وقد تطور ذلك الى نجاح الفينيقين فى تأسيس دولة مستقلة هى الدولة القرطاجية . وقد اعتبر الاغريق والرومان تكوين هذه الدولة بمثابة حد لنشاطهم التجارى والسياسى والحضارى فى هذه المنطقة. ولذلك اقتصروا على توجيه اهتمامهم بالمناطق الشمالية فى حوض البحر الأبيض المتوسط أى جنوبى أوروبا . واتخذوا موقفاً معاديا للفينقيين والقرطاجيين مما يستوجب ضرورة الاحتياط والحذر عند دراسة كتاباتهم عن النشاط السامى وخاصة الفينيقى والقرطاجى. بل إن بعض هذه الكتابات قد اتخذت طابع التمويه مما يزيد فى ضرورة تنبه المؤرخ أثناء تحريه لحقائق احداث التاريخ المغربى القديم . ويتضمن هذا المصدر ماسجله المؤرخون والجغرافيون الكلاسيكيون مثل هيردوت وأرسطو وبوليبيوس وديودور وبلوتارك وسيليوس اتافيكوس واسترابو وغيرهم .

والمصدر الرابع - يمكن تتبعه فى بعض الظواهر الاثنوغرافية والثقافية وبصفة خاصة بعض العادات والتقاليد المعاصرة فى بعض مجتمعات البادية المغربية . وتتمثل فى الوشم والرقص الشعبى والأغانى والأمثال وكذا بعض مظاهر العمارة وبعض العادات الدينية القديمة . وتدخل هذه الجوانب فى حقل

الانثروبولوجيا الثقافية وتصور عادات متوارثة عن المجتمعات القديمة ومستمرة حتى الوقت الحاضر . فهى تلقى بعض الضوء أحيانا عن بعض التقاليد والعادات فى العصور القديمة . وهذا المصدر من الأهمية بمكان ويستوجب سرعة التسجيل نظرا لاندثار هذه العادات والتقاليد بحكم التقدم الحضارى المعاصر .

والمصدر الخامس - ما سجله المؤرخون والجغرافيون والرحالة المسلمون والعرب عن المغرب وآثاره وشعوبه وقبائله ولهجاته ومن أهم هؤلاء : —

عبد الرحمن بن خلدون فى كتابه العبر وديوان المبتدأ والخبر فى سبعة أجزاء بما فى ذلك المقدمة ، القاهرة سنة ١٢٨٤ هـ .

والبكرى فى كتاب المُغرب فى ذكر بلاد أفريقية والمغرب ، نشر البارون دى سلان ، الجزائر سنة ١٩١١ .

والشريف الإدريسى فى كتابه نزهة المشتاق فى اختراق الأفاق ، نشر الجزء الخاص بالمغرب والأندلس ومصر المستشرقان دوزى ودى خويا ، ليدن سنة ١٨٦٦ .

وعبد المنعم الحميرى فى كتابه الروض المعطار فى خبر الأقطار ، نشر ليفى بروفنسال ، القاهرة سنة ١٩٣٧ .

وكتاب الاستبصار فى عجائب الأمصار لمؤلف مغربى غير معروف نشره سعد زغلول ، الاسكندرية سنة ١٩٥٨ .

ولسان الدين ابن الخطيب فى رسائله التى نشرها أحمد مختار العبادى تحت عنوان مشاهدات أبن الخطيب فى بلاد المغرب والأندلس، الاسكندرية سنة ١٩٥٨ .

ويعطى هذا المصدر صورة لآراء ومشاهدات المؤرخون والجغرافيون والأدباء المسلمين عن هذه المنطقة وينبغى على الباحث التزام جانب الحيطة والدقة عند تتبعه لآرائهم بالنسبة للتاريخ القديم .

وتعتبر هذه المصادر الخمسة السالفة الذكر بمثابة العمد الرئيسية التى يعتمد عليها الباحث فى دراسة التاريخ المغربى القديم . هذا وقد أخرج المؤرخون عدداً ضخما من المراجع والكتب والحوليات العلمية التى تعتمد على هذه المصادر وتسجيل أحداث هذا التاريخ .

وفيما يلى أقدم مراحل تاريخ المغرب القديم وهى مرحلة عصور ما قبل التاريخ .

الباب الثانى

عصور ماقبل التاريخ فى المغرب الكبير

قبل الاحاطة بحضارات عصور ما قبل التاريخ فى المغرب القديم ينبغى الاشارة أولا إلى كل من المحورين الرئيسيين اللذين ينبع منهمـــا الإنتاج الحضارى بكافة مظاهره وهما البيئة والانسان . فالحضارة فى أوسع مجالات مفهومها ماهى إلا نتاج تفاعل الإنسان مع البيئة . ويعتمد هذا النتاج فيما يعتمد ، على طبيعة هذه البيئة وماتكتنفه من ظواهر جغرافية تختلف باختلاف الزمان والمكان . ولذلك كان العامل البيئى من أهم العوامل التى تؤثر فى هذا الانتاج وتشكيله بشكل معين . ومن ناحية أخرى ظـل الانسان يترقب هـذه البيئة ويداوم على ملاحظة مظاهرها المختلفة الأرضيـة والجوية والمائية والنباتية والحيوانية ويكتسب فى هذا الصدد الكثير من التجارب التى تعاونه فى دفع عجلة التحول والتطور والاختراع والإنتاج .

والواقع أن هذه التجارب المتوارثة والمكتسبة هى بمثابة الأساس الذى تقوم عليه عملية الانشاء الحضارى وليس للعنصر البشرى من حيث انتمائه إلى جنس معين أية صلة بالتفوق الحضارى . فعبقرية الانتاج تعتمد على الظروف البيئية والتجارب المختلفة وأيضا المثابرة على ملاحظة وربط الظواهر العامة والخاصة . وتتفاعل فى هذا المجال المقومات المحلية مع المؤثرات الخارجية مما يؤدى إلى نمو أو تعديل الاتجاهات الحضارية .

الفصل الأول

البيئة والانسان

في عصور ماقبل التاريخ في هذه المنطقة

تجمع البيئة المغربية بين مختلف التضاريس فهناك مجموعة جبال الأطلس والهضاب المحيطه بها والسهول الساحلية والداخلية والمنخفضات والواحات والأودية والغابات والصحراء الكبرى الممتدة من البحر الأحمر إلى المحيط الأطلسي . ويتصل تاريخ هذه البيئة فى عصور ماقبل التاريخ اتصالا وثيقا بالتطورات الجغرافية الجوية والأرضية والمائية التى حدثت فى الزمن الجيولوجى الرابع أىعصر البليستوسين . ولكنها تميزت بتطوراتها الخاصة ، فبينما سادت هـذا العصر الهجمات الجليدية فى أوربا وفترات تراجعها كانت هناك الهجمات المطيرة وفترات الجفاف فى المغرب القديم فى ذلك الوقت . وقد قام العلمـاء بالبحث عن الأدلة المختلفة التى تثبت حدوث هـذه المراحل المطيرةفى تلك المنطقة وأيضا نوع الحياة الحيوانية والنباتية والانسانية أثناءها. واشترك فى هذا الصدد علماء الجيولوجيا والجغرافيا والجو القديم والنبات القديم والحيوان القديم والانثروبولوجيا والآثار الذين قاموا بالدراسات المختلفة كل فى ميدانه الخاص متوخين الوصول إلى حقائق هذه المرحلة مع محاولة التعرف على صلات هذه الادلة ببعضها . ويبدأ الجيولوجيون بقياس الارتفاع فى البحار نتيجة ذوبان الجليد وتأثيرها على الشواطىء البحرية وذلك بدراسة الرسوبات المختلفة التى تجمعت على هذه الشواطىء والتى تظهر طبقاتها فى

بعض المحاجر والهضاب المتاخمة لهذه السواحل . ومن الأمثلة الجيدة لهذه المحــــاجر محجر سيدى عبـد الرحمن ومحجر مارتن فى نواحى الـدار البيضاء بالمغرب .

ويلاحظ أن هذه الطبقات تدل على مراحل الازدياد والتراجع وتقابل بدورها مراحل الهجمات الجليدية وتراجعها ، ولكن على أساس أن التراجع فى هذه الناحية البحرية يوازى مراحل الهجوم الجليدى، وأن الازدياد فيها معناه تراجع الجليد . وذلك على أساس أن عملية ذوبان الجليد فى فترات التراجع الجليدى تؤدى إلى ازدياد نسبة المياه مما ينتج عنه ارتفاع مستوى البحار وتكوين الرسوبات التى تظهر فى طبقات هذه الشواطىء والمحاجر الساحلية ، والعكس صحيح . وعلى ذلك فدراسة هذه الطبقات تعطى الباحث صورة عن الاحوال الجوية فى هذه العصور بجانب ماتكتنفه هذه الطبقات من آثار عظمية حيوانية وإنسانية وصناعات حجرية هامة من مخلفات إنتاجه فى ذلك الوقت .

وبالإضافة إلى دراسات الجيولوجيين يقوم الجغرافيون وعلماء الجو القديم بالبحث عن أدلة أخرى تثبت حدوث الهجمات المطيرة فى تلك العصور . فاتجهت أبحاثهم إلى دراسة الصحراء الكبرى التى تحدثت المصادر الكلاسيكية عن خصوبتها . فقد عثر على عدد كبير من الأودية والبحيرات التى تجمعت فيها الرسوبات الناجمة عن العصر المطير ومن أهم هذه الاودية وادى اغراغار الذى يبدأ من جبال الهجار ويتجه شمالا حتى منخفض توغورت ويصل حتى شط ملغير فى شرقى الجزائر . وكذلك عثر على رسوبات فى هضاب تاسيلى شمال جبال الهجار السالفة الذكر وأيضا فى وادى مردوم فى شرقى طرابلس .

ومما يسترعى الانتباه العثور فى منطقة نهر النيجر الأعلى على بقايا بعض عظام متحجرة لأسماك وأفراس نهر وزراف وفيلة وغيرها من الحيوانات . ويقوم علماء الحيوان القديم بدراسة هذه البقايا العظمية للتعرف على نوع الحيـــاة الحيوانية السائدة فى تلك العصور والتى تتفق مع الظروف المناخية والبيئية الملائمة لها . وقد تخللت فترات العصر المطير مراحل جفـــاف بعد تراجع الموجات الباردة نحو الشمال . ويمكن تتبع هذه الفترات من دراسة الطبقات الرسوبية المحتوية على بقايا عظام حيوانات تلائمها تلك الظروف الجوية .

وقد حاول العلماء ربط مراحل العصر المطير بمراحل الهجمات الجليدية فى أوروبا وتمكنوا بعد دراسات جيولوجية وجغرافية طويلة من التعرف على المراحل التالية[١] بالنسبة إلى منطقة المغرب الأقصى والموازية لمراحل الهجمات الجليدية :

المراحل الجليدية الأوربية			المراحل المطيرة فى المغرب الاقصى	
فرم الجديدية	Neowurm	توازى	الغربية	Rharbien
فرم	wurm	توازى	السلطانية	Soltanien
رس	Riss	توازى	التنسيفتية	Tensiftien
مندل	Mindel	توازى	العامرية	Amirien
جنز	Gunz	توازى	السلاوية	Salétien
ماقبل جنز	Pregunz	توازى	الملوية	Moulouyen

(١) Biberson P.; Choubert, G.; Faure - Maurot, A., et Lecointre, G, Contribution a l' étude de la " Pebble-culture" du Maroc Atlantique, Bulletin d' Archéologie Marocaine. T. 111, 1958, p. 9.

وكما اجتذبت هذه البيئة المغربية الحيوان رغم الصعوبات المناخية فقد اتجه الانسان أيضا إلى الحياة فى تلك المنطقة محاولا اثبات كيانه . وقام العلماء بالبحث عن أقدم إنسان وصل إلى تلك المنطقة وصناعته وحضارته الأولى ، وأيضا التعرف على علاقة هـــذا الإنسان بزملائه فى القارتين الأوربية والآسيوية .

وقد عثر على عظام هذا الانسان الأول فى عدد من المواقع الأثرية المغربية المنتمية إلى العصر الحجرى القديم الأسفل والأوسط والأعلى وأيضا العصر الحجرى الحديث . وقبل التعرف على نوع هذا الانسان ومكانه فى سلم التطور ينبغى الاشارة إلى مراحل التطور الرئيسية للانسان بوجـــه عام والتى على أساسها يمكن وضع الانسان المغربى القديم فى مكانه بين السلالات البشرية . وتنقسم هذه المراحل[1] إلى مايلى :

(ا) مرحلة ماقبل الانسان Prehumans فى عصرى الميوسين والبليوسين منذ حوالى ١٥ مليون سنة .

(ب) مرحلة الانسان الأول وذلك في عصر البليستوسين وتشمل ما يلي :

١ ـ مرحلة انسان جاوه Pithecanthropus وإنسان بكين Sinanthropus، أنظر شكل رقم (١) ، وبداية صناعة الادوات الحجرية منــذ حوالى نصف مليون سنة ، وإنسان بلتدون Piltdown فى انجلترا .

---

(١) رشيد الناضورى ، دراسة لبعض العناصر الحضارية فى تراث الشرق الأدنى القديم فى المراحل السابقة للعصر التاريخى وأثنائه ، الأسكندرية سنة ١٩٦٠ ، ص ١٦ ، ١٧ .

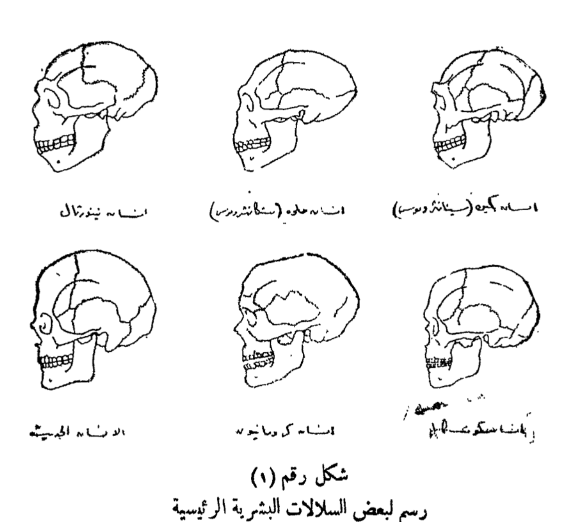
٢ ـ مرحلة إنسان نياندرتال Neanderthal فى ألمانيا وإنسان هيدلبرج Heidelberg فى ألمانيا وإنسان روديسيا Rhodesia فى أفريقيا وإنسان Solo فى جاوه .

٣ ـ مرحلة الإنسان الحديث الأول Early modern man ويشمل إنسان Galley Hill فى انجلترا وإنسان سوانسكوب Swanscombe فى انجلترا وأيضا انسان ستاينهيم Steinheim فى ألمانيا ، وينتمى إلى هذه المجموعة أيضا انسان جبل الكرمل Mount Carmel بفلسطين .

(ج) مرحلة الانسان الحديث أو الانسان العاقل Homo Sapiens وقد ظهر منذ حوالى ٧٥٫٠٠٠ سنة وما بعدها . وفى أوروبا ظهر هذا الانسان منذ حوالى ٥٠٫٠٠٠ سنة وينتمى إلى هذه المرحلة مجموعة انسان كرومانيون Cro-Magnon بفرنسا ومجموعة كومبى ـ كابل ـ برن Combe-Capalle-Brunn وانسان جريمالدى Grimalde ذو الصفات الزنجية بايطاليا .

وهناك أمثلة أخرى تمثل السلالات البشرية المختلفة البيضاء والسوداء والصفراء أى العناصر القوقازية والزنجية والمغولية .

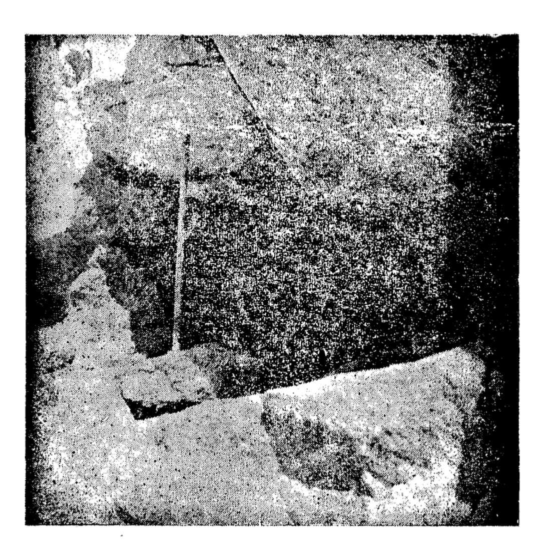
أما فى المغرب فقد عثر على عدد كبير من البقايا العظمية الانسانية وبصفة خاصة عظام الفك السفلى والعلوى والجمجمة ، لأن هذه العظام تعتبر من أقوى الأجزاء العظمية فى الهيكل الانسانى وتتحمل لحد ما فاعلية الزمن . وأقدم هذه الآثار العظمية الانسانية فى المغرب ما عثر عليه فى موقع باليكاو بالجزائر وتنتمى إلى مرحلة العصر الحجرى القديم الأسفل . وهى عبارة عن ثلاث عظام فكية سفلية وتتميز بكبرها وثقلها وأيضا عظمة جدار أيمن للجمجمة .



شكل رقم (١)
رسم لبعض السلالات البشرية الرئيسية

ويلاحظ العثور عليها مع مجموعة من الفئوس اليدوية مما يغلب انتمائها إلى مرحلة حضارية واحدة . وقد قام العلماء بالدراسات المقارنة لمعرفة مكان هذا الانسان فى التطور البشرى فثبت أنه ينتمى إلى مجموعة اتلانثروبوس موريطانيكوس Atlanthropus Mauritanicus وترتبط هذه المجموعة الأخيرة مع مجموعة الشرق الأقصى أى انسان جاوه وانسان بكين. ويدعم هذا الارتباط وجود وجه شبه فى الأسنان . وقد عثر أيضا على مجموعة أخرى فى غاية الأهمية تنتمى إلى مرحلة العصر الحجرى القديم الأسفل فى محجر سيدى عبد الرحمن وهو أحد المحاجر الكثيرة المنتشرة فى نواحى الدار البيضاء نتيجة تجمع الرسوبات البحرية والحجر الرملى والجص طوال العصور الجيولوجية . وقد

تخللت طبقات هذه المحاجر بقايا عظمية لحيوانات فقرية كفرس النهر ووحيد القرن وحيوانات لافقرية بالاضافة إلى البقايا الأثرية التى خلفها الانسان فى هذه المرحلة . وتنحدر هضبة هذا الموقع من ارتفاع يزيد على مائة متر إلى مسافة خمسة كيلومترات تجاه الشاطىء الأطلسى وتمتد نحو الجنوب الغربى حيث عثر على كهفين هما كهف الدببة grotte des Ours وكهف ليتورين Grotte des Littorines ، انظر شكل رقم (٢) . وفى هذا الأخير اكتشف

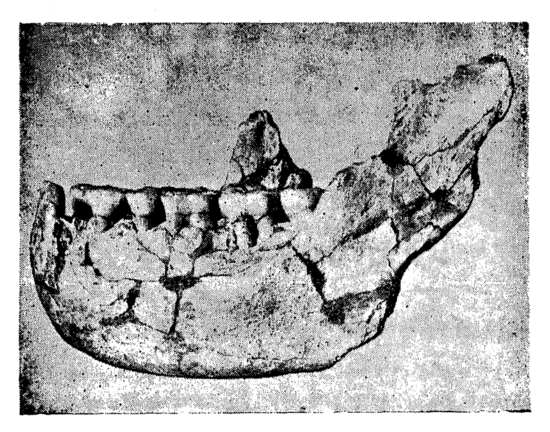


شكل رقم (٢)
منظر لكهف ليتورين

فك سفلى انسانى سنة ١٩٥٥ من قطعتين وفى حالة جيدة وهو ينتمى إلى نفس مجموعة انسان باليكاو أى مجموعة اتلانثروبوس ، ولو أن حجم الاسنان يقل عما يناظره فى باليكاو حيث عثر على ثلاثة عظام فك سفلى، أنظر شكل رقم(٣)، وعظمة جدار أيمن للجمجمة ، ويلاحظ العثور معها على فئوس يدوية . وترتبط مجموعة باليكاو وهى من مجموعة اتلانثروبوس موريطانيكوس Atlanthropus Mauritanicus بمجموعة سينانثروبوس بيثكانثروبوس Sinanthropus Pithecanthropus فى الشرق الأقصى .

وكذلك قد عثر فى نواحى الرباط على بقايا انسان يعرف باسم انسان الرباط[١] ، انظر شكل رقم (٤) و (٥) ، وذلك فى شهر فبراير ١٩٣٣ حيث وجد الفك الأسفل لهذا الانسان ضمن الحصى والحجر الخاص برصف طريق فى ذلك الوقت . وتوجه العلماء إلى المحجر الذى قطع منه هذا الحجر وقاموا بدراسة طبقاته وآثاره . وبلغ مجموع القطع العظمية المنتمية لهذا الانسان ٢٣ قطعة ولكنها مفككة ويصعب ترميمها وهى تنتمى لجمجمة هذا الإنسان. وأهمها الفك الأسفل وجزء من سقف الحلق خاص بالجانب الأيسر . ويمتد الفك الأسفل من مستوى الضرس الأول الأيسر حتى الوجه الخلفى للضرس الثالث الأيمن ويتضمن قواطع ونابين وأربعة أسنان واقفة بين الناب والضرس الأول الايسر والضرس الثالث الايمن ، وكذلك جذور الضرسين

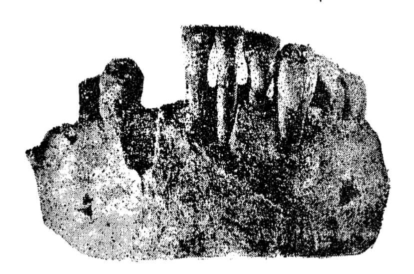
(١) Marcains, H., Découverte de restes humains fossiles dans les grès quaternaires de Rabat, l' Anthropologie, t. XLIV, 1934, p. 597, 583.



شكل رقم (٣)
منظرين للفك السفلى فى باليگاو
والمنتمى لمجموعة اتلانثروبوس موريطانيكوس



شكل رقم (٤)
عظم الفك العلوى الأيسر لانسان الرباط



شكل رقم (٥)
منظر أمامى لعظم الفك الأسفل لانسان الرباط

الاول والثانى الايمنين(١) . وقد قام العلماء(٢) بدراسة بقايا الفكين والاسنان

(١) Vallois, H. V., " L' homme de Rabat " , Bulletion d' Archéologie Marocaine, T. III, 1958. 1959. p. 87.

(٢) Balout L. Prehistoire de l' Afrique du Nord, Paris. 1955, p. 121, 208.

دراسة مقارنة. وقد لوحظ وجود نتوء تحت القاطع الجانبى والناب والسنتين الواقعتين بين الناب والضرس والضرسين الاولين السفليين والعلويين ، وهذه الظاهرة لوحظ وجودها فى انسان بكين واتلانثروبوس[١] . ويغلب أن انسان الرباط ينتمى إلى مجموعة اتلانثروبوس أى نفس المجموعة المنتمى اليها انسان باليكاو وسيدى عبد الرحمن .

ومن الأهمية بمكان الاشارة إلى أرجحية التشابه فى التكوين الجيولوجى بين طبقات محجرى سيدى عبد الرحمن والرباط[٢] ، مما يؤكد لحد كبير تشابه البيئة المحيطة بحياة هذا الانسان الاول فى كلا الموقعين .

وفيما يتعلق بانسان العصر الحجرى القديم الاوسط فى المغرب فقد عثر على فك انسانى ينتمى إلى هذه المرحلة فى كهف Haua Fteah غرب درنه . وقد استخدم الكربون المشع ١٤ فى اختبار عمر الفحم الخشبى الذى وجد فى مواقد هذا الموقع والمنتمية لهذه المرحلة وقد أعطى سنة ٤٣٠٠٠ ق . م كتأريخ له[٣] .

وقد ثبت من الدراسات المقارنة تشابه هذا الانسان مع انسان نياندرتال فى فلسطين . كما أن هذا التشابه أيضا يمكن ملاحظته فى الصناعة الحجرية المنتمية لهذه المرحلة مما يؤكد وجود نوع من الصلات الحضارية والبشرية

---

(١) Val'ois. H. V.. Ibid.. 89.

(٢) Mc Burry , C. B., The stone age of Northern Africa, London, 1960, p. 118.

(٣) Mc Burry. C. B.. Abid.. 168.

بين جنوب غربى آسيا وشمال شرقى ليبيا . وهناك اتجـاه إلى إعتبار هـذا الإنسان قد دخل هذه المنطقة من الجنوب إثر هجرة جنوبية ـ شمالية ظهرت أيضا آثارها فى وادى النيل ثم تطور بعد استقراره فى هذه المنطقة . وكذلك قد عثر على عدد من البقايا العظمية الإنسانية فى الكهوف والمغارات الساحلية المواجهة للمحيط الاطلسى. هذا ويلاحظ أن ظاهرة الكهوف تمتد على طول الساحل المغربى الاطلسى مثـــل كهوف مغارة العالية واشقر بجوار طنجه ، ودار السلطان جنوب الرباط ، والخزيرة جنوب الجديده ، وغيرها بسبب عوامل النحات والتعرية الناجمة عن مياه المحيط مع الصخور المتاخمة للساحل . وقد اتخذ الإنسان القديم هذه الكهوف والمغارات كمناطق يأوى اليها خلال عصور ما قبل التاريخ . وقد عثر فى أرضياتها على عدد من الطبقات الأثرية الدالة على مراحل سكناه فيها .

ومن الكهوف المنتمية إلى مرحلة العصر الحجرى القديم الأوسط مغارة العالية حيث عثر فيها على بقايا فك إنسانى علوى غير كامل النمو وناب مكتمل النمو . ويغلب أن هذه البقايا تنتمى إلى مجموعة اتلانتروبوس Atlanthropus مما يبعدها لحد ما عن انسان برقة النيدندرتالى وكذلك فلسطين حيث كانت الحضارة اللفلوازية ـ الموستيرية . وعلى ذلك يمكن اعتبار إنسان مغارة العالية إنه إنسان قديم له تطوره المحلى البحت [١] .

أما إنسان كهف دار السلطان الذى يقع جنوب الرباط فقد اعتبر العلماء أن بقاياه العظمية تنتمى إلى الإنسان الحديث أى العـاقل Homo sapiens وانه يرتبط بمجموعة إنسان مشطة العربى فى الجزائر أنظر شكل رقم(٦).

---

(١) ومن الجائز تعديل هذا الاتجاه في التفسير اذا عثر مستقبلا على أدلة أثرية جديدة .



شكل رقم (٦)
جمجمة إنسان مشطة العربي

هذا وقد اختلف العلماء فى محاولة إيجـــاد صلة بين هذا الانسان والتطورات البشرية الأخرى ولكن ثبت أنه لا يتصل بانسان نيندرتال بل يرتبط مع إنسان الحضارة الوهرانية .

ومن آخر الاكتشافات فى المجال البشرى فى هـذه المرحلة العثور على إنسان جبل ارحود ، أنظر شكل رقم (٧) ، الذى عثر عليـه أخيرا جنوب شرقى مدينة أسفى بالمغرب الأقصى. ويغلب انتماؤه إلى انسان نيندرتال [١].

---

(١) Enouchi, E , "Un néandertalien, l, homme du Jabel Irhoud (Maroc)", L, Anthropologie, T. 66, Nos. 3-4, 1962.

Les Néanderthaliens du Jebel Irhoud (Maroc)Comptes rendus des séances de l'Académie des Sciences du 11 mars 1963.





شكل رقم (٧) ا ، ب .
منظرين لجمجمة إنسان جبل ارحود المكتشفة حديثا

أما فيما يتعلق بالبقايا العظمية الانسانية المنتمية إلى مرحلة العصر الحجرى القديم الأعلى فقد عثر عليها فى عدة مواقع أثرية مثل عين metherchem فى تونس وفى مشطة العربى وافلوبو Rhummel وكهف على باشا بالجزائر وغيرها . فقد عثر فى موقع افلوبو Rhummel على مالا يقل عن أربعين جمجمة بشرية جيدة الحفظ تنتمى إلى مجموعة الإنسان العاقل . هذا بالاضافة الى أجزاء أخرى من الهياكل العظمية الانسانية فى طبقات أثرية جيدة . ويتميز العصر الحجرى القديم الأعلى بظهور حضارتين رئيسيتين هما الحضارة الوهرانية أو الايبرو مورية والحضارة القفصية . ويتجه العلماء إلى اعتبار إنسان مشطة العربى الذى يمثل الحضارة الوهرانية من أصل غربى بينما إنسان الحضارة القفصية الذى عثر على بقاياه العظمية فى كثير من مواقع هذه الحضارة من أصل يرجع إلى منطقة شرقى البحر الأبيض المتوسط . ومما يسترعى إنتباه الباحث ليس فقط وجود وجه شبه بين إنسان مشطة العربى وإنسان كرومانيون بل أيضا بينه وبين إنسان جزر كناريا [١] التى كانت بمثابة ملجأ بشرى تصل إليه العناصر البشرية من المغرب . وقد كان لهذه الحقائق المتصلة بالكيان البشرى أثرها الكبير فى التطور الحضارى فى المنطقة ومدى وجود صلات حضارية بين أجزائها .

أما فى مرحلة العصر الحجرى الحديث عصر الاستقرار والرعى والزراعة فقد سكنت المغرب القبائل البربرية . هذا وقد اختلف العلماء اختلافا كبيراً فيما يتعلق بأصل البربر وإلى أية عائلة بشرية تنتمى هذه العناصر وكتب فى هذا الصدد الكثير من المؤرخين وبصفه خاصة إبن خلدون . وقد أطلق

---

(١) Mc Burney, C. B. M., Op. cit., 221

البربر عـلى أنفسهم اسم الامازيغ أى الأحـرار . ويغلب أنهم ينتمون إلى مجموعة الشعوب الحامية التى جاءت عن طريق شبه جزيرة سيناء أو عن طريق القرن الأفريقى من موطنها الأصلى الذى يعتقد أنه كان اليمن أو عمان. أما كلمة بربر ذاتها فهناك اختلاف أيضا بين العلماء فى التعرف على أصلها ولكن يغلب أنها مشتقة من اللاتينية Barbarus ، وهو التعبير الذى استخدمه الرومان بالنسبة لمن يقل عنهم حضارة . وهم ينتمون إلى عنصر البحر الابيض المتوسط بوجه عام ولكن تتفاوت مدى دقة صفات هذا العنصر فيهم حسب أماكن استقرار قبائلهم. فقد استقرت بعض هذه القبائل فى الشمال والأخرى فى الجنوب مما جعلها تتأثر بالموجات البشرية القادمة عن طريق البحر الابيض المتوسط أو عن طريق الصحراء .

وقد تمكن الانسان المغربى القديم منذ العصر الحجرى القديم الاسفل من صنع حضارة ترك آثارها فى المواقع الاثرية المختلفة ، ويمكن تتبع المقومات الرئيسية لتلك الحضارة فى الفصل التالى .

الفصل الثاني

مرحلة العصر الحجرى القديم الاسفل

تعتبر هذه المرحلة من أطول وأهم مراحل تاريخ الإنسان، فهى المرحلة الأولى التى بدأت بحمله صفاته الإنسانية وإنشاء باكورة أعماله الانتاجية. ولم تكن مهمته فى تلك الفترة الزمنية الطويلة بالمهمة السهلة بل لقد قاسى فيها الكثير من المصاعب الجوية والأرضية والحيوية. ولكنه رغم ذلك قد تمكن من الصمود والنجاح وإثبات كيانه وتفوقه العقلى على المخلوقات الأخرى فى هذا الكون. ولا تختلف وضعية الإنسان المغربى القديم فى هـذا المجال عن زملائه الآخرين فى كافة أنحاء الكرة الأرضية فى ذلك الوقت المبكر. فقد كان العالم يمر بمرحلة التقلبات الجوية أثناء عصر البليستوسين بمراحله الجليدية والمطيرة. ولا تزال معرفة الباحثين بتاريخ الانسان فى هذه المرحلة محدودة ومليئة بالفجوات التى يحـاول العلماء تفهمها بمداومة الكشف والتنقيب والبحث عن معالم حياة هذا الانسان الأول. ولذلك يلاحظ اختلاف آراء العلماء من حيث مستوى هذا الانتاج الحضارى فى بقاع العالم المختلفة اعتماداً على الآثار التى سمحت الظروف باكتشافها فى بعض هـذه البقاع ويغلب اختفاؤها فى بقاع أخرى. فالصورة الحقيقية لحياة الانسان فى هذه المرحلة الأولى لم تكتمل بعد. وقد اتخـذ العلماء الاصطلاحات الأوروبية فى هذا الصدد مقياسا تقاس على أساسه حضارات المناطق الأخرى، وذلك بسبب أسبقية العلماء الاوروبين إلى البحث فى هـذا الموضوع. ولـكن احتمالات وإمكانيات البحث فى المناطق الأخرى فى المستقبل قد تغير الكثير من الآراء

وقد بذل الانسان المغربى القديم جهدا فى هذا المجال اثبتته الأدلة الأثرية فى المواقع المختلفة ويمكن إرجاع ذلك إلى أقدم مراحل الحضارة الانسانية وهى مرحلة العصر الحجرى القديم الاسفل .

وقد سبقت الاشارة إلى البيئة المغربية المتميزة بهضابها وجبالها وغاباتها وسهولها وصحرائها مما أدى إلىالتجاء الانسان إلىالاودية والسهول والعيون والواحات والبرك والبحيرات والكهوف والمغارات أى المناطق التى يستطيع العيش فيها والالتجاء إليها . وقد اختلفت مراحل سكنى الانسان باختلاف الظروف الجوية المحيطة ، فبينما كانت تسود مراحل العصر المطير كانالانسان يلتجىء إلى الكهوف والمغارات لحماية نفسه من الظروف الجوية القاسية ثم بانتهاء هذه المراحل يتجه إلى الانطلاق فى المناطق السهلية حيث تتجمع الحياة النباتية والحيوانية التى يستطيع الاعتماد عليها فىغذائه وحياته . ويقوم اقتصاد الانسان فى هذه المرحلة على الجمع والالتقاط فليست لدى الانسان مهنة محددة يتوفر على أدائها بل هو يعمل ما تتطلبه الظروف المختلفة فى حياته ويركز جهده الأول فى البحث عن طعامه المعتمد على صيد الحيوانات والطيور والاسماك وأيضا الاعتماد على المحاصيل البرية الموجودة فى محيط مكانه .

وقد تطلبت هـذه الحياة صنع أدوات حجرية وخشبية أو عظمية أو عاجية تعاونه على تنفيذ رغباته وتحقيق أغراضه السلمية والدفاعية . وعلى ذلك بدأ فى صناعة أقدم آلات حجرية لتحقيق هـذه الاغراض السالفة الذكر . ويمكن القول أن الحضارة الانسانية تبدأ بتلك المرحلة التى فكر فيها الانسان وحقق هذا التفكير بصنع وتشكيل آلاته الحجرية الاولى . ولم يكن هـذا التفكير الأول مجرد تفكير عابر بل إن ذلك كان نتيجة عدة تجارب وجهته

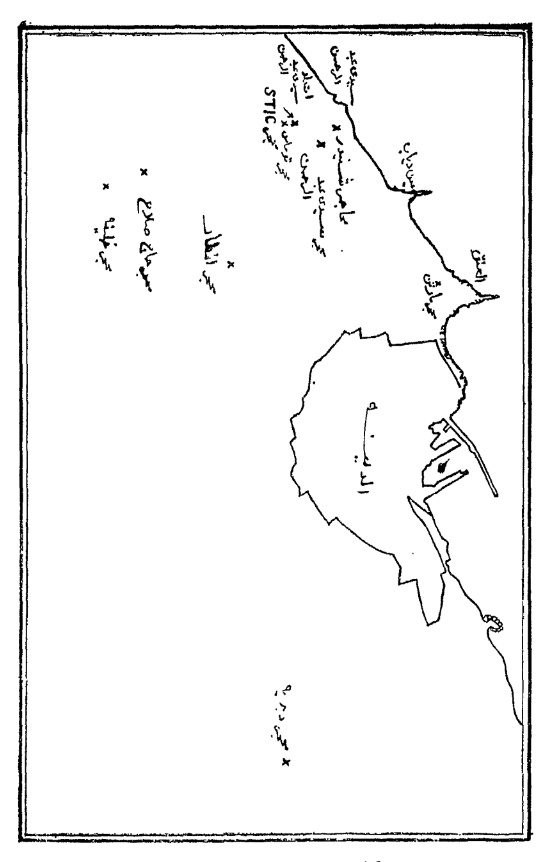
نحو تركيز انتباهه وإحساسه ونظره وبالتالى البحث عن وسيلة فى دائرة إمكانياته المحيطة تحقق له الغاية المطلوبة . وعلى ذلك بدأ باستخدام الحجر الذى يعتبر أقدم مادة استخدمها الانسان وصنع منها أدواته الأولى . وقد نمى هذا الجهــد الانسانى الأول وتنوع نتيجة مطالباته المختلفة وتبع ذلك ظهور قواعد وتقاليد وقدرات فنية صناعية معينة Technique مما أدى إلى تطور وتعدد حضارات هذا الانسان الأول . ولم يقتصر مجهود هذا الانسان على الجانب المادى البحث بل لقــد فكر فى نطاق تجاربه محاولا استكمال حياته المادية بجانب معنوى . وقد عثر فعلا على عــدد من الآثار المادية التى تثبت اتجاه الانسان إلى الايمان ببعض المقومات المعنوية فى حياته الأولى . وقد تمت هذه الأفكار الاعتقادية جنبا إلى جنب مع نتاجه المادى مكونة بذلك التكامل الحضارى الذى يعتبر من أهم خصائص الكائن الانسانى . وقد قام العلماء بالبحث عن أقدم مراحل حضارة الانسان فى المغرب القديم . وقد عثر فعلا فى هذا الصدد على عــدد من المواقع الأثرية التى تمثل هذه المرحلة الحضارية الأولى . ويصعب إيجــاد رابطة مستمرة بين حضارات الانسان فى هذه المواقع المنتمية إلى هذه المرحلة الأولى وهى العصر الحجرى القديم الاسفل وهى المرحلة المعروفة بالفرنسية تحت اسم Paleolithic inférieur وبالانجليزية lower Paleolithic ولكن ذلك لا يعنى عدم وجود أية رابطة حضارية بين آثار هــذه المواقع فهنــاك إمكانية استنتاج وجود خط تطور حضارى يفتقد بعض مراحل التكامل أى تكتنفه فجوات قد تمــلأها نتائج الحفائر المستقبلة فى المواقع الأثرية . هــذا بالاضافة إلى تميز بعض هــذه المواقع بحضارة انتشرت أســاليبها فى بعض المراكز المحيطة . ورغم هــذه الصعاب التى يتلمسها الباحث فى حضارة العصر الحجرى القديم الأسفل فى

المغرب يمكن حصر حضارة هذا الانسان فى تلك المنطقة فى ذلك الوقت فى مرحلتين أساسيتين ، أنظر الجدول التقويمى رقم (١) .

أولا ـ المرحلة الأولى : وتتميز ببداية الصناعة الحجرية فيلاحظ جهد الانسان لأول مرة فى عملية تشذيب الحجر فى اتجاه واحد أوعدة اتجاهات وقد أطلق العلماء الفرنسيون فى اصطلاحاتهم الاخيرة اسم حضارة الحصى المشذب Galet aménagé أو Pebble culture القديمـــة والمتطورة على تلك المرحلة .

ثانيا : المرحلة الآشولية باقسامها القـديمة والوسطى والمتطورة : وهى المرحلة التى سادت فيها حضارة النواة المشذبة من وجهيها biface وهى المرحلة المعروفة أيضا باسم الكلاكتو ـ ابفيليه Calcto - Abbevillien . وقد تضمنت هذه المرحلة الآشولية ثمـانية طبقات من الأولى حتى الثامنة . وقد عثر العلماء على أثار هـذه الحضارات فى عـدد كبير من المواقع الأثرية الداخلية والساحلية والصحراوية . ويمكن تصنيف هذه المواقع إلى أربعة أقسام رئيسية : ـ

(أ) مواقع ترتبط بتطورات الزمن الجيولوجى الرابع من الناحية البحرية مثل بعض المحاجر الساحلية كمحجر سيدى عبد الرحمن ومحجر مارتن Martin ومحجر دبريه Deprez ومحجر .S.T.I.C وجميعها فى نواحى مدينة الدار البيضاء فى المغرب الأقصى . أنظر شكل رقم (٨) خريطة رقم (١) .



شكل رقم (٨) ، خريطة رقم (١)

مواقع بعض المحاجر ذات الطبقات الأثرية فى نواحى مدينة الدار البيضاء

جدول رقم (١)

جدول تقويمي لحضارات العصر الحجرى القديم الأسفل فى المغرب

العصور الجليدية فى أوروبا	العصور المطيرة فى المغرب	الحضارة
دناو	الملوى	Galét amenagé حضارة الحصى المشذب
جنز	السلاوى	
مندل	العامرى	حضارة النواة ذات الوجهين Biface
رس	التنسيفتى	
فرم	ماقبل السلطانى	

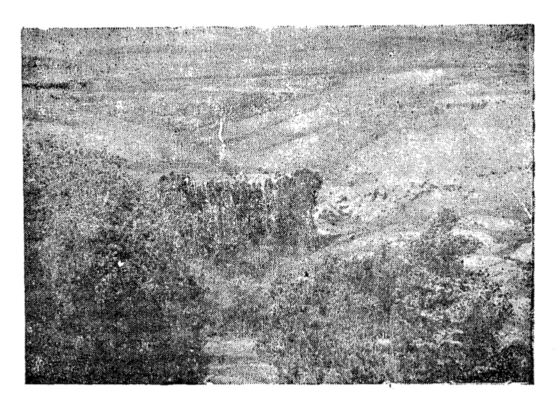
المراحل الحضارية		المواقع الأثرية
المرحلة القديمة	I II	Tardignet - er Rahla ـ عرباوة ـ دوار الدوم محجر دبريه Deprez بالدار البيضاء
المرحلة المتطورة	III IV	عين حنش ـ Champlain ـ منصورة محجر شنيدر بالدار البيضاء سوق الاربعاء ـ سيدى عبد الرحمن ـ شالة
الاشولية القديمة	I II III	سيدى عبد الرحمن ـ قمة عين حنش ؟ ترنيفين سيدى عبد الرحمن . محجر .S.T.I.C بالدار البيضاء ـ وادى ملاح .
الاشولية الوسطى	VI V IV	سيدى عبد الرحمن . كهف الدببة Ours بسيدى عبد الرحمن . كهف littorines بسيدى عبد الرحمن ـ محجر مارتن .
الاشولية المتطورة	VII VIII	سيدى عبد الرحمن ـ وادى الخميس رأس شاتليه ـ عين حلوف ـ سيدى الزين .

(ب) مواقع سهلية لجأ إليهـــا الإنسان بحثا عن الطعام والشراب مثل Ouzidane ويقع على بعد بضعة كيلو مترات شمال شرقى تلمسان على الضفة اليمنى لوادى صفصاف ، وبصورة أدق عند رأس كهوف الريح القريبة من عين الحوت ، وعين انكرمان Inkermann جنوب غربى مدينـة الاصنام فى غربى الجزائر ، Clairfontine, وتقع فى شرقى الجزائر على الضفة اليمنى لوادى ملاق وفى الطريق بين سوق اهراس وتبسه ، وموقع الماء الأبيض El - ma - el - abiod حوالى ٤٥ كـ.م. جنوب تبسه ، Champlain, شرقى المدينة جنوب الجزائر العاصمة ، وموقع تمدا Tamda فى نواحى أعالى وادى سباو وجنوب دلس ، وموقعى قفصة وسيدى الزين .

(ج) مواقع العيون والآبار ، التى تجمع عندها الإنسان وترك آثاره فى طبقات الأرض المطلة على تلك العيون والآبار مثـل موقع عين حنش على بعد ٦ كـ . م شمال غرب سانت أرنود St. Arnond (العلمة) شرقى سطيف، أنظر شكل رقم (٩) .

وموقع ثيت مليل ، وعين فريطسة ، وموقع Chetma على بعد ٨ كـ. م. شرقى بسكرة ، وموقع Abukier شرقى وهران ، وبحيرة كارار Karar بجوار تلمسان ، وترنيفين بجوار باليكاو فى غرب الجزائر .

(د) مواقع صحراوية مثل تيهودين Tihodaine فى قلب الصحراء فى منطقة جبال الهجار . ويبين هذا الموقع حقيقة رسوبات غرينية قديمة نتيجة نزول كميات كبيرة من الأمطار فى قلب الصحراء فى مرحلة العصر الحجرى القديم الأسفل، وقد عثر خلالها على أدوات حجرية وخاصة فئوس يدوية،



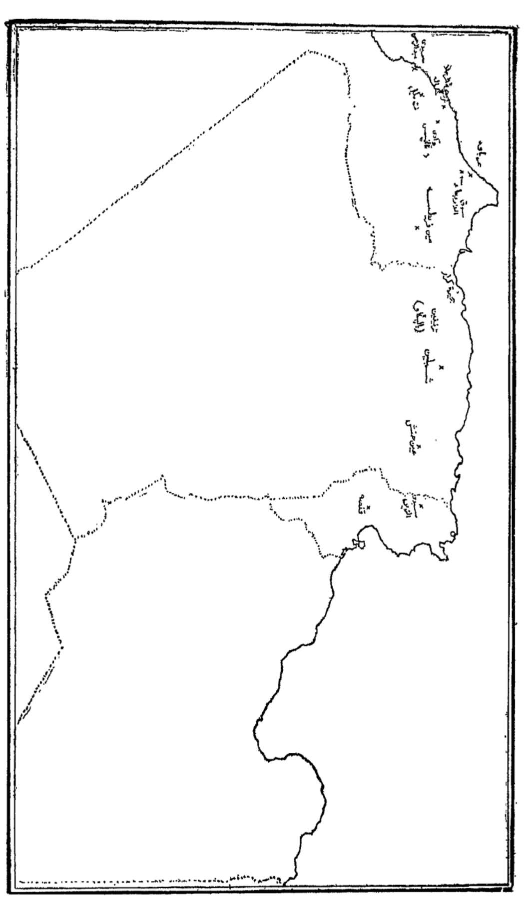
شكل رقم (٩)
موقع عين حنش

بالاضافة إلى بقايا عظام حيوانية ، أنظر شكل (١٠) خريطة رقم (٢) .

وقد كان اعتقاد عـدد من الباحثين فى حضارة العصر الحجرى القـديم الاسفل أن آثار موقع عين حنش تمثـل أقدم [١] جهـد انسانى فى صناعة الأدوات الحجرية فى شمال أفريقيا وذلك على أثر العثور على قطع حجرية من الحجر الجيرى يقترب شكلها من الشكل الكروى وتتميز بكثرة اضلاعها وزواياها . أنظر شكل رقم (١١) .

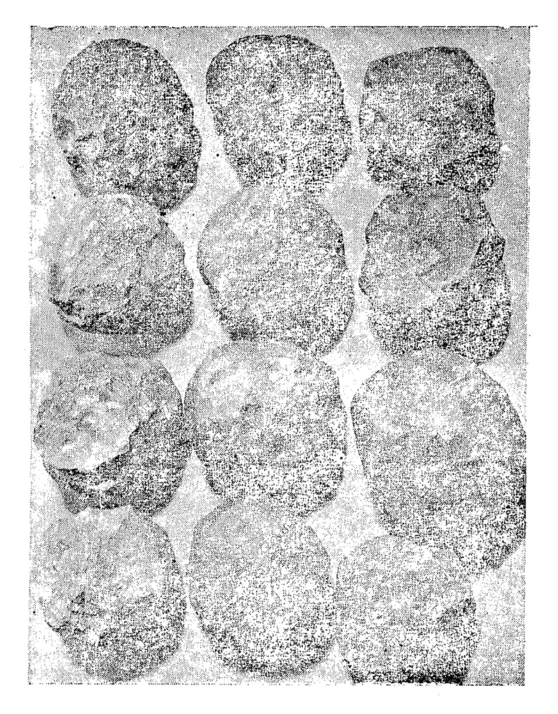
---

(١) Balout, L. Préhistoire de l' afrique du Nord, Paris, 1955, P. 159 ff.

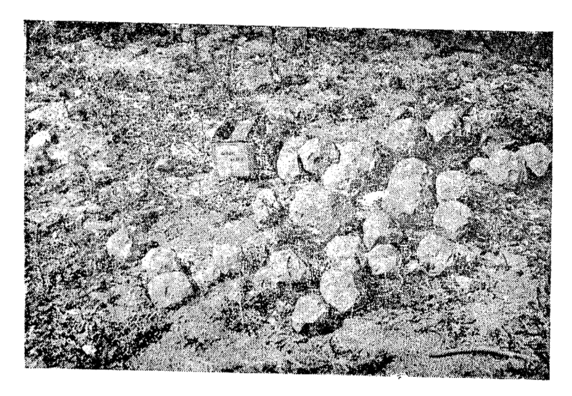


شكل رقم (١٠) ، خريطة رقم (٢)

بعض مواقع حضارة العصر الحجرى القديم الأسفل فى المغرب الكبير



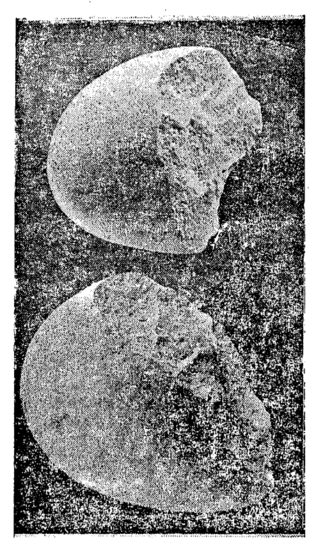
شكل رقم (١١) أ
منظر لبعض القطع الحجرية شبه الكروية
التى عثر عليها فى موقع عين حنش



سكل رقم (١١) ب
منظر لبعض القطع الحجرية شبه الكروية
التى عثر عليها فى موقع عين حنش

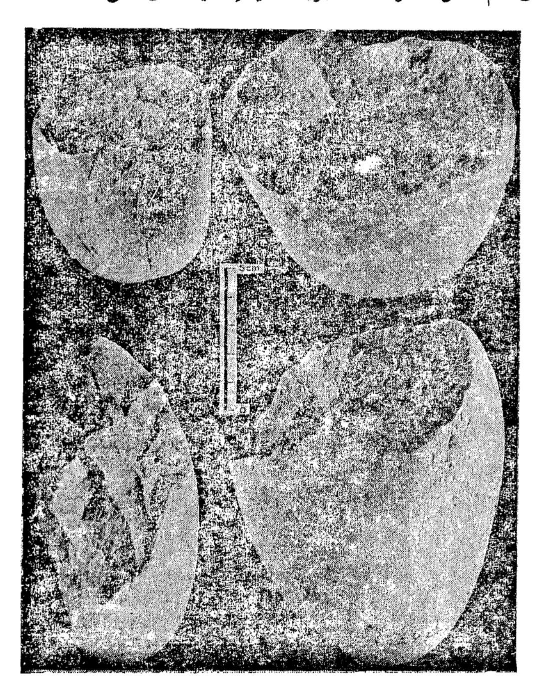
وقد تردد العلماء فى بداية الامر فى شأن حقيقة هذه القطع الحجرية من حيث كونها من صناعة الانسان أم من مخلفات الطبيعة نتيجة عوامل النحات والتعرية المختلفة ، ولكن العثور على فئوس يدوية منتمية إلى نفس الحضارة رغم عدم وجودها فى ذات المكان يساعد على الاعتقاد بأنها من صنع الانسان . ويغلب أن هـذه « الكرات » الحجرية كانت أصلا أكبر حجما ثم قطعت منها شظايا وتبقت هذه القطع الحجرية فى صورتها الحالية . وقد اعتقد العلماء فى قدم هذه « الكرات » الحجرية لأنها لاتمثل تقليدا حضاريا معينا بل هى نوع من الجهد الصناعى الانسانى الاول . ولكن العثور على أدلة أثرية جديدة وخاصة فى منطقة المغرب الاقصى قد أدى إلى تعديل الرأى القائل

بأولوية آثار عين حنش السالفة الذكر من حيث القدم . ويتجه الرأى الجديد بناء على الدراسات المقـارنة إلى اعتبـار آثار مواقع عرباوة ودوار الدوم و er - Rahla Tardiget ومحجر دبريه Deprez أقدم من آثار عين حنش. أنظر أشكال (١٢) ، (١٣) ، (١٤) ، فهى تمثل جهدا صناعيا أكثر أولوية



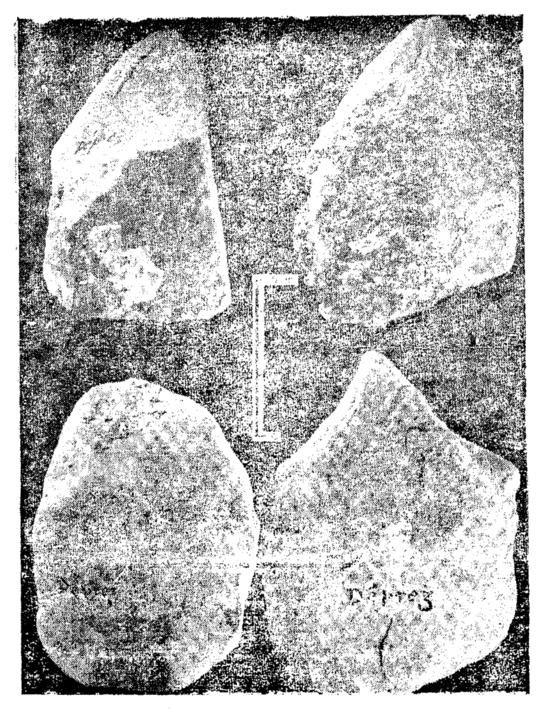
شكل رقم (١٢)
أقدم صناعة حجرية من الكوراتز فى موقع دوار الدوم
وتنتمى إلى المرحلة القديمة I من حضارة الحصى المشذب

في القدم(١) من « الكرات » الحجرية المنتمية إلى عين حنش وعلى هذا الاتجاه



شكل رقم (١٣)
أمثلة من صناعة المرحلة القديمة I من موقع ترديجة الرحلا

(١) Biberson P., la Paléolithic Inférieur du Maroc Atlantique; Rabat. 1961, p. 494.

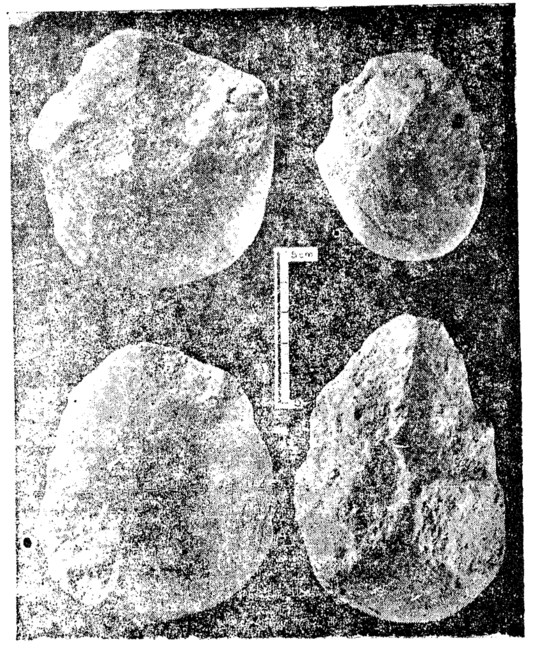


شكل رقم (١٤)
أمثلة من صناعة المرحلة القديمة II من محجر دبرية

الجديد فى التفسير أن آثار هذه المواقع الأثرية الأخيرة تمثل أقدم آثار صنعها الانسان فى المغرب الكبير في أقدم عصوره . ويقع موقع عرباوة

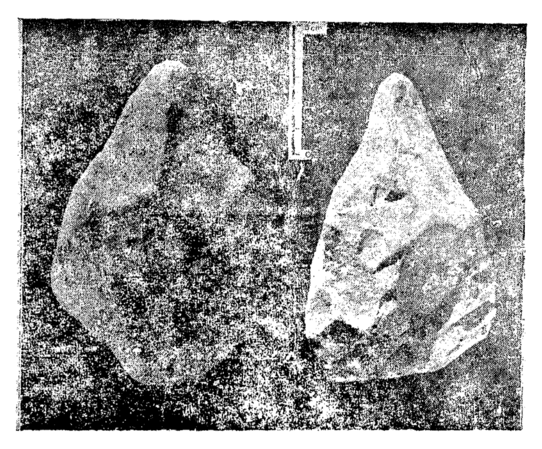
Arbaoua فى شمال سهول المغرب ، أما موقع دوار الدوم فنى نواحى مدينة الرباط ، وموقع ترديجة الرحلا فى نواحى غابة المعمورة ، وجميعها غربى المغرب الاقصى وقريبة نسبيا من المحيط الاطلسى . وتنتمى حضارات هذه المواقع إلى المرحلة القديمة الاولى والثانية المنتمية لحضارة الحصى المشذب .

وقد تمكن الانسان من الانتقال بحياته من مستوى حضارة الحصى المشذب فى المرحلة القديمة السالفة الذكر إلى مرحلة جديدة هي المرحلة المتطورة ويمكن تتبع هذا التطور من الدراسات المقارنة للآلات الحجرية التى خلفتها مواقع آثار هذه الحضارة حيث يلاحظ جهدا انسانيا أكثر وضوحا فى المرحلة المتطورة . أنظر أشكال ١٥ ، ١٦ . ولقد كانت النقلة من حضارة الحصى المشذب إلى حضارة النواة ذات الوجهين Biface بطيئة ولكن يمكن تلمس صناعة هذه الحضارة الجديدة من آثار المواقع الاثرية الكثيرة التى تنتمى إلى هـــذه المرحلة التى تعرف أيضا باسم مرحلة الحضارات الاشولية القديمة والوسطى والمتطورة . وتتميز بصفة خاصة بكثرة الفئوس اليدوية التى كانت تستخدم فى عـــدة وظائف تتصل بقطع ما يحتاج اليه الانسان . هـذا بالاضافة إلى المحكات والمكاشط الجانبية التى بدأ الانسان يشكلها لتغطية بعض جوانب ضرورياته . انظر أشكال من (١٧) - (٢٣). ومن الاهمية بمكان الاشارة إلى العثور على بقايا عظمية حيوانيـة وانسانية مع الادوات الحجرية فى بعض المواقع ، مما يؤكد تجمع بقايا مخلفـات المجتمع بكافة أركانه فى مكان واحد . ولم يقتصر الانسان على الادوات الحجرية بل استخدم أيضا الخشب والعظم فى بعض صناعاته . أنظر شكل رقم (٢٤) .



شكل رقم (١٥)
أمثلة الأربعة سواطير من المرحلة المتطورة III من موقع سوق الأربعاء

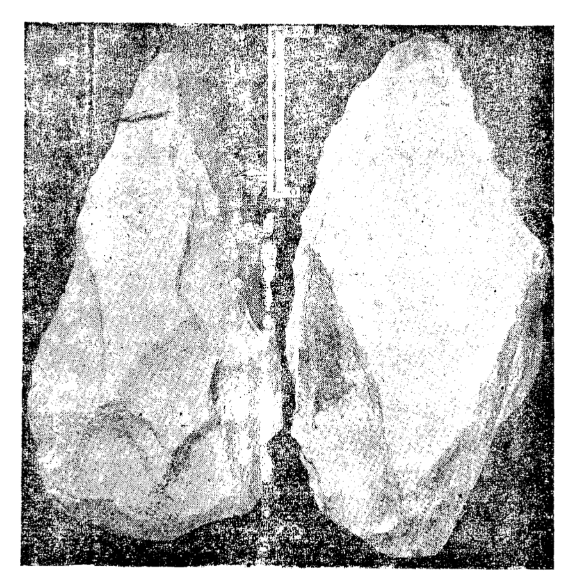
ويصعب القول كما سبقت الاشارة إلى وجود نمط حضارى معين سائد فى كافة هذه المواقع المنتشرة فى أنحاء المغرب رغم تنقل الانسان من مكان إلى آخر فان صلاته الحضارية لاتزال في طورها الاول .



شكل رقم (١٦)
أمثلة من المرحلة المتطورة IV من موقع امتداد سيدى عبد الرحمن

ولكن يمكن النظر بعين الاعتبار لموقع معين بالذات قرب ساحل المحيط الاطلسى وهو محجر سيدى عبد الرحمن لأنه يحمل أهمية خاصة من النواحى الجيولوجية والأثرية والبقايا العظمية الانسانية والحيوانية. ونظرا لأهمية النتاج الاثرى لهذا الموقع فقد اعتبره بعض العلماء مثلا لحضارة أطلق عليها اسم الحضارة الرحمانية[1]. ولكن يتجه بعض العلماء الآخرين إلى تسمية هذه المرحلة الحضارية باسم الحضارة الكلاكتوابفيلية. وطبيعة الارض

(١) Balout, Op. cit., p. 174.



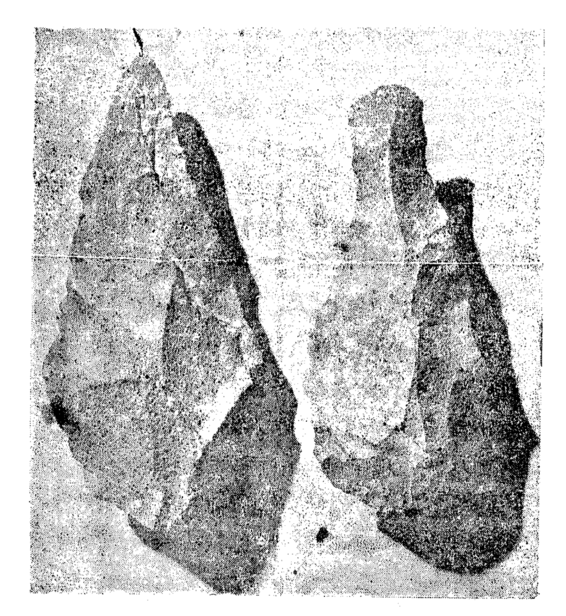
شكل رقم (١٧)
مثالين لانتاج الحضارة الآشولية القديمة I وهى التى أدرجت فى رأى الاستاذين نافيل ورهلمان ضمن الحضارة الكلاكتو - أبفيلية

فى هذا الموقع عبارة عن هضبة تنحدر نحو ساحل المحيط الاطلسى من ارتفاع حوالى ١٠٠ متر مسافة حوالى ٥ ك. م . وقد استخدمت هذه الهضبة كمحاجر بصفة خاصة بالنسبة للحجر الرملى مما أدى إلى كشف الآثار التى خلفها انسان هذه المرحلة فى تلك المنطقة . وقد امتدت حفائر محجر سيدى عبد الرحمن



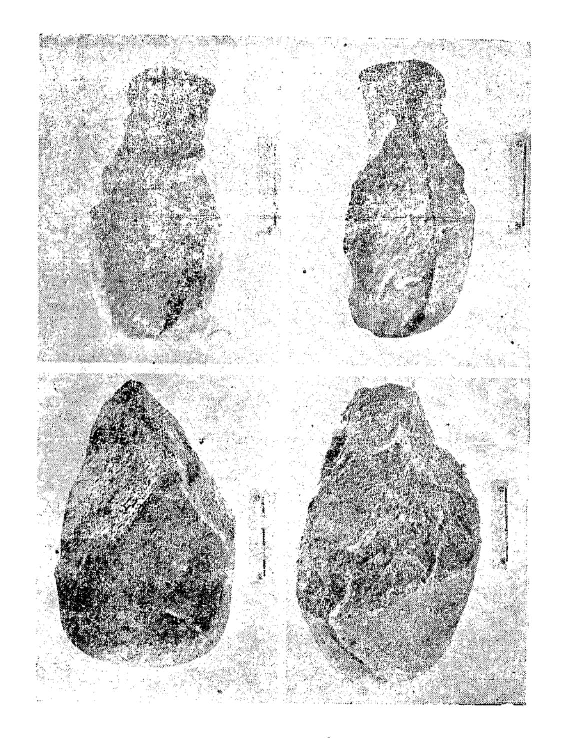
شكل رقم (١٨)
منظر للفئوس اليدوية الكلاكتو ـ أبفيلية فى محجر سيدى عبد الرحمن

مسافة أكثر من ١ ك . م . حيث عثر فى طبقاته على عدد من الفئوس اليدوية والشظايا والبقايا العظمية الحيوانية كعظام فرس النهر ووحيد القرن . ومما

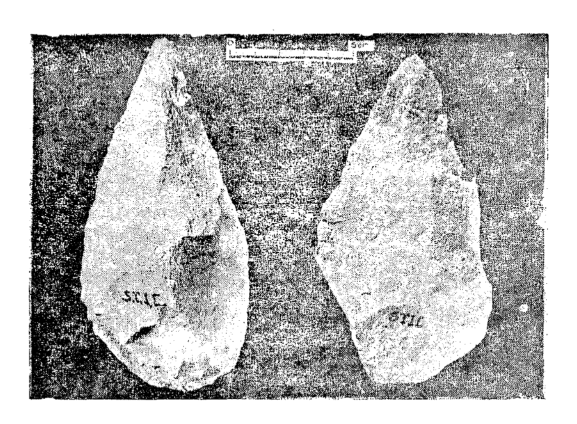


شكل رقم (١٩)
فأسان من شمبلين من مجموعة متحف باردو بالجزائر

يستحق الذكر وجود بعض الكهوف فى نفس الطبقة الحضارية فى شمال محجر سيدى عبد الرحمن حيث لوحظ وجود عدد من طبقات المخلفات الاثرية فى أرضيات بعضها مثـــل كهف الدببة Grotte des Ours . أنظر شكلى رقم (٢٥) ، (٢٦) . و كهف ليتـورين Grotte de Littorines ،



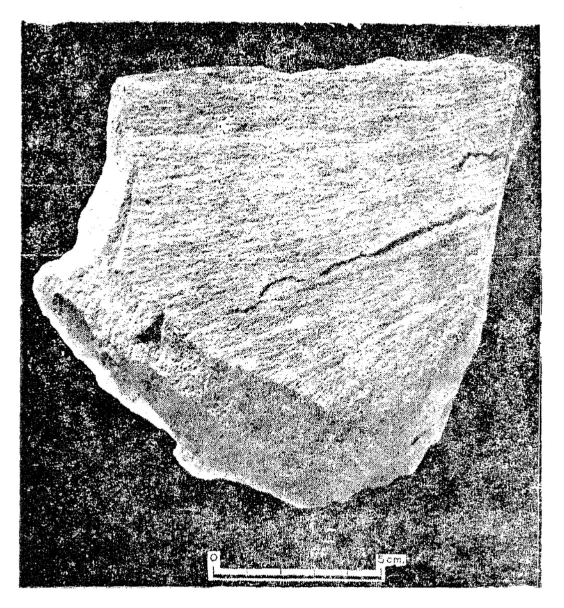
شكل رقم (٢٠)
أمثلة من الفئوس اليدوية المصنوعة من حجر الكوارتز من موقع بحيرة كَرار بالجزائر ، لاحظ في أعلى الصورة النوع المسطح نسبيا وذو القمة العريضة القاطعة



شكل رقم (٢١)
مثالين من مرحلة الحضارة الآشولية القديمه III من مجموعة
محجر S T.I.C. بالدار البيضاء بالمغرب الاقصى

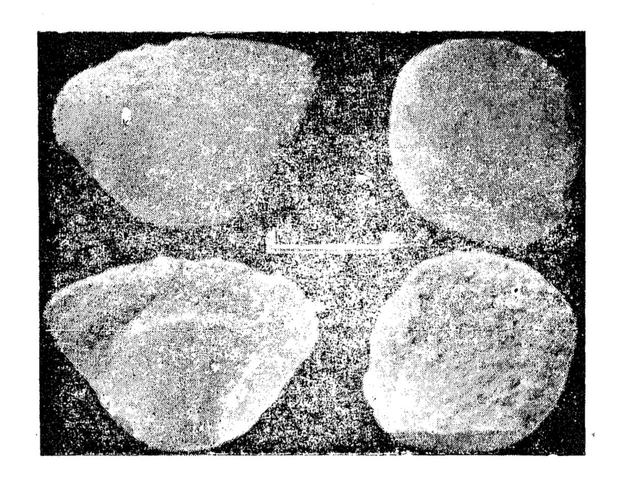
وخاصة بالنسبة للأخير فقد عثر فيه على بقايا انسان سيدى عبد الرحمن .

ولقد كان قوام حياة الانسان الاقتصادية فى هذه المرحلة الجمع والالتقاط ولذلك فاستقراره فى هذه الكهوف وحول العيون والآبار والأودية كان استقرارا مؤقتا ، فسرعان ماينتقل إلى مكان آخر يبحث فيه عن طعام جديد. ولقد نجح هذا الانسان الأول فى بداية تطوير حياته في صنع الآلات الحجرية الأولى كالفئوس اليدوية . ومن الأهمية بمكان مقارنة مستوى هذه الصناعة الحجرية بما يناظرها فى شرق ووسط أفريقيا وكذا فى أوربا وغربى آسيا،



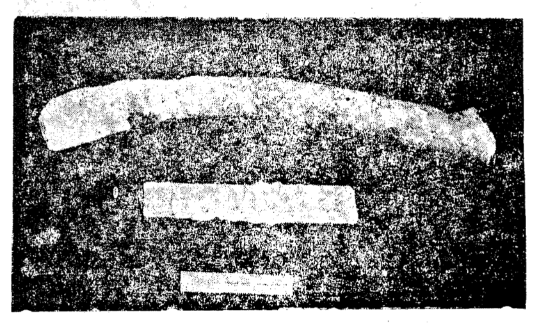
شكل رقم (٢٢)
فأس أو بلطه كبيرة تنتمى للحضارة الآشولية المتطورة VIII من رأس شاتلية

مما يساعد على تفسير هذه الحضارات من حيث أصولها وتطوراتها وصلاتها الحضارية ومستواها الفنى . ولكن يصعب التثبت فى هذه المرحلة الأولى من الجهد الانسانى الاول من الصلات الحضارية إلا على سبيل الافتراض النظرى الذى يحتمل تدعيمه مستقبلا بالأدلة الأثرية . ولكن مما لاشك فيه



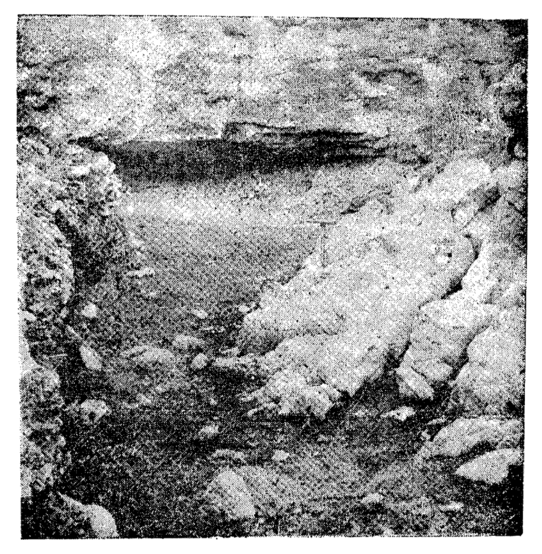
شكل رقم (٢٣)

كشاطتان من حجر الكوارتز تنتميان للحضارة الاشولية المتطورة VIII



شكل رقم (٢٤)

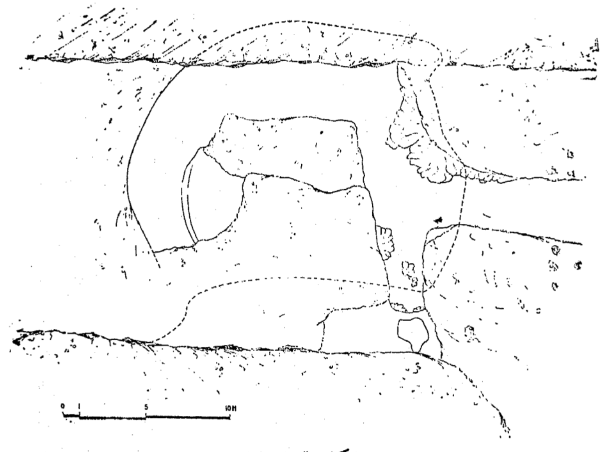
منظر لبقايا آلة مصنوعة من العظم وتنتمى للحضارة الآشولية الوسطى V



شكل رقم(٢٥)

منظر لكهف الدببة Grottee des Ours بموقع محجر سيدى عبد الرحمن

أن إنسان العصر الحجرى القديم الأسفل قد تمكن خلال هذه المرحلة الزمنية الطويلة من اكتساب عدد من التجارب الحيوية فى حياته مما ساعد على دفعه نحو الانتقال إلى المرحلة الحضارية التالية وهى مرحلة العصر الحجرى القديم الأوسط .



شكل رقم (٢٦)
رسم تخطيطي لكهف الدببة بموقع محجر سيدي عبد الرحمن

مرحلة العصر الحجرى القديم الاوسط

يمكن للباحث تتبع الانتقال إلى هذه المرحلة الحضارية الجديدة وهى مرحلة العصر الحجرى القديم الاوسط عندما يتلمس بوضوح معالم قدرة صناعية فنية جديدة تظهر بصفة خاصة فى صناعة الأدوات الحجرية . وقد تجلت هذه المقدرة الفنية الجديدة فى صناعة الشظايا Flakes ويمكن ملاحظة ذلك فى عـــدد من المواقع الاثرية التى تجمع فى آثارها بين حضارة العصر الحجرى القـديم الاسفل والعصر الحجرى القديم الاوسط مما يؤكد بداية مرحلة الانتقال الحضارى بين العصرين . ومن البديهى أن هذه الصناعة الجديدة تحل محل الصناعة الاقدم منها بصورة تدريجيـــة مما يتفق مع سنة التطور . ويصعب على الباحث التعرف على الاسباب المباشرة التى دفعت الانسان لهـذه النقلة . ولكن يغلب أن تجاربه الطويلة أثناء العصر الحجرى القديم الاسفل مع البيئة الطبيعية والحيوانية والنباتية ومع سلاحه الاول وهو الفأس اليدوى قد وجهته إلى ضرورة تطوير هذه الادوات الحجرية التى التى يستخدمها فى تحقيق أغراضه المختلفة . أما عن الزمن الذى توصل فيه الانسان إلى هذه المرحلة الجديدة فيختلف من مكان إلى آخر تبعا لمدى تأثره المباشر أو غير المباشر بهذه التجارب الطويلة فى حياته ، وكذلك تبعا لطبيعة المنطقة التى يقطن فيها .

ويتجه الاستاذ ماك برني Mc Burney إلى الاعتقاد بأنه يمكن التعرف أعلى التقاليد الحضارية الاقليمية[1] في هذه المرحلة بدرجة محدودة . فقد اتجه انسان هذه المرحلة إلى تركيز جهوده الحضارية المادية والفكرية فى بعض أماكن معينة اتخذت كمراكز انتشرت منها التقاليد الحضاريه فى الاماكن المجاورة والبعيدة . وعلى سبيل المثال موقع بئر العاتر فى تونس والذى تنسب اليه الحضارة العتيرية Aterian وهناك اتجاه إلى مواقع أخرى مثل برج

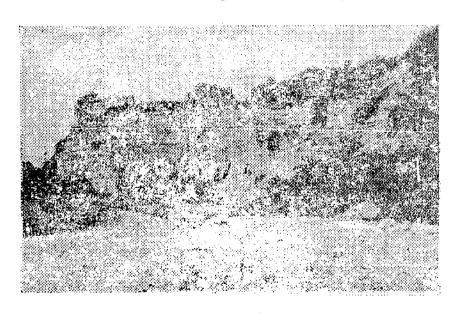
(١) C. B. M. Mc Burney, The Stone age of Northern africa, London, 1960, p. 129

S'Baikaفى نواحى جبل درميره وموقع وادى جبانة Djebbana فى منطقة عمشة جنوب شرق قسنطينة.

والصناعة المميزة لحضارة العصر الحجرى القديم الاوسط فى المغرب هى صناعة الشظايا ويغلب أن هذه الصناعة قد نتجت أثناء عمليات تشذيب الحجر والتخلص من بعض الشظايا مما كان له فاعليته فى تنبيه الصانع إلى امكانية صناعة شظايا دقيقة تكون أكثر صلاحية فى تحقيق احتياجاته المختلفة. ولكن هذا التفسير غير نهائى .

ولا شك أن صناعة الشظايا قد تطلبت تدريبا تجريبيا طويلا يظهر فى عمليات ضرب الحجر فى زوايا معينة مما ينتج عنه هذه الشظايا المتميزة بحدتها والمميزة لهذه المرحلة الحضارية وقد عثر على عدد من المواقع الاثرية تتضمن آثار هذه المرحلة . وذلك من ليبيا حتى المحيط الاطلسى .

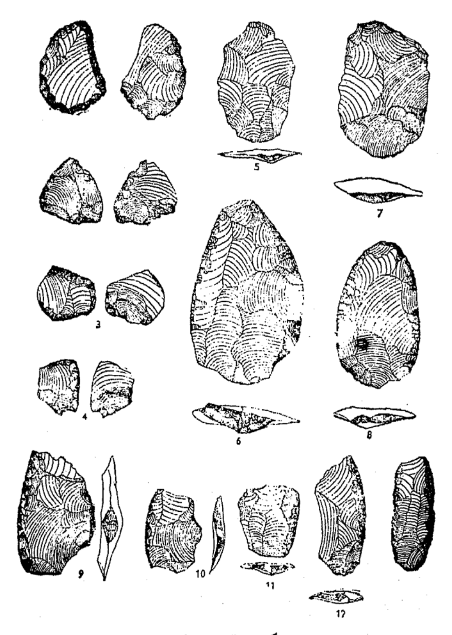
وبالنسبة للمواقع الليبية هناك موقع وادى درنة ، أنظر شكل رقم(٢٧) .



شكل رقم(٢٧)

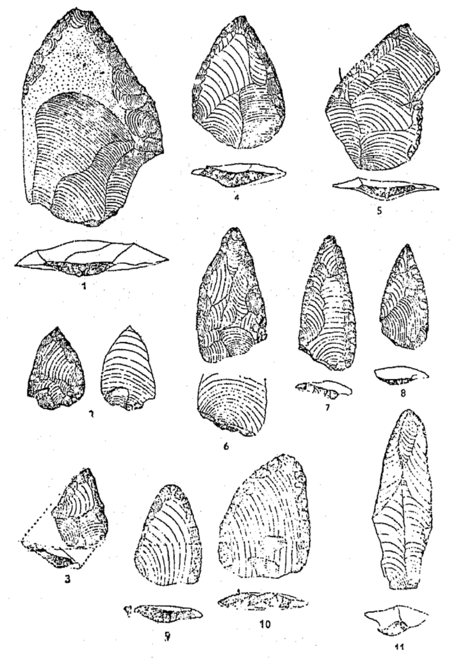
منظر من وادى درنة يبين مقطع حديث فى الهضبة

وقد عثر فى هـذا الموقع على بقايا عظام حيـوانية كثيرة وبصفة خاصة الاغنام ، بالاضافة إلى الادوات الحجرية الصوانية والتى تتميز بصناعة الشظايا. أنظر شكلي رقم (٢٨ ، ٢٩) .



شكل رقم (٢٨)
الصناعة الحجرية الممثلة للعصر الحجرى القديم الأوسط فى موقع حاج كريم

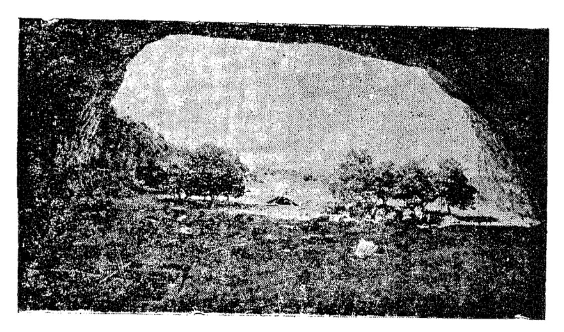
ويلاحظ تشابه هذه الصناعة مع صناعة الحضارة اللفلوازية ــ الموستيرية الفلسطينية . ولا يقتصر وجه الشبه على الانتاج الصناعى بل أيضا انتماء كلتا الحضارتين لفترة زمنية واحدة . وقد طبقت طريقة الكربون المشع على بعض البقايا المتفحمة التي عثر عليها في المواقد في طبقات كهف هوافتيح Haua Fteah



شكل رقم (٢٩)
بعض الشظايا ورؤس السهام من موقع حاج كريم

انظر شكل رقم (٣٠) فى محيط منطقة وادى درنة وأدى هذا التطبيق إلى تقدير عمر هذه البقايا بحوالى ٣٠٠٤٠ق.م[1]. ويلاحظ أيضا وجود وجه شبه

(١) mc Burney, Ibid., 168.



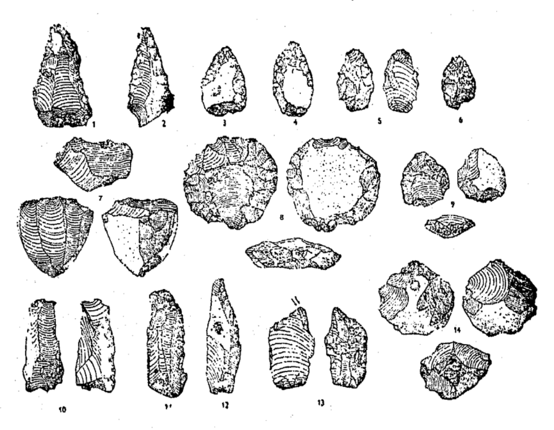
شكل رقم (٣٠)
منظر عام لكهف هوافتيح

بين البقايا العظمية الانسانية المنتمية لهذه المرحلة وبين الانسان النيدرتالى الفلسطينى . وكل ذلك يؤكد وجود صلات حضارية وبشرية بين جنوب غربى آسيا وبصفة خاصة منطقة فلسطين وبين المغرب وبصفة خاصة منطقة شمال شرقى ليبيا أى برقة فى ذلك الوقت . وهذه الحقيقة من الأهمية بمكان فى التدليل على وجود جانب شرقى بالاضافة إلى العناصر المحلية فى حضارة العصر الحجرى القديم الاوسط فى المغرب .

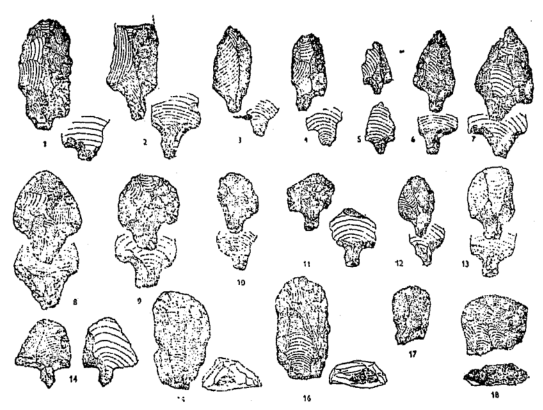
هذا بجانب وجود آثار الصناعة العتيرية فى بعض المواقع الليبية مثل هوافتيح . وهذه الحقيقة تؤكد من ناحية أخرى وجود جانب مغربى فى حضارة منطقة برقة أى اتصال حضارى مع المغرب الصميم . ولكن يلاحظ أن التأثيرات الحضارية المغربية تتجلى بصورة أوضح فى منطقة طرابلس أكثر منها فى منطقة برقة ـ وذلك على اعتبار أن منطقة هضاب جبل نفوسه

بحذاء الساحل فى طرابلس تعتبر امتدادا شرقيا لهضاب جبال الاطلس . وهذا الامتداد لايقتصر على الجانب الجغرافى الطبيعى بل يتضمن الجانب الحضارى بصفة خاصة ابتداء من مرحلة العصر الحجرى القديم الاوسط . ومن أمثلة الحضارة العتيرية فى ليبيا صناعة الازاميل والمكاشط الجانبية . أنظر أشكال (٣٠) ، (٣٢) .

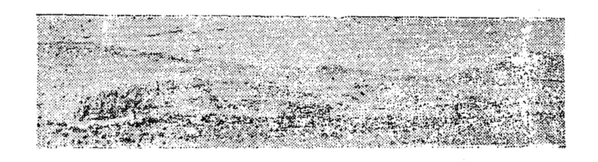
أما عن آثار هذه المرحلة الحضارية فى المغرب الصميم أى فى منطقة جبال الأطلس فقد تمثلت فى الحضارة العتيرية نسبة إلى موقع بئر العتير أنظرشكل(٣٣) ، وشكل رقم(٣٤)، خريطة رقم(٣).



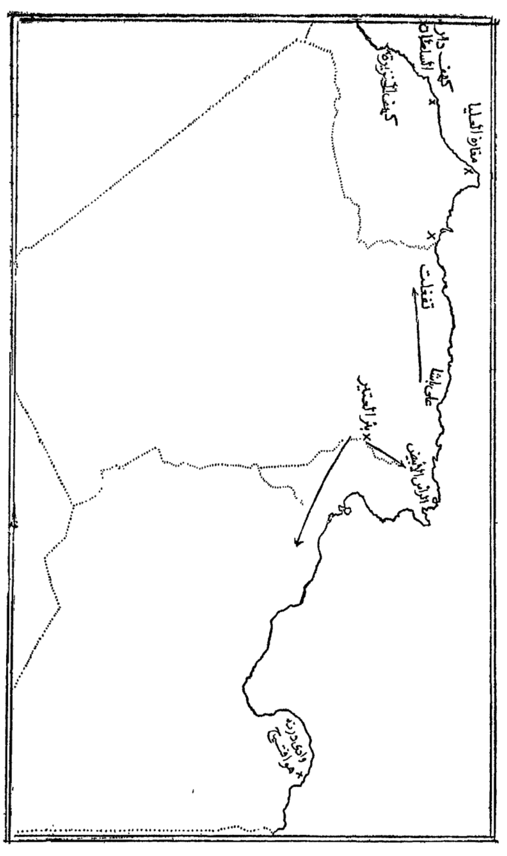
شكل رقم(٣١)
أمثلة من الصناعة العتيرية فى وادى جان متضمنة
الازاميل ورؤوس السهام وغيرها



شكل رقم (٣٢)
أمثلة أخرى من الصناعة العتيرية فى وادى جان
مثل المكاشط ورؤس السهام

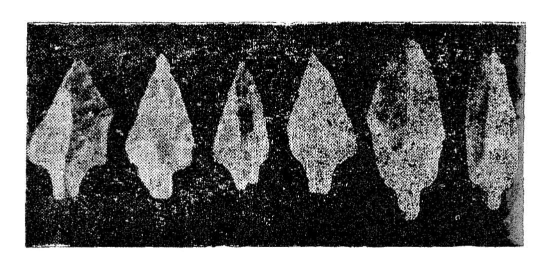


شكل رقم (٣٣)
موقع وادى جبانة (بئر العتير)



شكل رقم (٣٤) خريطة رقم (٣)
بعض مواقع الحضارة العتيرية فى المغرب

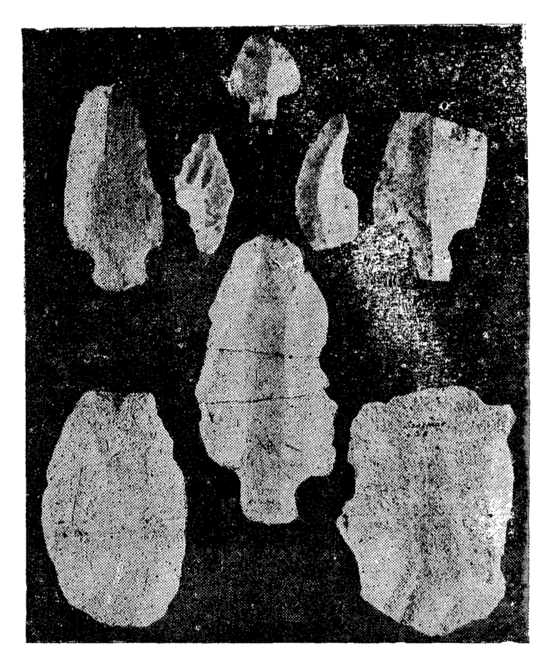
وتعتبر تلك الحضارة فى صناعتها نموذجا لصناعة الشظايا والمكاشط الجانبية ورؤوس السهام ذات الألسنة والازاميل المميزة لمرحلة العصر الحجرى القديم الاوسط وقد عثر على هذه الصناعات فى عدة مواقع مغربية ومن أهمها موقع كهف الخنزيرة ـ الطبقة أ ، وكهف مغارة العليا بجوار طنجة وكهف دار السلطان بجوار الرباط فى الطريق بين الرباط والدار البيضاء . هذا بالاضافة إلى مواقع تلك الحضارة فى تونس وشرقى الجزائر ، أنظر أشكال (٣٥) أ ، ب ، (٣٦) ، (٣٧) .





شكل رقم (٣٥) أ ، ب

أمثلة من الصناعة العنبرية من وادى جبانة



شكل رقم (٣٦)
أمثلة أخرى من الصناعة العاترية الجزائرية

وهناك اتجاه إلى الاعتقاد بأن الحضارة العتيرية نتجت اثر اتصال بين الحضارة الآشولية المتأخرة وحضارة لفلوازية ـ ليبية . وهذا الاتجاه يكمل فى الواقع حقيقة ازدياد الصلات الحضاريه فى تلك المرحلة .



شكل رقم (٣٧)
أمثلة أخرى من الصناعة العتيرية من الا Oubira

وقد عثر الاثريون على مظهر آخر فى غاية الاهمية ينتمى إلى هذه المرحلة الحضارية وهو مظهر معنوى . فقـــد عثر على كوم متناسق من الـكرات الحجرية الكبيرة الجيـــدة التشذيب فى موقع El Guettar جنوب تونس ،

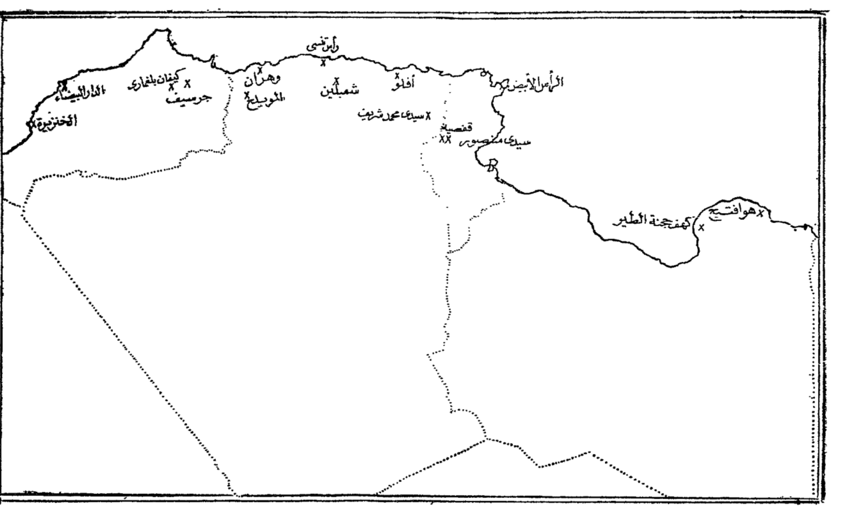
وقد توسط هذا الكوم الحجرى الموقع الأثرى . ومما يسترعى الانتباه أن هذا التقليد الحضارى وهو تنظيم أكوام حجرية تتوسط المواقع موجود لحدما حتى الوقت الحاضر بين المجتمعات البربرية فى المنطقة . ويصعب البت فى حقيقة تفسير هذا الكوم الحجرى من حيث الغرض من وجوده ، ولكن يمكن الاستدلال ببعض الظواهر الأثرية التالية من الناحية الزمنية بمحاولة عمل نوع من الترابط بينها وبين الأكوام السالفة ، فيلاحظ أن المعابد أو الأماكن المقدسة كانت تتوسط المواقع الأثرية بوجه عام حيث يجتمع عندها الإنسان معتقدا بوجود قوة مقدسة تتخذ من هذا المكان منزلا لها فيحاول التقرب إلى هذه القوة المقدسة لاسترضائها وللاطمئنان إلى معاونتها له فى مختلف مجالات حياته . ولا شك أن الانسان فى هذه المرحلة من تطوره الحضارى قد أدرك حقيقة وجود قوى خفية تتحكم فى الحياة الانسانية والحيوانية والنباتية والطبيعية ، وأراد تجسيم هذه القوى فى أماكن معينة لكى يحاول استرضاءها ضمانا لحياته ومصيره . وفى المجتمع السومرى يلاحظ توسط المعبد للمدينة السومرية وكذلك فى المدن اليونانية والرومانية ، ومن الجائز وجود تفسيرات أخرى .

وقد تطورت الحياة الانسانية فى مجتمعات العصر الحجرى القديم الأوسط بشقيها المادى والفكرى مما دفعها نحو الانتقال إلى المرحلة الحضارية التالية وهى مرحلة العصر الحجرى القديم الأعلى .

مرحلة العصر الحجرى القديم الأعلى

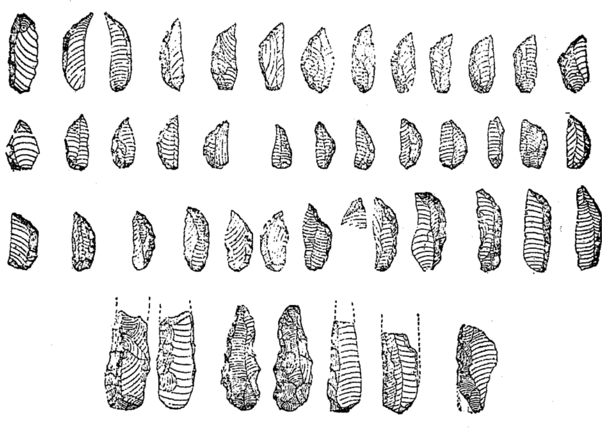
تعتبر هذه المرحلة الأخيرة من مراحل العصر الحجرى القديم أهم مرحلة فى مجال التطور الحضارى فى هذا العصر لأنها تمثل خلاصة التجارب المختلفة التى واجهت الانسان خلال هذه المرحلة الطويلة من حياته ، مما جعلها تمهد إلى مرحلة حاسمة أخرى فى الحياة الانسانية وهى مرحلة « ثورة » إنتاج الطعام والعصر الحجرى الحديث . وقد ظهر هذا التطور فى حياة الانسان فى هذه المرحلة في توصله إلى صنع أسلحة حجرية دقيقة تعرف باسم الادوات الميكروليثية microlithic . فقد شعر الانسان بحاجته الماسة إلى أسلحة دقيقة تؤدى أغراضه المختلفة بسرعة وتكون فى متناول يده بسهولة بدلا من الاسلحة الكبيرة والثقيلة التى كان مضطرا إلى استخدامها وحملها فى تنقلاته المختلفة . وهذا الانتاج الدقيق من الاسلحة يدل على خبرة دقيقة بالصناعة الحجرية . وتعتبر هذه الاسلحة النصلية بمثابة الاداة المميزة لهـــذه المرحلة الحضارية الجديدة . وقد تمثلت هذه الحضارة فى عدد من المواقع الاثرية المنتشرة من منطقة الجبل الأخضر فى ليبيا حتى ساحل المحيط الاطلسى . وقد عثر أيضا على عدد من المواقع الأثرية التى تمثل مرحلة الانتقال الحضارى من العصر الحجرى القديم الاوسط إلى العصر الحجرى القـديم الأعلى لأن هـذه النقلة كانت كغيرها من مراحل الانتقال تدريجية .

وتعتبر مواقع منطقة الجبل الأخضر بليبيا ممثلة لمرحلة الانتقال الحضارى السالف الذكر ويمكن تلمس ذلك فى ثلاثة مواقع أثرية رئيسية . أولها موقع كهف حجفة الطير Hagfet et Terâ وهى على بعد ١٥ ميل من بنى غازى عند تقابل الصحراء مع الوادى الساحلى . أنظر شكل (٣٨) خريطة رقم (٤) .



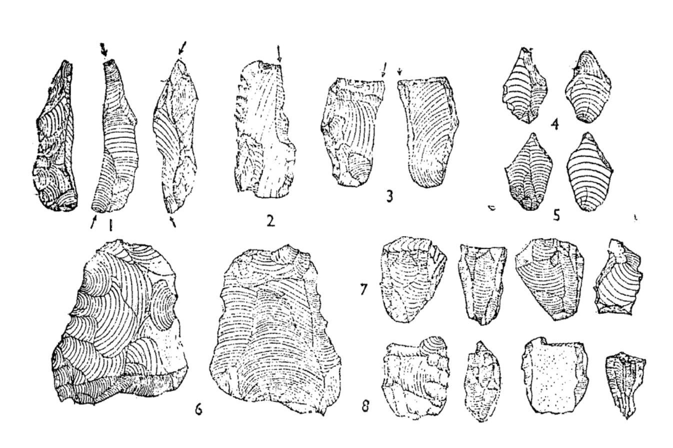
شكل رقم (٣٨) ، خريطة رقم (٤) بعض مواقع العصر الحجرى القديم الأعلى فى المغرب

حيث عثر على آثار مرحلة الانتقال فى أرضية الكهف . هــذا بالاضافة إلى الصناعات النصلية و بصفة خاصة الأسلحة الميكروليثية والأزاميل الدقيقة . أنظر أشكال (٣٩) ، (٤٠) .

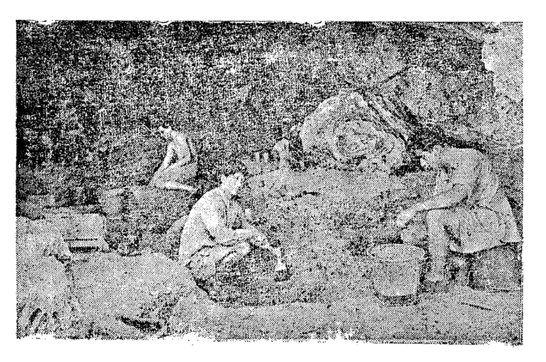


شكل رقم (٣٩)
أدوات ميكروليثية وأنصال من موقع حجفة الطير

وثانى هذه المواقع هو كهف حجفة الضبع Hagfet ed Dabba أنظر شكل رقم (٤١) وقد عثر في هذا الموقع على أسلحة كثيرة مختلفة الأحجام منها الكبيرة والمتوسطة والصغيرة مما يؤكد اعتبارها تمثل مرحلة انتقال حضاري لأنه ليس معنى التوصل إلى صناعة حجرية جديدة الانقطاع

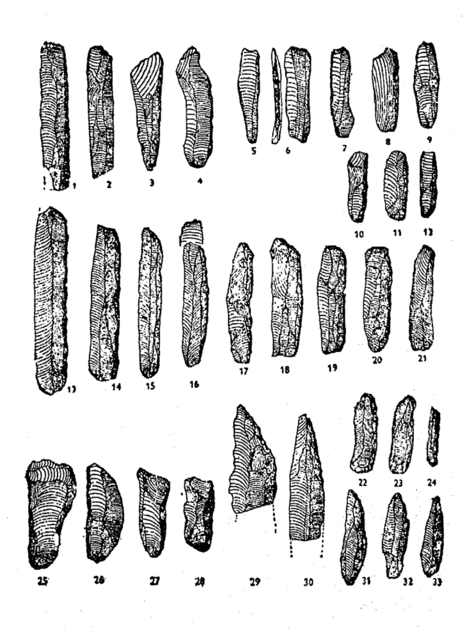


شكل رقم (٤٠) أزاميل دقيقة من موقع حجفة الطير

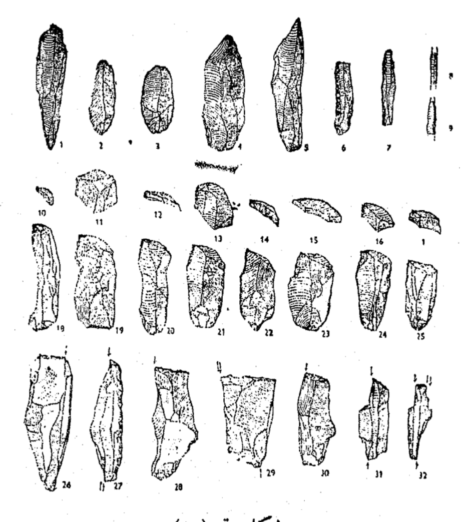


شكل رقم (٤١)منظر عام لكهف حجفة الضبع من الداخل

بصورة فورية عن التقاليد الحضارية السالفة ، بل ان كلا التقليدين الحضاريين يسيران جنبا إلى جنب إلى أن يحل التقليد الجديد محل الحضارة السابقة . أنظر أشكال (٤٢) ، (٤٣) .



شكل رقم (٤٢)
أسلحة حجرية كبيرة ومتوسطة من موقع حجفة الضبع



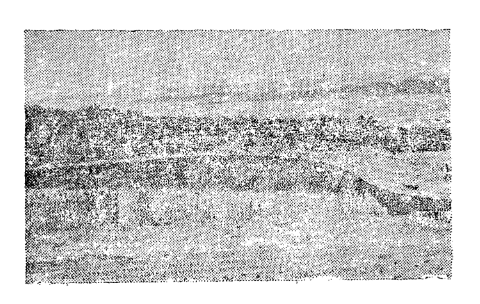
شكل رقم (٤٣)

خليط من الاسلحة الحجرية والازاميل المختلفة من موقع حجفة الضبع

وقد ثبت وجود صلات حضارية بين شرقى البحر الأبيض المتوسط وبصفة خاصة فى فلسطين وموقع جريكو (اريحا) بالذات وبين هذه المواقع الليبية فى تلك المرحلة . وهذه الصلات تعتبر استكمالا للصلات الحضارية التى سبقت الاشارة اليها فى العصر الحجرى القديم الأوسط . وثالث هذه المواقع الحضارية هو كهف هوافتيح ، وتعتبر الطبقات الأثرية فى هذا الموقع بمثابة سجل حى لتاريخ الإنسان فى هذه المرحلة وما تلاها حتى العصر التاريخى فقد عثر على كميات كبيرة من الاسلحة الحجرية المشابهة لصناعة حجفة الطير . ومن الممكن

القول بوجود نوع من الصلات الحضارية بين هذا الموقع وبين جنوب غربى آسيا فى هذه المرحلة مما يؤيد ماسبقت الاشارة اليه بالنسبة للموقع السابق ، ويمكن تاريخ هذه المرحلة بحوالى ٢٨٠٠٠ أو ٢٩٠٠٠ ق . م .

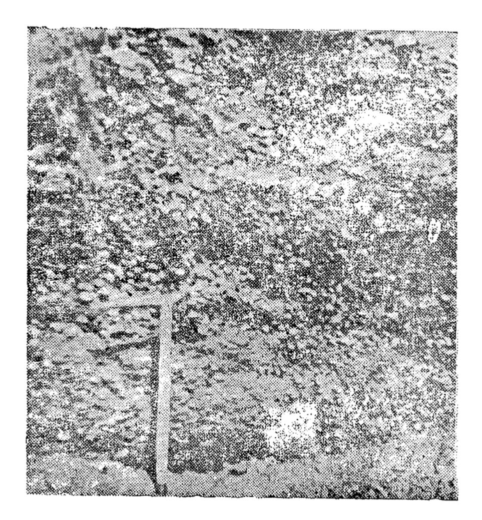
أما فى المغرب فقد سادت هذه المرحلة الحضارة القفصية Capsian وتنقسم إلى مرحلتين : القفصية السفلى والقفصية العليا . وقد تعددت المواقع الاثرية الممثلة لهذه الحضارة وظهرت بصفة خاصة بعض المواقع المميزة لها والتى أطلق عليها العلماء الفرنسيون اسم escargotieres وتسمى بالرماديات أو الحلزونيات وهى التلال التى تجمعت فيها بقايا الطعام وبصفة خاصة القواقع بالاضافة إلى الأدوات الحجرية التى كان يستخدمها الإنسان . أنظر أشكال (٤٤) ، (٤٥) .



شكل رقم (٤٤)

منظر لتل سيدى محمد شريف بجوار تبسة ويتكون من القواقع المتجمعة

وتتميز هذه الحضارة القفصية فى صناعتها بالاسلحة والأدوات الميكروليثية والازاميل وقد انتشرت هذه الحضارة القفصية الصميمة فى تونس وشرقى

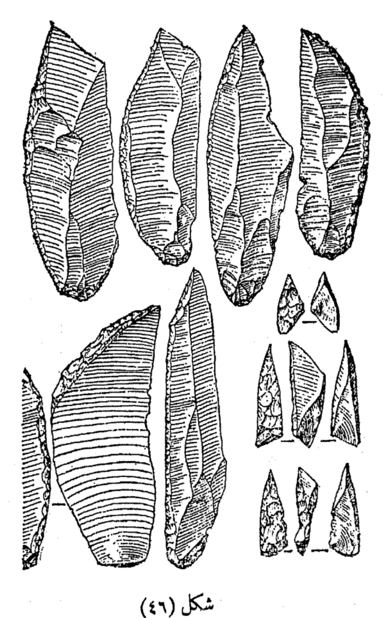


شكل رقم (٤٥)

منظر آخر لطبقات تل خنجة الموحد وتلاحظ بقايا القواقع

الجزائر بصفة خاصة ، كما اتجهت أيضا نحو الشمال والشمال الغربى والجنوب. هذا وتؤرخ هـذه الحضارة القفصية الصميمة بواسطة الكربون المشع ١٤ بحوالى ٦٨٠٠ ق. م. أنظر أشكال (٤٦)، (٤٧)، (٤٨) .

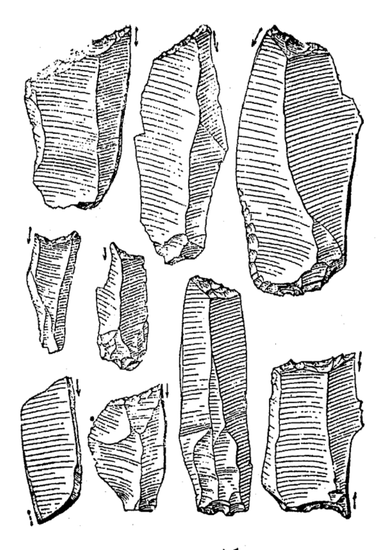
ولم يقتصر هذا العصر الحضارى على الحضارة القفصية بل ظهرت حضارة أخرى ساحلية تعرف بالحضارة الوهرانية Oranian نسبة إلى موقع وهران كما أطلق عليها أيضا الحضارة الايبيرو ـ موريه I bero - Maurusian أى الممتدة من شبه جزيرة ايبيريا حتى المغرب .



شكل (٤٦)

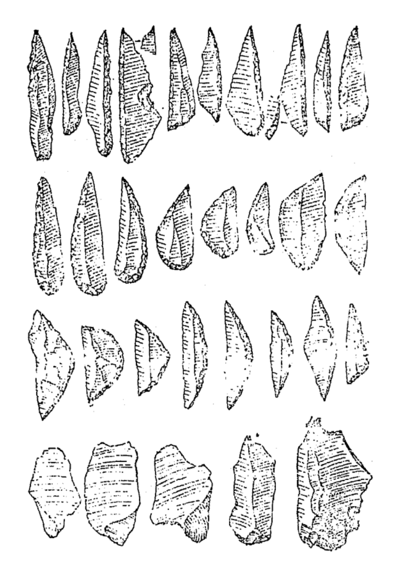
أمثلة للأسلحة القفصية الصميمة فى موقع المكتا

وتتميز هذه الحضارة الوهرانية بصناعتها الحجرية الخاصة حيث يلاحظ أن النواة الحجرية التى استخدمها إنسان هذه الحضارة كانت صغيرة ومسطحة أو مستطيلة أو بيضاوية وتشبه لحد كبير صناعة موقع حجفة الطير السالفة



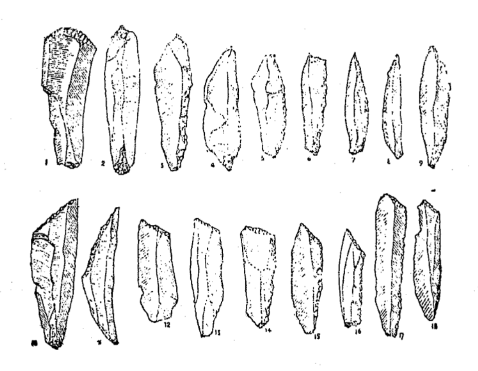
شكل (٤٧)
أمثلة أخرى لأزاميل تنتمى إلى الحضارة القفصية الصميمة من موقع المكتا

الذكر . هذا وقد اختلف العلماء فى تحديد مكان هذه الحضارة الوهرانية فى سلم التطور الحضارى فى هذا العصر. فهناك اتجاه لاعتبارها متأخرة نسبية من الناحية الزمنية أى أنها تعاصر المرحلة الأخيرة من الحضارة القفصية. وهناك اتجاه ثان إلى اعتبار أسبقيتها فى الصناعة النصلية على أساس أن بعض المواقع الأثرية فى نواحى الدار البيضاء تحوى خليطا من الآثار الوهرانية Oranian ، وعلى ذلك يتجه هذا الرأى الأخير إلى اعتبار أولوية هذه الحضارة



شكل (٤٨)
امثلة لادوات ميكروليثية
تنتمى إلى الحضارة القفصية الصميمة من موقع المكتا

الوهرانية فى الصناعة النصلية فى المغرب أنظر شكل رقم (٤٩) . وهناك اتجاه ثالث إلى الاعتقاد بوجود صلات حضارية بين حضارة هوافتيح فى برقة والحضارة الوهرانية وهناك اتجاه رابع إلى الاعتقاد بوجود صلات حضارية بين المواقع الساحلية الاسبانية والمواقع الوهرانية والمغربية. ويختلف العلماء فى هذا



شكل رقم (٤٩)
أمثلة لمكاشط وأنصال تنتمى إلى الحضارة الوهرانية

الاتجاه الأخير فبعضهم يعتبر الجانب الأوربى بمثابة مصدر هذه الحضارة وبعضهم الآخر يعتبر الجانب المغربى هو الذى اتجه فى انتشاره الحضارى نحو شبه جزيرة ايبيريا . وقد تعرض لفيف من العلماء إلى هذه الاتجاهات المختلفة فى تفسير التطورات الحضارية الهامة فى هذه المرحلة الأخيرة فى العصر الحجرى القديم . وقد اقترح الاستاذ ماك برنى بعض الآراء الهامة فى هذا الصدد تتلخص فى أربع نقاط هامة .

«أولها : من ١٥٠٠٠ ق.م بدأت بدأت الحضارة الوهرانية فى المغرب نتيجة تأثيرات جرافيتية أوهجرة من جنوب غربى أوروبا ، كما أن حضارة حجفة

الضبع تعتبر معاصرة لها وربما كانت نتيجة هجرة من شرق البحر الأبيض المتوسط .

وثانيها : من ١٢٠٠٠ — ١٠٠٠٠ ق . م انتشرت حضارة حجفة الضبع فى برقة واتجهت غربا إلى جنوب شرق الجزائر وتونس فى منطقة سادت فيها فيها من قبل الحضارة الوهرانية ، كما امتدت تلك الحضارة الأخيرة إلى الساحل المغربى .

وثالثها : ١٠٠٠٠ — ٩٠٠٠ ق . م انتشرت الحضارة الوهرانية بحذاء الساحل المغربى حتى برقة وحلت محل حضارة حجفة الضبع وربما وصلت إلى مصر السفلى .

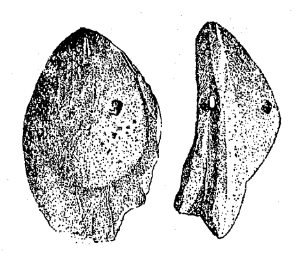
ورابعها : ٩٠٠٠ — ٥٠٠٠ ق . م سادت الحضارة القفصية العليا فى جنوب شرق المغرب كما اتجهت شمالا وأثرت فى الحضارة الواهرانية ، واتجهت شرقا حتى خليج سرته مما أدى إلى ظهور الحضارة السرتية الميكروليثية» (١) .

وتعتبر اقتراحات الاستاذ ماك برنى السالفة الذكر فى محاولة إيجاد تفسير لمدى ارتباط حضارات هذه المرحلة فى غاية الأهمية . ولكن هذه الآراء ليست نهائية لأن الباحثين قد اختلفوا فى أصل الحضارة الوهرانية ومدى صلاتها الحضارية بالشرق الأدنى القديم . ولكن هناك حقيقة ينبغى التنوية بها وهى اتساع المجال الحضارى للانسان فى هذا العصر الحجرى القديم الأعلى فازدادت صلاته الحضارية بكل من الشرق الأدنى القديم وشبه جزيرة ايبيريا مما ساعد على تطوره السريع نحو النقلة الحضارية التالية وهى العصر

---

(١) Mc Burney, C. B. M., Ibid ., 225, 226,

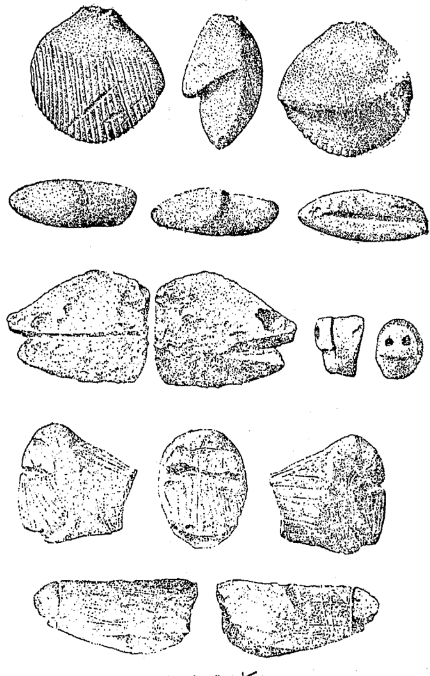
الحجرى الحديث . ولم تقتصر جهود الإنسان فى هذه المرحلة الحضارية على المجالات المادية بل قد ازدادت قدراته الفكرية بصورة ملحوظة. ويعتبر ذلك استكمالا للنواحى الفكرية التى سبقت الاشارة إليها فى العصر الحجرى القديم الأوسط . ومن أهم الأدلة الأثرية التى تثبت هذا الجانب المعنوى النقوش التى رسمها إنسان هـــذه المرحلة معبرا عن أفكاره وكذلك بعض مظاهر النحت فى مراحله الأولى كتعبير مادى لبعض أفــكاره فى ذلك الوقت . أنظر أشكال (٥٠) ، (٥١) .



شكل رقم (٥٠)

نحت فى شكل قناع ويغلب أن الثقوب وظيفتها تمرير خيط فيها واستخدامه كعقد للزينة من ناحية مع إمكانية استعماله كتميمة دينية

فقد عثر فى موقع المكتا El mekta جنوب تونس على أمثلة من هذه النقوش وكذلك الحجر الجيرى المشكل فى أشكال معينة ربما تمثل أقنعة إنسانية أو حيوانية وأحيانا تمثل عضو التذكير ورموز أخرى. وكانت هذه الأشكال تعلق أو تحمل بدليل وجود ثقوب فيها لهذا الغرض . ومن الأهمية بمكان الاشارة إلى أن الإنسان فى هــذه المرحله كان لا يزال يبحث عن الأمان



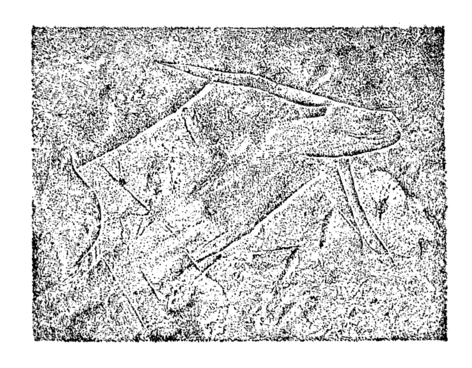
شكل رقم (٥١)
أمثلة أخرى قفصية لأقنعة بعضها له شكل عضو التذكير
بالاضافة لرموز أخرى

فى حياته ومصيره لأنه كما سبقت الإشارة إلى محاولته تخصيص مكان فى
الموقع الأثرى كمركز له اعتباره فى مجال اعتقاداته ، فقد اتجه أيضا اعتقاده

إلى محاولة زيادة التقرب من هـذه القوى الخفية المتحكمة فى حياته وحياة البيئـــة المحيطة به فبـدأ يصور بعض مشاعره فى أشـكال حيوانية أو إنسانية تعبر عن بعض مفاهيمه الأولى كمحاولة منه للوصول إلى الأمان والاطمئنان ورضاء هـذه القوى الخفية عنه ، وأيضا التخلص من النواحى الشريرة وإبعادها عن مجالات حياته ، ولذلك شكل مشاعره فى صورة أقنعة تحميه من هـذه النواحى الشريرة . وهـذا اتجاه فى الاعتقاد قد استمر فى المراحل التالية أثناء العصر التاريخى ، فقد عثر فعلا فى بعض المواقع الأثرية القرطاجية على أقنعة تؤدى هذه الوظيفة الاعتقادية فى تجنب الإنسان النواحى الشريرة التى تهدد حياته . وهذه الأمثلة الأولى من الاعتقاد سرعان ما تتطور وتتجسم بصورة أكثر وضوحا فى المراحل الحضارية التالية وبصفة خاصة فى العصر الحجرى الحديث . ولم يقتصر هـــذا الجانب الفكرى على هذه النواحى بل لقد بدأ انسان هذه المرحلة فى التعبير بالرسم عن أفكاره واستخدام بيض النعام كزجاجات ماء زينها برسوم هندسية . كما بدأ من ناحية أخرى النقش على الصخر فقد حفر بعض الرسومات الحيوانية على الصخر . أنظر شكل رقم (٥٢) .

والواقع أن هذه الرسومات لها وظيفتها التعبيرية ، وتعتبر مرحلة أساسية فى تطور التعبير الإنسانى فى المراحل الحضارية إلى أن يصل إلى مرحلة التعبير بالكتابة فى بداية العصر التاريخى . كل ذلك يبين تقـدم الانسان فى هذه المرحلة الحضارية فى المجالات المادية والفكرية تقدما ملموسا يمهد لنقلته نحو « ثورة » إنتاج الطعام والعصر الحجرى الحديث .

* * *



شكل رقم (٥٢)
حفر فى الصخر يمثل محاولة رسم حيوان

مرحلة العصر الحجرى الحديث

تعتبر هذه المرحلة من أخطر المراحل الانسانية لأنها تمثل نقلة هامة وحاسمة فى حياته وهى النقلة من الجمع والالتقاط والتجول وعدم الاستقرار إلى الانتاج والاستقرار المادى والفكرى لأول مرة فى حياته . ولذلك يتجه العلماء إلى اعتبار المرحلة السابقة مباشرة لهذا العصر بمثابة « ثورة » أو تغيير حاسم فى حياة الانسان . ولا تقل هذه الثورة عن مراحل خطيرة أخرى مثل توصله إلى استخدام القوة البخارية فى القرن الثامن عشر الميلادى وتوصله إلى قوة الطاقة الذرية فى القرن العشرين الميلادى . وقد ثبت من البحث والتحرى الدقيق لتراث الانسانية أولوية منطقة الشرق الأدنى القديم وبصفة خاصة فى مصر والعراق وفلسطين فى التوصل إلى مرحلة إنتـــاج الطعام والزراعة والاستقرار لأول مرة فى تاريخ الانسان وذلك لأسباب كثيرة يعتبر العامل البيئى بظروفه الخاصة من أهمها . وقد عثر فعلا فى هذه المنطقة على المواقع الأثرية الدالة على إنتاج الطعام مثل مرمدة بنى سلامة وقرى الفيوم أ وحلوان العمرى وديرتاسا فى مصر ، ومواقع مولافات وتل جارمو وتل خسونة فى شمال العراق وجريكو (اريحا) فى فلسطين والعمق فى شمال سورية وتل باكون وسيالك I وغيرها فى الهضبة الايرانية ، حيث تمكن الانسان فى كافة هذه الاماكن من التوصل إلى الزراعة وتخزين المحصول الزراعى وإنشاء المنازل الخاصة بسكناه والطرق الموصلة اليهـا وكذلك المنازل الخـاصة بموتاه أى المقـابر وكذلك المنـازل الخـاصة بآلهته أى المعـابد لأول مرة فى تاريخ الانسانية . فقـد تطورت حياة الانسان تطورا حاسما فى المجـالات المادية والفكرية نتيجة تحكمه فى البيئة وفهمه الصادق للمقومات البيئية وربط حياته

بمختلف مجالاتها بهذه الظواهر البيئية التى خلقت لديه الوعى والإدراك لتفهم الحياة الزراعية والتوصل إلى صناعة الزراعة بدلا من اعتماده على الثمار البرية فى مرحله جمع الطعام .

وقد اختلفت ظروف الانسان فى المغرب القديم اختلافا كبيرا عن ظروفه فى المشرق القديم وذلك لأن البيئة المغربية بطبيعتها الجغرافية الخاصة قد وجهت الانسان المغربى القديم إلى طابع آخر فى مجال تطوره الحضارى . فبينما كان الطابع المميز للعصر الحجرى الحديث فى الشرق الأدنى القديم هو الزراعة يجد الباحث أن الرعى هو الطابع المميز لهذه المرحلة فى المغرب بجانب بعض مظاهر الانتاج الزراعى المحدود وذلك لأن طبيعة الأقاليم المغربية تتفق فى ذلك الوقت مع حياة الرعى أكثر من اتفاقها مع حياة الزراعة المستقرة التى تتطلب جهودا شاقة فى التحكم فى القوى المائية لصالح حياة انتاج الطعام . ولذلك يلاحظ الباحث أن العصر الحجرى الحديث فى المغرب قد تأخر من الناحية الزمنية عن نظيره فى الشرق الأدنى القديم فبينما يبدأ فى المشرق فى حوالى منتصف الألف السادس ق م فهو يبدأ فى المغرب حوالى منتصف الألف الخامس ق.م وبينما يستمر فى المشرق حتى منتصف الألف الرابع ق.م حيث يبدأ عصر الحجر النحاس وما يليه من عصور ماقبل وقبيل الاسرات والعصر التاريخى نجد الباحث أن العصر الحجرى الجديث يستمر فى المغرب حتى حوالى ١٢٠٠ ق.م بل يستمر فى بعض المناطق الداخلية حتى العصر الرومانى . ويرجع ذلك إلى الصعوبات البيئية الأرضية والمائية التى تزيد من مجهود الانسان فى محاولة تحكمه فيها وتتطلب وقتا أكثر فى هذا الصدد (١) .

---

(١) أنظر الجدول التقويمى فى نهاية الفصل .

وقبل الاحاطة بالتطورات الحضارية فى هـذه المرحلة فى المغرب تنبغى الإشارة إلى أن النقلة من مرحلة العصر الحجرى القـديم الأعلى إلى مرحلة العصر الحجرى الحـديث لم تكن فجائيـة بل تدريجية كما سبقت الإشارة إلى مراحل الانتقال فى العصر الحجرى القديم باقسامه . ولقد كان للتطورات الحضارية التقدمية فى العصر الحجرى القديم الأعلى أثرها فى التمهيد نحو هذه النقلة. وتنبغى الاشارة إلى أن هذه النقلة فى الشرق الأدنى القديم قد ظهرت فى الحضارة النطوفية نسبة إلى وادى النطوف فى فلسطين حيث عثر على المناجل التى يغلب استخدامها لقطع النبـاتات البرية ، ثم تطورت وظيفتها إلى استخدامها فى قطع النباتات المزروعة . ويلاحظ أنه قد عثر فى المغرب أيضا على بعض الأجران التى كانت تستخدم لطحن المغرة فى العصر الحجرى القديم الأعلى. مما يساعد على التطور نحو الانتقال إلى مرحلة الاستقرار والرعى والزراعه. ويلاحظ أيضا فى آثار مرحلة الانتقال هذه استمرار استخدام الأدوات الحجرية الخاصة بعصر جمع الطعام لأن عمليات الصيد والالتقاط قد استمرت فترة من الزمن رغم بداية التوصل إلى الاستقرار .

وقد قام العلماء بالبحث عن آثار العصر الحجرى الحديث فى المغرب وقد ثبت توصل الانسان فى هذه المنطقة إلى الاستقرار والزراعة، ففى منطقة الجبل الاخضر فى برقه عثر فى موقع هوافتيح على آثار هذه المرحلة الحضارية مثل الأوانى الفخارية . وتعتبر صناعة الفخار من أهم الأدلة الأثرية التى تثبت توصل الإنسان إلى الاستقرار والزراعـة والإنتاج لأن الإنسان المستقر قد شعر بحاجة ماسة إلى تخزين طعامه وشرابه ونجح فى التأقلم مع البيئة واستغلالها إلى أبعـد مدى فشكل من الطين أوانى مختلفة الأحجام لتحقيق وظـائف

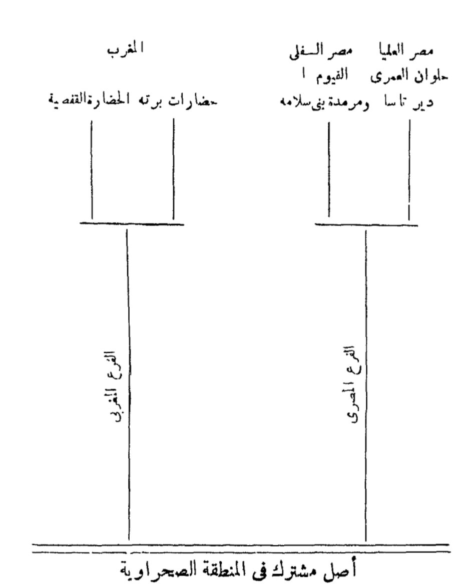
التخزين وحفظ حاجياته المختلفة ولذلك صنع الفخار لأول مرة فى حياته فى العصر الحجرى الحديث . وقد طبقت طريقة الكربون المشع ١٤ على آثار الطبقة الأخيرة فى موقع هوافتيح وأرخت نتيجةلذلك بحوالى النصف الثانى من الألف الخامس ق. م.

ويلاحظ الدارس وجود مؤثرات حضارية مصرية واضحة فى هذه الآثار الليبية فهناك وجه شبه كبير بين فخار الفيوم أ وبين فخار هذا الموقع وكذلك يظهر ذلك فى الصناعات الحجرية مثل رؤوس السهام ولم يعثر على جذور سابقة لهذه الصناعات فى المواقع الليبية مما يؤكد حقيقة وجود هـذه المؤثرات الحضارية المصرية . وتنبغى الاشارة فى هذا الصدد إلى أن حضارة الفيوم ا تعتبر من أقدم مراحل العصر الحجرى الحديث فى مصر فهى ترجع إلى منتصف الألف السادس ق. م . وهنـاك صلات حضارية بينهـا وبين مواقع سيوه والخارجة وغيرها من مواقع الصحراء الغربية المصرية مما يؤكد وجود خط سير اتصال حضارى بين منطقة شرقى ليبيـا وبين وادى النيـل الأدنى وبصفة خاصة منطقة الفيوم فى ذلك الوقت المبكر من مرحلة استقرار الإنسان .

وهناك اتجاه إلى الاعتقاد أن الجذور الأولى لحضارة الإنسان فى مرحلة العصر الحديث فى شمال أفريقيا بوجه عام ترجع فى الحقيقة إلى جهود الانسان فى ذلك الوقت فى منطقة الصحراء الكبرى وهى منطقة فسيحة ممتدة من البحر الأحمر حتى المحيط الأطلسى وكانت مسرحا ضخما لتجول الانسان وتنقله بين الأودية والعيون والواحات والآبار خلال المراحل الجوية المناسبة التى تخللت تاريخ هذه المنطقة الصحراوية . وقد عثر الأثريون على عدد كبير من المواقع الأثرية فى أجزاء هـذه المنطقة الصحراوية الضخمة وقامت فى هذا

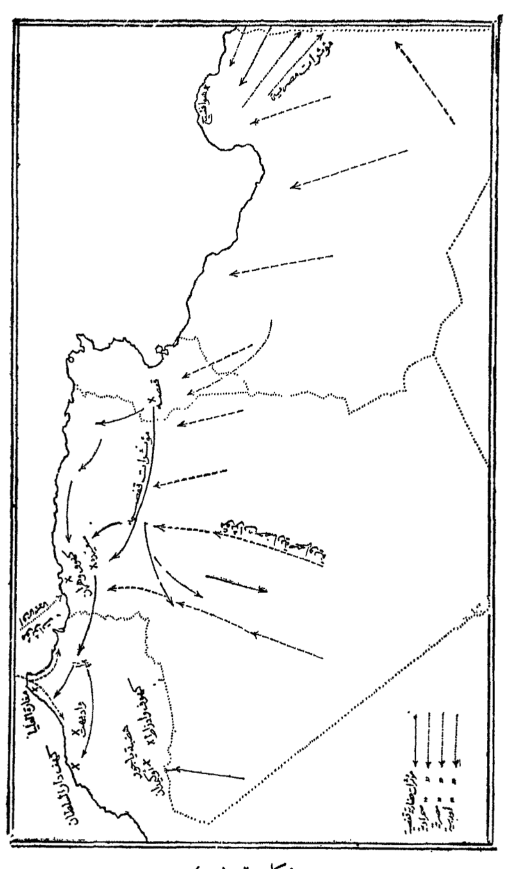
الصدد الاستاذة كاتون تومسون Caton–Thompson بدراسات وأبحاث وجمع للمادة الأثرية المنتمية لهذه المرحلة، والتأكد من وجود صلات حضارية فى التقاليد الصناعية بين هذه المواقع الأثرية . وقرب نهاية العصر الحجرى القديم الأعلى وبداية الإنتقال للعصر الحجرى الحديث أى بعد بداية ظهور مراحل الجفاف الأخيرة اضطر الانسان فى هذه المنطقة الصحراوية إلى الرحيل نحو الأودية والمناطق التى يجد فيها مأكله ومشربه . واتجهت مجموعات من هذا الانسان نحو الشمال ، نحو برقة وتونس وبعضها اتجه نحو الشرق نحو الواحات المصرية وبحيرة قارون ووادى النيل الأدنى . وتمكن الانسان الذى انتقل إلى المنطقة الأخيرة من أسبقية التوصل إلى إنتاج الطعام واكتشاف الزراعة والتوصل إلى الاستقرار وانشاء القرى . وعلى ذلك يمكن تفسير وجود هذه الصلات الحضارية السالفة الذكر بين حضارة الفيوم ا وبين حضارة الانسان فى منطقة شرقى ليبيا على أساس إمكانية انتماء كلتا الحضارتين أصلا إلى جذور وتقاليد حضارية واحدة فى منطقة الصحراء الكبرى . أنظر شكل رقم (٥٣) .

وفى منطقة المغرب الصميم عثر على عدد من المواقع الأثرية ذات الآثار المنتمية إلى مرحلة العصر الحجرى الحديث (أنظر شكل رقم (٥٤) خريطة رقم (٥) . ومن أهم آثار هـــذه المواقع الأوانى الفخارية التى عثر عليها فى مجموعة من مواقع الكهوف الساحلية وهى عبارة عن أوانى كروية الشكل وطويلة وبعضها يتميز بكونها ذات قاعدة مدببة وقد زينت بعض هـــذه الأوانى الفخارية بحزوز بجوار الفوهة وأحيانا بخطوط تعبر عن احتمالية كونها تقلد الأوعيــة الجلدية أو الأسبتة والسلال . ويلاحظ أن بعض هـذه الأوانى الفخارية لهـا ثقوب أو بروز جانبى . ويغلب ارتباط ذلك بطريقة حملها ، أنظر أشكال (٥٤) ، (٥٥) ، (٥٦) ، (٥٧) ، (٥٨) ، (٥٩) ، (٦٠) .

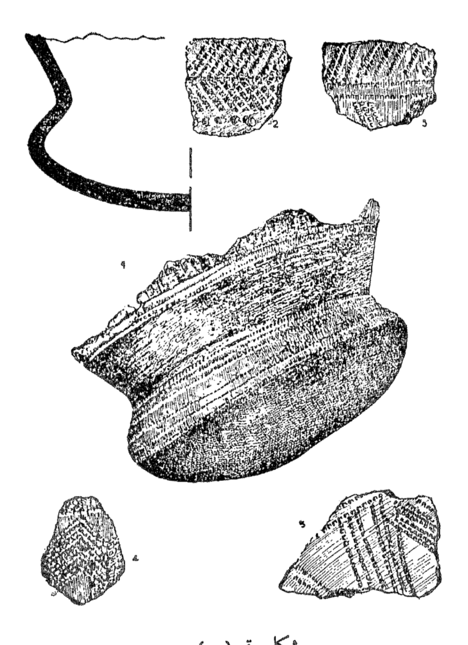


شكل رقم ٥٣

رسم يبين انتماء بعض حضارات مصر والمغرب إلى جذور مشتركة
في الصحراء الكبرى

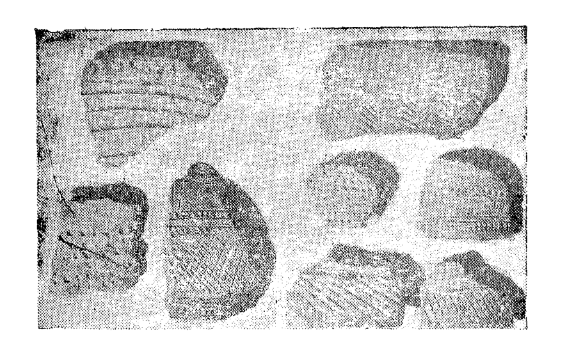


شكل رقم (٥٤)
بعض مواقع العصر الحجرى الحديث فى المغرب
مع الاشارة إلى اتجاهات المؤثرات الحضارية

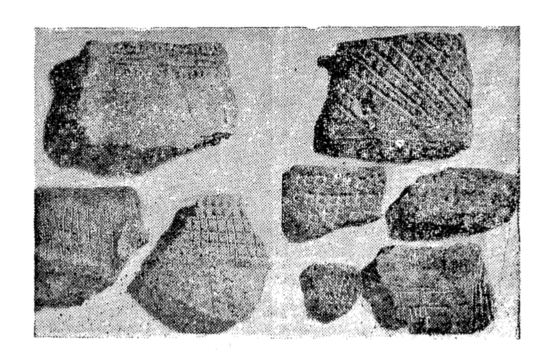


شكل رقم (٥٥)

أمثلة من الفخار المغربى وتظهر فيه الخطوط التى ترمز إلى احتمالية كونها تقليد للأوعية الجلدية أو السلال



شكل رقم (٥٦)
أمثلة لشقف فخارية من كهوف وهران



شكل رقم (٥٧)
أمثلة فخارية أخرى من كهوف وهران

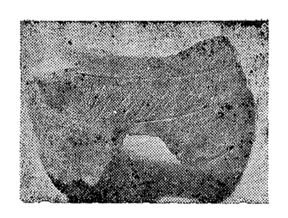


شكل رقم (٥٨)

أمثلة للحزوز الموجودة فى الفخار المغربى



شكل رقم (٥٩)
أمثلة فخارية من كهوف وهران ويلاحظ وجود الثقوب فى بعضها



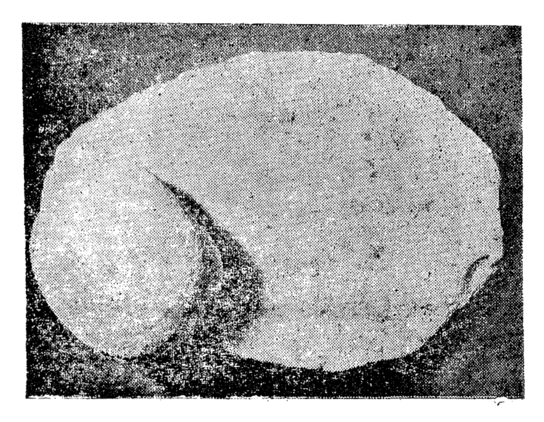
شكل رقم (٦٠)

شقفة فخارية من وهران تتميز بوجود بروز فى أحد جوانبها

وهذه الصناعة الفخارية تعتبر من أهم الأدلة الأثرية المتممة لهذه المرحلة المستقرة . فقد شعر الإنسان بحاجته الماسة إلى تخزين طعامه ، وشرابه واستخدام الأوانى الفخارية لكافة أغراض حياته المستقرة ، وقد دفعه هذا الاستقرار الناتج من توصله إلى الزراعة والرعى إلى استغلال البيئة المحلية ووضع الأوانى الفخارية كدعامة أساسية لهذه الحياة الجديدة . وقد عثر أيضا على الأجران ومدقاتها وهى أدلة أثرية هامة أخرى تتصل بحياة الاستقرار . أنظر شكل رقم (٦١) .

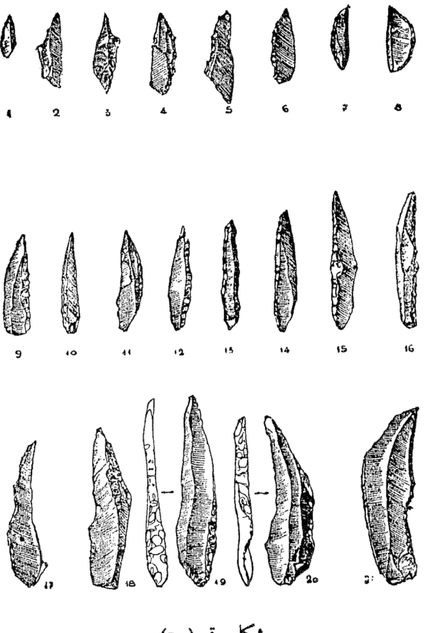
هذا بالاضافة إلى استمراره فى استخدام الأسلحة الميكروليثية ورؤوس السهام ، أنظر شكل رقم (٦٢)، والأدوات العظمية. وقد بدأ يتجه إلى بعض النواحى الكمالية بعد استقراره الجديد فاستخدم بعض أدوات الزينة المصنوعة من القواقع والخرز وغير ذلك، أنظر الأشكال رقم (٦٣) ، (٦٤) .

ويحاول العلماء البحث عن أصحاب هذا الاقتصاد الجديد فى حياة الانسان فى المغرب . هل توصل الإنسان المغربى القديم إلى حياة الاستقرار



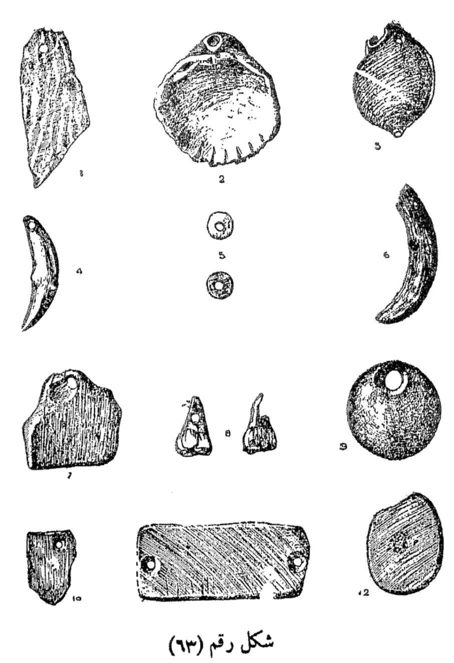
شكل رقم (٦١)
جرن من كهف الأحمر منتمى إلى مرحلة العصر الحجرى الحديث

كتطور طبيعى ومحلى لحضارة إنسان العصر الحجرى القديم الأعلى أم أن هذا الاتجاه الجديد قد جاء نتيجة مجىء عناصر بشرية جديدة حاملة إليه هذه الحضارة الجديدة يصعب على الباحث التوصل إلى حل نهائى فى هذا الموضوع الهام، ويغلب أن جانبى التطور المحلى والهجرة الجديدة قد تداخلا فى كيان التطور الاقتصادى والحضارى فى هذه المنطقة أثناء مرحلة العصر الحجرى الحديث التى انتشرت فى منطقة الجبل الأخضر فى الألف الخامس ق. م. وفى صميم المغرب حوالى منتصف الألف الرابع ق. م. واستمرت حتى النصف الثانى من الألف الثانى . وقد سبقت الإشارة إلى إمكانية وجود جذور أصلية لحضارة الإنسان فى هذه المرحلة فى منطقة الصحراء الكبرى، فقد اتجهت بعض عناصر بشرية نتيجة لجفاف هـــذه المنطقة نحو المغرب ، وسرعان ما تداخلت



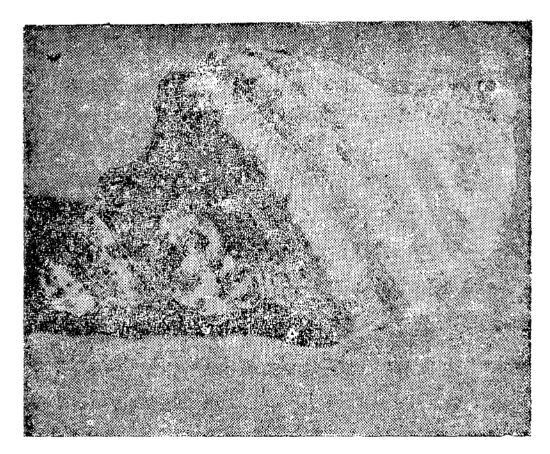
شكل رقم (٦٢)

اسلحة ميكروليثية من مرحلة العصر الحجرى الحديث المغربى



شكل رقم (٦٣)

بعض الآثار المغربية الخاصة بالزينة ويلاحظ الثقوب التى تعلق منها

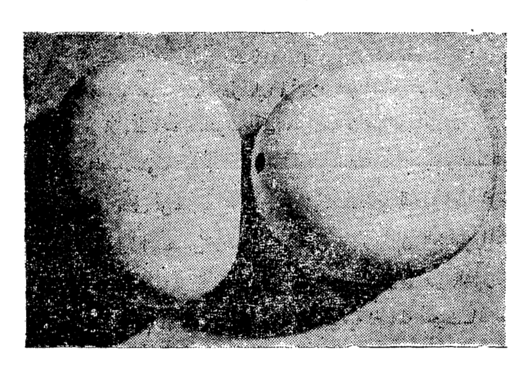


شكل (٦٤)
قوقعة بحرية كبيرة عثر عليها فى تلال القواقع فى شمبلين
ويلاحظ وجود ثقوب لكى تعلق منها لأغراض الزينة

مع العناصر المحلية مكونة هذا الاتجاه الاقتصادى والحضارى الجديد وهناك ناحية هامة أخرى وهى أن العنصر البشرى المغربى القديم الذى واجهه الرحالة والكتاب الأول الفينيقيون واليونانيون كان البربر وإن العناصر المسماه بالبربرية تمتد فى تحركاتها عبر الصحراء الكبرى من الشرق إلى الغرب ويغلب عليها الانتماء إلى عائلة اللغات الحامية المختلطة أحيانا بعائلة اللغات السامية ، وترجع أصلا إلى منطقة عمان واليمن والصومال وشرقى أفريقيا ثم تحركت غربا وشمالا إلى السودان الشمالى والنوبة ومنها إلى الصحراء الغربية الفسيحة تحمل معها تقاليدها الحضارية ولهجاتها

وفنونها المختلفة . ويصعب على الباحث تحديد الفترة الزمنية التى تحركت فيها هذه العناصر البشرية من الشرق إلى الغرب ولكن مما لا جدال فيه وجودها فى المغرب فى مرحلة العصر الحجرى الحـــديث . ولا شك أن تحركات البربر قد ساعدت أيضا على دعم الصلات الحضارية بين مختلف المواقع الأثرية فى هذه المرحلة لحد كبير. وتنبغى الإشارة إلى أهمية هذا العنصر فى تكوين جانب هـام من الجوانب البشرية فى الحضارات المصرية القديمة والليبية والمغربية. ولا يقتصر ذلك على الجانب الحضارى بل يتضمن الجانب اللغوى، ولا تزال بعض القبائل البربرية والتى تعربت تقطن فى الصحراء الكبرى وبصفة خاصة فى الجزائر والمغرب . ويسمى البربر أنفسهم الأمازيغ أى الأحرار.

وقد اتجه الإنسان فى مرحلة العصر الحجرى الحديث فى المغرب إلى زيادة التعبير عن أفكاره بعد أن توفر لديه الوقت والقدرة الفكرية ودقة الملاحظة، فقام بعمل نقوش كثيرة على بيض النعام أنظر شكل (٦٥)، وعلى صخور الهضاب والجبال

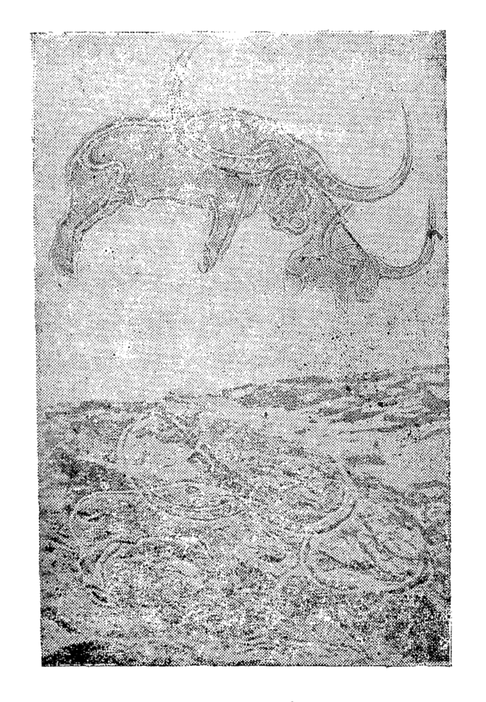


شكل رقم (٦٥)

بيض نعام من كهف الأحمر فى نواحى تبسه ويلاحظ بعض النقوش عليه .

تعبر عن بعض مفاهيمه الاقتصادية والدينية . وتعتبر هذه الرسوم خطوة هامة فى تطور قدرات الإنسان التعبيرية سرعان ما تتطور إلى أن تصل إلى التعبير بالرموز والكتابة قبل بداية العصر التاريخى . وتعتبر هذه النقوش مصدرا رئيسيا فى التعرف على تفكير الإنسان فى هـذه المرحلة . ويصعب على الباحث تأريخ هذه النقوش بدقة ولكن العثور على آثار الإنسان بجوارها يساعد على تحديد هذا التاريخ. وتنتمى غالبية هذه النقوش إلى مرحلة العصر الحجرى الحديث بوجه عام.

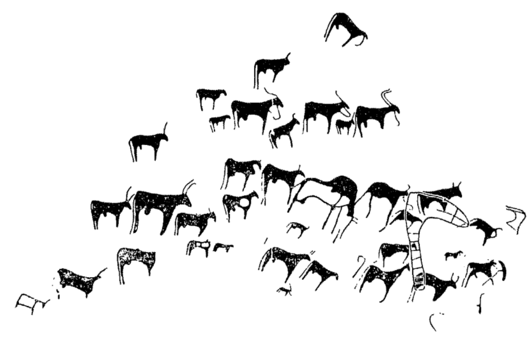
أما عن موضوعها فيغلب عليها الرسوم الحيوانية أنظر أشكال(٦٦)-(٧١)، بالاضافة إلى رموز يصعب على الباحث تفسيرها، ولكن لاشك أن لها مفاهيمها الخاصة لدى هذا الانسان فى المغرب القديم. وهناك أمكانية وجود غاية سحرية فى هذه الرسوم على أساس تصور الإنسان واظهاره تحكمه فيهـا ليحمل فى طياته معنى تجسيم هذه الفكرة فى الواقع. فالانسان رغم تقـدمه الحضارى بالمقارنة بالمراحل السابقة الطويلة أثنـاء العصر الحجرى القـديم فهو لا يزال يبحث عن الأمان والاطمئنان والانتصار على القوى الشريرة الضارة بحياته ومستقبله. وهناك بعض الرسوم التى تسترعى انتباه الباحث مثـل رسوم الـكباش التى تحمل فوق رؤوسها رموزا بيضاوية الشكل والتى فى بعض الأحيان يوجد أمامها رجل يتميز بوجود خصلة شعر جانبية فى رأســـه كما يرتدى قميصا وحزاما عريضا. وهناك امكانية وجود وجه شبه بين هذه الكباش والكبش المصرى فى العصر الفرعونى والذى يحمل على رأسه رمز الشمس ويمثل الإلة آمون رع فى الدين المصرى القديم، أنظر شكل رقم (٧٢، ٧٣)، وقد عثر على هذه الرسوم جنوب وهران وفى برقه. ومما يلفت النظر أيضا أن موضوع خصلة الشعر الجانبية التى تميز الإنسان السالف الذكر قد ذكرتها النصوص المصرية القديمة كعلامة تميز بعض



شكل رقم (٦٦)
مناظر حيوانية ليبيـــة

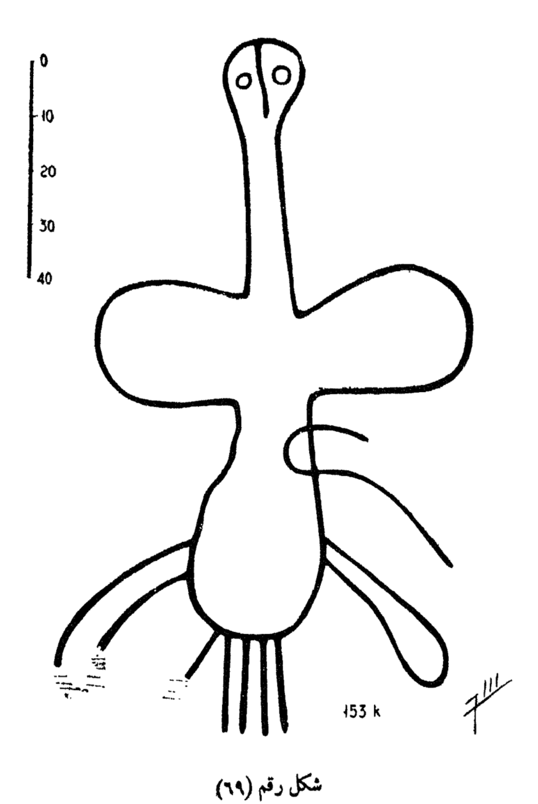


شكل رقم (٦٧)
رسوم أخرى حيوانية ليبية



شكل رقم (٦٨)

منظر تعبيرى لمجموعة حيوانية كبيرة منحوتة فى سفوح جبال الأطلس الكبير المغربية غربى واد زاط عند ازيبس نكيس غربى أزجور فى المغرب الأقصى .



شكل رقم (٦٩)

رسم رمزى ربما يمثل مظهرا أو ليا تعبيريا لفكرة المعبود





شكل رقم (٧٠) ، (٧١)
رسوم حيوانية ليبيـــة

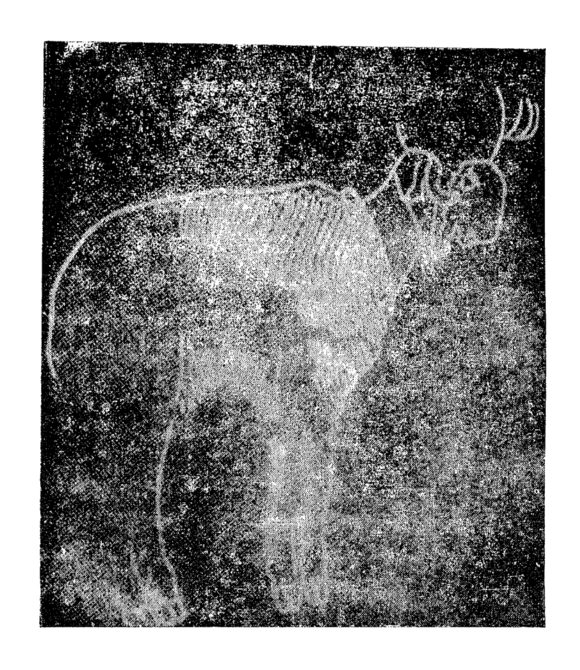
الكهنة المصريين وقد جاء ذلك بصفة خاصة فى نصوص التوابيت فى الدولة الوسطى . وهناك رسوم أخرى تمثل بعض الشخصيات التى تشبه لحد كبير الآله المصرى بس ، أنظر شكل رقم (٧٤) هذا بالاضافة إلى رسم رجل آخر قد ترك ذقنه بشكل يذكر الباحث بطريقة رسم الآله أوزير المصرى ، أنظر شكل رقم (٧٥) ، وقد عثر على هذه الرسوم جنوب طرابلس .

وتؤرخ هـــذه الرسوم بالفترة الممتدة من حوالى منتصف الألف الثالث حتى حوالى منتصف الألف الأول قبل الميلاد ومن الواضح أن هذه الفترة تقابل فترات هامة فى صميم العصر التاريخى فى مصر القديمة مما يؤكد أن هـــذه الرسوم قد تعبر عن أفكار حضارية متأثرة بالحضارة المصرية القديمة . ويعتبر ذلك استمرارا للصلات المصرية بين المغرب ومصر القديمة . وهناك رأى آخر يميل إلى الإعتقاد بأن هذه الرسوم قد جاءت من غربى أوربا وأسبانيا أو هى تطور من الحضارة القفصية المحلية . ولكن هذا الرأى يصعب الاستناد عليه إذا قورن بالأدلة الأثرية السالفة الذكر .

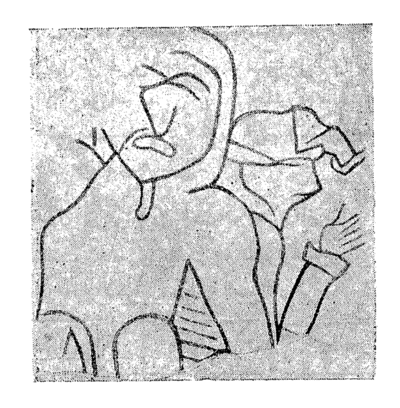
وبينما يجد الباحث أن مرحلة العصر الحجرى الحديث فى الشرق الأدنى القديم قد تبعها عصر الحجر والنحاس وعصور ما قبل وقبيل الاسرات مما مهد لبداية العصر التاريخى ، فانه لايجد ما يناظر ذلك فى المغرب القديم . فقد استمرت مرحلة العصر الحجرى الحديث وبدأ العصر التاريخى بعدها حوالى ١٢٠٠ ق . م ، أنظر الجدول التقويمى المرفق . ولكن هناك بعض الأدلة غير القوية التى من الجائز الاستناد عليها فى إمكانية القول بتوصل الإنسان إلى استعمال النحاس فى المغرب أثناء العصر الحجرى الحديث وذلك اعتمادا على وجود بعض رسوم لخناجر يغلب كونها نحاسية ، أنظر شكل رقم (٧٦) كذلك العثور على آثار نحاسية فعلا ولكن فى مرحلة زمنية تالية . والواقع أن العامل البيئى كما سبقت



شكل رقم (٧٢)
رسم يمثل كبش ليبى يتميز بوجود قرص الشمس على رأسه
ويشبه ذلك لحد ما الأمثلة المصرية



شكل رقم (٧٣)
منظر لرسم يمثل كبش جزائرى
ويلاحظ وجود جزء من قرص الشمس فوق رأسه



شكل رقم (٧٤)
رسم ليبي يشبه رسم الإله أوزير المصرى

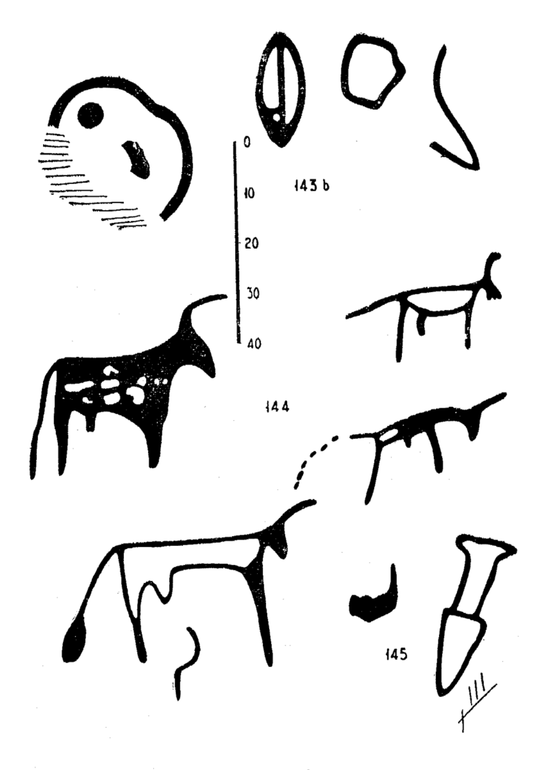


شكل رقم (٧٥)
رسم ليبي يشبه لحد كبير رسم للاله بس المصري

الاشارة كان من أهم الدوافع الرئيسية فى تشكيل حضارة الإنسان فى المغرب القديم و إطالة فترات صراعه مع الطبيعة إلى أن جاءت إلى المغرب عناصر بشرية جديدة سامية الأصل عن طريق البحر ورست بسفنها على الشواطىء المغربية المطلة على البحر الأبيض المتوسط والمحيط الأطلسى وبدأت عمليـة نقلة حضارية حاسمة لمجتمع العصر الحجرى الحديث فى المغرب إلى مجتمع العصر التاريخى وكان ذلك على أيدى الفينيقيين .

جدول تقويمى مقارن لحضارات مصر والمغرب
فى العصور الحجرى الحديث ، والحجر والنحاس
وماقبل الاسرات ، وبداية العصر التاريخى

الزمن	العصر	مصر	المغـرب
٥٥٠٠ق م	الحجرى الحديث	الفيوم ا مرمدة بنى سلامة حلوان العمرى ديرتاسا	حضارات برقة والقفصية
٤٥٠٠ق.م	الحجر والنحاس	البدارى	امكانية استخدام النحاس
٤٠٠٠ ق.م	ماقبل الاسرات	جرزة والعمره ونقادة الأولى جرزة الأخيرة ونقادة الثانية	حضـــارات برقـــة والقفصيـــة
٣٠٠٠ ق.م	العصر التاريخى	العصر الثينى والدولة القديمة وعصر الانتقال الاول والدولة الوسطى وعصر الانتقال الثانى والدولة الحديثة	
١٢٠٠ق.م		» »	العصر الفينيقى



شكل رقم (٧٦)

رسوم حيوانية مغربية ويلاحظ بصفة خاصة رسم الخنجر

الباب الثالث

العصر التاريخي في المغرب القديم

يمثل هذا العصر مرحلة جديدة في تاريخ المغرب القـديم تداخلت فيهـا العناصر المحلية البربرية مع العناصر الفينيقية المهاجرة من الشرق الأدنى القديم والسامية الأصل والعناصر اليونانية والرومانية والهندية الأوربية الأصل والوندالية والبيزنطية في المجالات الاقتصادية والحضارية والسياسية الحربية والسلمية. ويلاحظ المؤرخ في خلال فترات هذا العصر التاريخي تقارب الجانب البربري مع الجانب السامي في المجالات الحضارية اللغوية والدينية أكثر من العناصر الهندية الأوربية مما مهد نحو مرحلة حاسمة في تاريخ المغرب وهي مرحلة العصر العربي الإسلامي . ويشتمل العصر التاريخي القديم على العصر الفينيقي والعصر القرطاجي متضمناً مراحل الممالك البربرية ثم العصر الروماني والوندالي والبيزنطي ويبدأ الدارس بالعصر الفينيقي .

الفصل الأول

العصر الفينيقى

تعتبر مرحلة الانتقال إلى بداية العصر التاريخى خطوة حاسمة فى حياة الانسان لأنها تمثل بداية مرحلة جديدة سريعة التطور فى كافات المجالات الاقتصادية والسياسية والحضارية .

وتعتبر هذه المرحلة خلاصة الجهود الانسانية الطويلة فى المراحل السالفة. وقد نجح الانسان فى وضع عدد كبير من الأدوات المساعدة المادية والفكرية لتحقيق أهداف حياته الجديدة واتفق العلماء على أن توصل الانسان فى بداية تلك المرحلة إلى التعبير بالرموز واختراع الكتابة يعتبر بمثابة علامة مميزة على بداية العصر التاريخى لأن هذه الأداة التعبيرية الجديدة وهى الكتابة قد ساعدت الانسان على تسجيل حياته وتنظيم كافة شئونه الاقتصادية والسياسية تنظيما جديدا يعتمد على التدوين والتسجيل والتوثيق، ولذلك اعتبر هذا العامل الفكرى كخط فاصل بين مجتمعات ماقبل التاريخ ومجتمعات العصر التاريخى بوجه عام. ولذلك تعرف أحيانا المراحل السابقة لبداية العصر التاريخى بمراحل ما قبل الكتابة وتعرف مراحل العصر التاريخى بمراحل الكتابة والسجلات والوثائق. وهناك ظواهر أخرى خاصة تميز بداية العصر التاريخى فى مختلف المناطق . فقد سجلت وثيقة قائمة الملوك السومرية اعتبار ظاهرة الطوفان المحلى بمثابة علامة مميزة لبداية العصر التاريخى ونهاية عصور ماقبل التاريخ فى العراق واطلقت تعبير ماقبل الطوفان للمراحل السابقة لعصور ماقبل التاريخ ومابعد الطوفان لمراحل العصر التاريخى وذلك على أساس أن ظاهرة

الفيضانات الكثيرة كانت كثيرة الحدوث فى العراق القديم ، لأن الانسان فى ذلك الوقت كان يعمل جاهدا لمحاولة التحكم فى مياه الأنهار والروافد وكانت ظاهرة الفيضانات تهدد حياته بصورة استدعته لتسجيل احداها كحادثة يميز بها مرحلة هامة فى حياته. وكانت بمثابة مرحلة الانتقال من عصور ما قبل التاريخ إلى العصر التاريخى. وتنبغى الاشارة إلى أن الانسان القديم كان يقوم باتخاذ حوادث معينة تؤرخ بها حوليات حياته ويطلق على كل سنة حادثة تميز تلك السنة . وأما فى مصر القديمة فكان للأحداث السياسية أثر كبير فى اتخاذ احدها كعلامة مميزة بين عصور ما قبل التاريخ والعصر التاريخى، فقد اعتبر المصريون حادثة اتحاد الشمال والجنوب والتوصل إلى الوحدة السياسية فى الأسرة الأولى المصرية كبداية للعصر التاريخى فى مصر القديمة ، تؤرخ الأحداث على أساسها . وعلى ذلك يتبين أن بداية العصر التاريخى قد اختلفت من مكان لآخر حسب ظروف الانسان من النواحى البيئية والاقتصادية والسياسية .

وفى المغرب القديم كانت بداية العصر التاريخى بداية خاصة فقد كان البربر يعيشون فى شكل قبلى مستقر ويعتمدون على الرعى والزراعة فى حياتهم المنتمية لمرحلة العصر الحجرى الحديث إلى أن جاءت السفن الفينيقية من شرقى البحر الأبيض المتوسط ورست على مقربة من الشواطىء المغربية المطلة على البحر الأبيض المتوسط والمحيط الاطلسى وبدأت محاولات من الطرفين البربرى والفينيقى للتفاهم والتعامل الاقتصادى لأول مرة . ويصعب على الدارس التعرف على حقيقة هذا اللقاء الأول ولكن يمكن الاعتماد لحد معين على ما سجله الكتاب اليونان والذى يحمل فى طياته القصص والاساطير المثيرة المحتملة الحدوث . وتعددت الرحلات والمبادلات الاقتصادية وازدادت الصلات بين الفينيقيين والبربر ويعتبر ذلك بمثابة بداية للعصر التاريخى فى المغرب

القديم، لأن تعرف البربر وهم فى مرحلة العصر الحجرى الحديث على معالم عصر المدنية وهو العصر التاريخى يعتبر بمثابة نقلة حاسمة فى حياتهم نحو بدايتهم بدورهم للعصر التاريخى فى المغرب القديم .

وقد تطلبت عمليات الاستيراد والتصدير والتعامل الاقتصادى بين الفينيقيين والبربر انشاء محطات ساحلية وموانىء ترسو عندها السفن لكى تستطيع تحقيق ذلك وبدأ هؤلاء التجار الفينيقيون فى اختيار الأماكن المناسبة لهذا الغرض ويعتبر ذلك بداية للعصر الفينيقى فى تاريخ المغرب القديم . وقبل دراسة هذا العصر وتتبع تركته الأثرية ونتائجه السياسية والحضارية فى المغرب القديم ينبغى على الدارس التعرف أولا على الأسباب والدوافع المباشرة وغير المباشرة لخروج هؤلاء الفينيقيين من مدنهم الأصلية واتجاههم نحو غربى البحر الأبيض المتوسط ، وتأسيسهم مدنا فينيقية جديدة على طول السواحل المغربية والاسبانية . وتتصل تلك الأسباب والمبررات اتصالا وثيقا بتاريخ منطقة الشرق الأدنى القديم فى الألفين الثانى والأول قبل الميلاد .

المبررات التى أدت الى خروج الفينيقيين الى غربى البحر الابيض المتوسط :

يمكن للباحث عن هذه المبررات ارجاعها إلى دوافع اقتصادية وأخرى سياسية وبشرية . أما عن الدوافع الاقتصادية فهى تتصل إتصالا وثيقا بطبيعة العناصر العتيقة وظروفها التاريخية منذ بداية العصر التاريخى فى منطقة الشرق القديم . فقد وصلت تلك العناصر الكنعانية الأصل إلى هذه المنطقة واستقرت على الساحل الفينيقى قبل بداية العصر التاريخى وتمكنت من تأسيس عدة مدن مثل صور وصيدا وجبيل وبعض المدن الداخلية مثل أريحا وبيسان ومجدو وغيرها . وشعرت تلك العناصر منذ البداية بضرورة التجمع

حول مدنها وكذلك تحصين هذه المدن بمختلف الوسائل الدفاعية للاطمئنان على حياتهم فى تلك الأماكن لأنه قد تبين لهم أن منطقة الساحل الفينيقى بل والمنطقة السورية والفلسطينية لا تنعم بالهدوء الدائم بحكم موقعها الجغرافى كطريق طبيعى بين منطقة بلاد الرافدين ووادى النيل وأيضا منطقة هضبة الأناضول ، هذا بالاضافة إلى مواجهتها لساحل البحر الأبيض المتوسط فى جزئه الشرقى . ولذلك كانت هذه المنطقة تقع تحت تأثير كافة العوامل السياسية والبشرية والحضارية فى منطقة الشرق الأدنى القديم . ومن ناحية أخرى كانت العناصر السابقة التى قطنت منطقة سورية وفينيقيا وفلسطين أى المجاورة لها لا تتسم بالوحدة رغم انتمائها إلى عنصر بشرى ولغوى واحد وهو العنصر السامى ، فهناك العناصر الآمورية فى منطقة لبنان الداخلية وهناك العناصر الآرامية فى سورية وهناك العناصر الكنعانية فى فلسطين والساحل الفينيقى . وقد نتج عن عدم توصلهم إلى الوحدة تنافسهم على السيادة السياسية والاقتصادية . كل ذلك قد أدى إلى ضرورة تأمين الفينيقيين لأنفسهم وتحصنهم فى قلاعهم ومدنهم ذات الأسوار العالية للدفاع عن أنفسهم فى الوقت المناسب . ويلاحظ أيضا أن الفينيقيين أنفسهم لا يميلون بطبعهم للمسائل السياسية بل يركزون نشاطهم فى المجالات الاقتصادية . فهم يفضلون الأمان والاستقرار السياسى حتى يتمكنوا من تسويق تجارتهم والنجاح فى عملياتهم التجارية . ويلاحظ الدارس خلال تاريخ المدن الفينيقية أنهم يقبلون دفع الجزية أمام ضغط العناصر المهاجمة حتى يتحقق لهم السلام ويتابعون نشاطهم التجارى .

تبين هذه الظواهر العامة طبيعة العناصر الفينيقية ومواجهتها لواقع موقفها وتركيز نشاطها فى المجالات الاقتصادية . وعلى ذلك يلاحظ منذ بداية العصر

التاريخى اتصال الفينيقيين اتصالا وثيقا مع مصر وقبرص وكريت وأيضا بلاد العراق . وقد برز الفينيقيون فى هــذه المجالات التجارية بصورة ملحوظة وأصبحت شهرتهم متوقعـــة لدى الأسواق الأجنبية، فاتجه إليهم المصريون منذ الاسرة الأولى للانتفاع بثرواتهم الطبيعية وبصفة خاصة خشب الأرز الذى استخدمه المصريون فى كافة مشروعاتهم المعمارية والعقائدية . وكذلك نجح الفينيقيون فى صناعة البرونز والعاج والعظم والزجاج وقد تطلب تصنيع هذه المواد البحث عن الخامات الاصلية المتوفرة فى البيئات الاجنبية . وكان ذلك أيضا من الدوافع المبررة لرحلاتهم الخارجية . وكذلك أظهر الفينيقيون قدرة فائقة فى صناعة الاقمشة وبصفة خاصة المصبوغة باللون الارجوانى وقد اعتمـدوا فى ذلك على استخراج هـــذه الاصبغـة الخاصة من بعض الاصداف البحرية التى عثروا عليها على ساحلهم . ولم يقتصر النشاط الاقتصادى على التصنيع السالف الذكر بل اتجهوا أيضا إلى الاهتمام بالزراعة وصيد الاسماك. وقد أتاح لهم هذا النشاط الاقتصادى فرصة الاتصال بالاسواق الخارجية والتعرف على الطرق البرية والبحرية مما أكسبهم خبرة فائقة وقدرة فى هذا المجال. كل ذلك قد أعطى هذا المبرر الاقتصادى أهمية خاصة فى اتجاههم نحو تسويق تجارتهم والبحث عن امكانيات اقتصادية جديدة تضاعف من انتاجهم وتفتح لهم بالتالى أسواقا جديدة. واتجهوا فى هذا الصدد إلى منطقـة الشرق الادنى القديم أى المنـاطق المحيطة بهم . وكذلك اتجهوا إلى المناطق البحرية على أوسع مدى بحكم موقفهم الجغرافى المواجه لمنطقة حوض البحر الابيض المتوسط. وقد كان للاوضاع السياسية والبشرية أثر كبير فى اعطاء الجانب البحرى من نشاطهم أهميـــة خاصة مما جعلهم يركزون نشاطهم التجارى قرب نهاية الألف الثانى قبل الميلاد فى هذا

الجانب البحرى مما أدى إلى ضرورة إنشاء محطات ومراكز مستقرة فى المناطق التى تتجه سفنهم إليها لتكون بمثابة مناطق يستطيعون الاستقرار فيها وتحقيق أغراضهم الاقتصادية، وأدى ذلك إلى تتابع هجراتهم بصورة تدريجية وعلى مرات متعددة لتحقيق هذا النشاط الاقتصادى فى هذه الأسواق والمناطق الجديدة فى غربى البحر الأبيض المتوسط .

أما المبرر الثانى لهذا الاتجاه نحو الهجرة إلى شمال أفريقيا فهو يتركز فى النواحى السياسية والبشرية فى منطقة الشرق الادنى القديم فى الألف الثانى قبل الميلاد وبداية الألف الاول ق . م . الواقع أنه يمكن اطلاق الصفة الدولية لحد كبير على تاريخ الشرق الأدنى القديم خلال الألف الثانى قبل الميلاد وبصفة خاصة نصفه الثانى وذلك من النواحى السياسية والبشرية والحضارية فقد تميز تاريخ هذه المنطقة خلال تلك الفترة لوجود تحركات بشرية هائلة آتية من الشرق ومتجهة نحو الغرب وهى التحركات المعروفة بتحركات الشعوب الهندوأوربية فقد بدأت هذه الشعوب تتغلغل وتتسلل إلى منطقة الشرق الأدنى القديم لأسباب اقتصادية وأخرى سياسية وتدخل المنطقة من عدة جهات إما عن طريق الهضبة الايرانية أو عن طريق الالتفاف حول البحر الاسود ودخول المنطقة من منطقة مضيق البسفور والدردنيل ومنها إلى آسيا الصغرى وقد نتج عن هذه الهجرات ظهور قوى سياسية جديدة لأول مرة فى تاريخ الشرق الادنى القديم مثل قوة الشعوب المعروفة فى التاريخ المصرى بالهكسوس والتى اختلف العلماء فى محاولة التعرف على عنصرها البشرى ولكن يتجه جزء كبير منهم إلى الاعتقاد بأصلهم الهندى الأوربى المختلط ببعض العناصر السامية فى منطقة سورية وفلسطين أثناء استقرارهم هناك فى

طريقهم بعد ذلك إلى مصر فى عصر الانتقال الثانى . وأيضا مثل القوى الميتانية التى تتكون من العناصر الحورية والسوبرية وذلك فى منطقة شمال وشرقى سورية فى النصف الثانى من الألف الثانى قبل الميلاد . هذا بالإضافة إلى قوة الدولة الحيثية القديمة والحديثة فى منطقة وسط وشرقى آسيا الصغرى . وقد حاولت هذه القوى الهندية الأوربية اكتساب السيادة السياسية والحضارية والاقتصادية فى منطقة الشرق الأدنى القديم على حساب العناصر السامية التى سبقتها إلى الاستقرار فى هذه المنطقة. وكانت منطقة سورية وفلسطين والساحل الفينيقى من المناطق الأساسية التى تأثرت بصورة مباشرة بهذه القوى غير السامية . وأدى ذلك إلى اعتكاف الفينيقيين فى مدنهم المحصنة محاولين الحياة وسط هذه القوى السياسية المحيطة ببلادهم . ولم يقتصر الموقف على هذه القوى فقد كانت هناك قوى أخرى لها دورها الرئيسى فى تاريخ الشرق الأدنى القديم وهى القوتين المصرية والعراقية القديمة وتتضمن الأخيرة القوى السومرية والاكادية والبابلية والكاشية والاشورية وذلك خلال الألفين الثالث والثانى ق . م . فقد حاولت كافة هذه القوى توسيع دائرة نشاطها السياسى والاقتصادى والحضارى . ووصل امتـــدادها إلى منطقة سورية وفلسطين وفينيقيا وقرب نهاية الالف الثانى قبل الميلاد ازداد نشاط الآراميين فى سورية وكذلك شعوب البحر وهى عناصر أخرى تنتمى إلى عائلة الشعوب الهندية الاوربية . كما ازداد أيضا الضغط السياسى والبشرى من القوى المختلفة فى المنطقة وبصفة خاصة القوى الآشورية مما كان من المبررات الدافعة إلى اتجاه الفينيقيين نحو الطريق البحرى والاستقرار فى المراسى الجديدة فى منطقة شمال أفريقيا حتى يتمكنون من تحقيق نشاطهم التجـــارى السالف الذكر وخاصة أن أوضاعهم السياسية الداخلية لم تؤهلهم إلى تكوين دولة فينيقية

متحدة بل كانوا متفرقين فى مدنهم وعلى رأس كل مدينة ملكها المنتمى غالبا إلى الطبقة الثرية . وتجدر الاشارة إلى حدوث بعض اتحادات سياسية بين المدن الفينيقية أثناء بعض الازمات ولكن هذه الاتحادات لم تكن من القوة التى تكفل لهـــا الوقوف كدولة صامدة أمام القوى السياسيـة الأخرى المحيطة بها .

وقد اتجهت بعض هذه الدويلات الفينيقيه إلى الاستعانة بمصر الفرعونية ضد بعض القوى السياسية الاخرى مثل القوى الحيثية كمحاولة من ناحيتها للصمود أمام محاولات الحيثيين فى التغلغل فى المنطقـــة السورية . وتنبغى الاشارة فى هذا الصدد إلى أن العلاقات الفينيقية المصرية كانت تتسم بالطابع الاقتصادى والحضارى بصورة خاصة ويمكن ارجاع ذلك من الناحية التقويمية إلى مرحلة الدولة القديمة والدولة الوسطى ولا تزال نصوص أونى وسنوهى تشهد بهذه الصلات الحضارية والاقتصادية بين مصر وفينيقيا .

وعلى ذلك فتاريخ الشرق الادنى القديم فى الألف الثانى ق . م مزدحم بهذه الصورة الدولية فى المجالات السياسية والحضارية وتأييدا لذلك قد أصبحت اللغة الاكدية وخطها المسمارى بمثابة اللغة الدولية فى المنطقة فى ذلك الوقت وحتى فى مصر الفرعونية قد استخدمت هذه اللغة فى عصر تل العمارنة .

وعلى ذلك يمكن القول أن هذه المبررات الاقتصادية والبشرية وكذلك الطبيعية والبيئية كانت لهـا فاعليتها العامة فى دفع العناصر الفينيقية إلى الخروج نحو غربى البحر الابيض المتوسط وتأسيس مراكز فينيقية على الساحل المغربى . ولكن كانت هناك مبررات أخرى مباشرة فى هذا الصدد

إتخذت مظهرا قصصيا كما رواها الكتاب اليونان، وتتصل هذه القصص بعملية تأسيس المراكز ذاتها وبعض الحوادث التى حدثت أثناء هذه المرحلة .

عملية تأسيس المراكز الفينيقية فى غربى البحر الابيض المتوسط :

اتجه العلماء إلى الاعتقاد بأن مدينة صور Tyre كان لها الدور الاول فى عملية تأسيس المراكز الفينيقية فى غربى البحر الابيض وذلك على أساس أن الزعامة السياسة والحضارية قد انتقلت إلى تلك المدينة قرب نهاية الألف الثاني وبداية الألف الأول ق . م . ولكن هذا الرأى ينبغى إعادة النظر فيه لأنه من الصعب التيقن من أن هذه الهجرة الفينيقية قد اقتصرت على مدينة صور، فعلى الرغم من تعرض المدن الفينيقية إلى هجمات شعوب البحر وكذلك الضغط الأشورى فان ظروف العناصر الفينيقية فى هذه المدن بوجه عام متشابهة رغم تفاوتها فى السيادة السياسية، وعلى ذلك يمكن القول بامكانية اشتراك عناصر فينيقية أخرى مع الصوريين فى الاتجاه نحو المغرب . وهناك تقليد يتجه إلى القول أن تاريخ تأسيس مدينة صور كان حوالى ١١٩٤ ق . م . وذلك على أثر انتصار ملك عسقلان على مدينة صيدا مما دفع أهل صيدا إلى الاتجاه إلى تأسيس مدينة صور والتى تتميز بجزرتها المواجهة للشاطىء الفينيقى مما يجعلها فى حماية طبيعية لحد ما إزاء التدخلات المباشرة ، ولكن هذا التقليد ينبغى إعادة النظر فيه لأنه من الصعب اعتبار هذه المدينة الفينيقية الأصل ترجع إلى هذا التأريخ المتأخر زمنيا فى عملية تأسيسها وعلى ذلك يمكن اعتبار تأسيسها يرجع إلى مرحلة أكثر قدما من هذا التاريخ السالف الذكر ، ومن الجائز كون هذا التاريخ يمثل مرحلة هامة فى تاريخ هذه المدينة . ومن الأهمية بمكان الاشارة إلى ضرورة الاحتياط فى تقبل التقويمات الزمنية التى

سجلها الكتاب اليونان والرومان بالنسبة إلى البلاد الأجنبية لعدة أسباب، منها وجود إتجاهات اقتصادية وسياسية معينة تدفع هؤلاء الكتاب إلى اتجاهات خاصة فى كتاباتهم التاريخية ، هذا بالاضافة إلى أن نشاط الكتاب اليونان الفعلى فى الجانب التأريخى يتأخر نسبيا من الناحية الزمنية إلى حوالى بداية الألف الأول ق . م .

وعلى ذلك فيغلب إعتبــار مدينة صور رائدة مرحلة الهجرة نحو الغرب قرب نهاية الألف الثاني ق . م . وكان لموقع مدينة صور منذ البداية إتصالا بالنشاط البحري بحكم كونها جزيرة تستوجب الحياة فيها مداومة الاتصال البحري . وكان الصوريون يعتمدون على مختلف أنواع الخشب اللازم لبناء السفن والجاذيف الخاصة بها كما يتجهون إلى الإعتماد على أشرعة السفن من مصر .

أما عن الحادثة الشهيرة التى روتها القصص بالنسبة لهجرة العناصر الفينيقية فتتلخص فى شخصية الأميرة إليسا Elissa أخت الملك بيجماليون Pygmalion ملك صور التى اتجهت إلى الزواج من خالها Acherbas أشرباس وهو أحد كهنة ملقارت ، وقد أغضب ذلك أخوها الملك بيجماليون وأمر بقتل هـذا الكاهن مما دفع إليسا إلى الهجرة، واشترك معها عدد من أهل صور المعارضين لبيجماليون واتجهت فى هجرتها إلى جزيرة قبرص حيث انضم إليها هناك أحد كهنة الآلهة عشتارت Asterte واشترط أن تكون له ولعائلته أولوية فى كهنوت المراكز الفينيقية الجديدة وأن يكون ذلك وراثيا فى أسرته، كما أنضم إليها أيضا ثمانون عذراء كانوا أصلا للبغاء المقدس، كل ذلك لضمان استخدام المراكز الجديدة . وقد اتجهت هذه الهجرة الفينيقية إلى منطقة الساحل الأفريقى المغربى .

وانتهت هـذه القصة بانتحار الأميرة الفينيقية إليسا على أثر طلب رئيس البربر الزواج منها . وكان يطلق أحيانا على إليسا اسم ديدو Dido وهو اسم غير فينيقى . وينبغى على المؤرخ التوقف عند هذه القصة والتردد بصدد الإعتراف بكافة تفاصيلها لأنه قد كتبها الكتاب اليونانيون، وكما سبقت الإشارة فمن الضرورى إعادة النظر إزاء كتاباتهم الخاصة بالفينيقيين ، ولا يمنع ذلك من إمكانية حدوث بعض إحداث هذه القصة . ومن الاهمية الاشارة إلى مصدر تاريخى ثان وهو ما سجله المؤرخ اليهودى يوسفوس Josephus الذى كتب فى القرن الأول الميلادى نقلا عن آخرين أنه فى السنة السابعة من حكم بيجماليون أسست أليسا مدينة قرطاج . وعلى ذلك فهناك عنصر تاريخى سليم يتعلق بارتباط هذه الأميرة مع عملية تأسيس قرطاج بعد إستبعاد العناصر القصصية التى من المحتمل كونها غـير جديرة بالواقع . وموضوع الأساطير والقصص معروف فى التراث القديم سواء كان فى المجالات الدينية أو السياسية أو الاجتماعية . وهو طريف من حيث تقبل الجموع الشعبية وإستساغتها له، ويبقى على الباحث تحرى الدقة فى إستنباط الحقائق من هذه الأساطير . كما أنه يلاحظ وجود أساطير كثيرة تتصل بالشخصيات البـارزة وعمليات تأسيس المدن الهامة وكذلك الأحداث الرئيسية وذلك لأن الكتاب القدامى أرادوا لفت الانتباه إلى أهمية هذه المسائل وقاموا بتسجيلها فى صورة شعبية تجمع بين الواقع والخيال .

أما عن الزمن الذى حدثت فيه عملية تأسيس هذه المراكز الفينيقية فيعتمد الباحث فيه على المصادر الكلاسيكية اليونانية والرومانية وكذلك على الأدلة الأثرية . ومن الجدير الإشارة إلى وجود تعارض واضح بين كلا المصدرين فى هذا الشأن ، فبينما المصادر الكلاسيكية تشير إلى أن مدينة قادس قد أسست

سنة ١١١٠ ق . م وأوتيكا سنة ١١٠١ ق . م وقرطاج ٨١٤ ق.م وذلك على أساس اعتبار بعض التواريخ اليونانية أساسا تقاس عليه التقويمات الزمنية للاحداث الأجنبية فقد سبقت الاشارة إلى عدم دقة هذه التقويمات الزمنية التى الحقها الكتاب اليونان بالنسبة لتاريخ العناصر الأجنبية . وأما عن التواريخ اليونانية الثابتة فهى تاريخ سلب طروادة سنة ١١٩٤ ق.م وبداية الاحتفال بالألعاب الأولمبية سنة ٧٧٦ ق . م . وعلى ذلك يعتبر من الضرورى إعادة النظر فى الازمنة الخاصة بتأسيس كل من قادس واوتيكا . أما بالنسبة لمدينة قرطاج فقد اتفق العلماء على قبول تاريخ تأسيسها وهو ٨١٤ ق . م لتأكيد مختلف الكتاب هذه الحقيقة على اعتبار بأن هذا التأسيس كان قبل بداية الألعاب الأولمبية بمدة ثمانية وثلاثين عاما .

أما عن المصادر الأثرية فقد قام العلماء بالبحث والتنقيب عن أقدم الآثار الفينيقية فى مختلف المواقع فى الساحلين الأفريقى والأسبانى . وثبت حتى الآن عدم وجود أية آثار فينيقية الاصل فى تلك المناطق قبل حوالى ٧٥٠ ق.م[١]. وعلى ذلك هناك تعارض واضح بين الجانبين الكلاسيكى والأثرى . ولكن من الجائز امكانية العثور على آثار فينيقية تلقى بعض الضوء على هذه المشكلة. ولا تزال عمليات الحفر والتنقيب مستمرة فى المواقع الأثرية لاستكمال هذه الثغرات فى تاريخ تلك المنطقة فى العصور القديمة . وقد اعتمد الأثريون فى دراستهم التقويمية لهذا الموضوع على الفخار الفينيقى الذى وجد فى المقابر القرطاجية الأولى والتى نجت من عملية الإفناء الرومانى لمدينة قرطاج وهى عاصمة الدولة القرطاجية. وقد وجد مع هذا الفخار فخار يونانى وجعارين

---

(١) Warmington, B H., Carthage; London, 1960, 22.

وتمائم مصرية قديمة. وعلى ذلك أمكن بالدراسات المقارنة التعرف على زمن هذا الموقع الأثرى بالاضافة إلى استخدام الطرق التقويمية الأخرى فى هذا الصدد. ومن المراكز الهامة التى كانت من أقدم المواقع الأثرية والتى عثر فيها على هذا الفخار الفينيقى الأول هو موقع سالمبو حيث عثر على معبد الالهة تانيت Tanit ووجدت فيه الأوانى الفخارية الفينيقية التى احتوت على بقايا عظام الأطفال المضحى[1] بهم لأجل اكتساب رضاء هذه الآلهة.

وقد اتجه هؤلاء الفينيقيون المهاجرون الأول نحو الساحل الافريقى المغربى يبحثون عن أماكن يستطيعون أن يرسوا عليها سفنهم وينزلون بها بضائعهم حتى يتمكنون من تحقيق أغراضهم الاقتصادية. ويصعب على الباحث فى هذه المرحلة الاولى من تأسيس المراكز الفينيقية فى غربى البحر الابيض المتوسط التعرف على كيفية حدوث عمليات التأسيس الاولى، ولكن مما يستوجب الاشارة إلى أن هذه العمليات لم تكن من الصعوبة بمكان من ناحية مواجهة الفينيقيين للعناصر البربرية. ولايعنى ذلك انعدام وجود إشكالات فى هذا الصدد. ولكن تحقق البربر من مقاصد الفينيقيين الاقتصادية البحتة كان من العوامل الرئيسية فى تقبلهم لهم. ولكن الاشكالات البيئية كانت من الصعب التغاضى عنها وخاصة أن استخدام الطريق البحرى يستوجب توفر الموانى والارصفة المناسبة لعمليات رسو السفن. ولاشك أن استكشاف الفينيقيين للاماكن المناسبة لتحقيق هذا الغرض قد استغرق بعض الوقت إلى أن تبين لهم أن السهول الواقعة فى شمال تونس تعتبر من أنسب الاماكن لتأسيس مراكزهم الاولى أكثر من السواحل الصخرية فى المناطق الأخرى، ولذلك

---

(١) Warmington, B. H., Ibid., 23.

احتلت منطقة قرطاج المرتبة الاولى بين المراكـز الفينيقية منذ البداية . هذا بالاضافة إلى أهمية موقعها الجغرافى القريب نسبيا من الوطن الأصلى بالمقارنة بالمراكـز الأخرى البعيدة . كما أن طبيعة موقع قرطاج تسمح بالتوغل لحد ما فى الداخل أكـثر من المراكـز الاخرى حيث تعوق الجبال والهضاب دون تحقيق ذلك بسهولة نسبية .

وقد استمرت عملية التأسيس والهجرة والانتقال بصورة تدريجية ومتتابعة مما أدى إلى بداية عصر جديد فى تاريخ المغرب القديم وهو العصر الفينيقى.

ويعتبر العصر الفينيقى فى المغرب عصرا مكملا للتاريخ الفينيقى فى المشرق، فهو كما سبقت الاشارة يمثل مرحلة توسع اقتصادى خارجى فى ميادين جديدة على فينيقى المشرق . ويلاحظ الدارس أن تلك المحطات التجارية التى اختار مواقعها الفينيقيون فى المغرب محطات ساحلية أو قريبة من الساحل أى أنهم لم يتوغلوا فى الداخل كثيرا . وقد ظل هذا الاتجاه واضحا فى تاريخهم حتى بعد استقلالهم عن المشرق وتأسيسهم الدولة القرطاجية . فقـد كانت تلك المحطات عبارة عن مراسى أو موانىء صغيرة لاستقرار السفن الفينيقية لاغراض التموين بالمـاء والزاد وكذلك نقل المواد الخام وتصدير المصنوعات المشرقية الفينيقية والمصرية وأيضا اليونانية . ولذلك يلاحظ أن مواقع تلك المراسى كانت عبارة عن إما جزر متاخمة للساحل مثـل موقع قادس الذى يعتبر من أقدم المحطات التجارية الفينيقية فى غربى البحر الأبيض المتوسط ، أو بروز طبيعى ساحلى يصلح أن يكون بمثابة حاجز للامواج مما يسهل رسو السفن فى مأمن من العواصف البحرية. وأحيانا يقوم الفينيقيون بايصال الجزر القريبة بالشاطىء وبذلك تتكون الموانىء والخلجـان المناسبة للاغراض التجارية

وكذلك يقيمون الأرصفة والمخازن وكافة احتياجات الموانىء . وهناك اختلاف بين العلماء عن أقدم تلك المواقع الفينيقية الأولى فى غربى البحر الأبيض المتوسط، ولكن من الممكن القول بأن المواقع البعيدة الكائنة فى أقصى الغرب قد بدأ الفينيقيون فى اقامتها قبل المواقع المتوسطة لحوض البحر الأبيض المتوسط . وذلك لأن الغرب وبصفة خاصة شبه جزيرة ايبيريا كان الهدف الأول لرحلات الفينيقيين وذلك لوجود المواد الخام وبصفة خاصة القصدير والرصاص بوفرة فى أسبانيا وفى منطقة تارتسوس Tartesos فى جنوب غربى أسبانيا وهى التى سمتها نصوص العهد القديم تارشيش . وكذلك اتجه الفينيقيون الى جزر البليار وبصفة خاصة ابيزا Ibiza وأيضا غربى جزيرة صقلية ومالطة وسردينيا , وكذلك استقر الفينيقيون فى مواقع ساحلية على الساحل الافريقى وداخلية لحدما ابتداء من لبدة الكبرى وطرابلس حتى المغرب متضمنا ساحل افريقيا الغربى حتى على الأقل جزيرة الصويرة فى المغرب ، وعلى رأس تلك المواقع قرطاج وليكسوس وتموده ، انظر شكل رقم (٧٧،٧٨). ويعتمد المؤرخ فى التعرف على هذه المواقع الأولى من نتائج الحفائر للطبقات الأثرية الاولى التالية لمرحلة العصر الحجرى الحديث المتميزة بالفخار المنتمى لها ، أنظر شكل رقم(٧٩) . وتعتبر طبقات هذه المواقع بمثابة سجل عينى لعصور التاريخ المغربى القديم[١] .

ويغلب أن تأسيس المراكز الفينيقية فى المغرب قد تم حوالى القرن الثامن ق . م . وعلى ذلك يكون العصر الفينيقى قد استمر من ذلك الوقت حتى منتصف القرن ٦ ق . م . حيث بدأت الدولة القرطاجية فى الوقوف على قدميها كقوة ذاتية مستقلة سياسيا عن المشرق . ولو أن بداية العصر الفينيقى من الناحية التقليدية كما سبقت الاشارة ترجع إلى نهاية الألف الثانى ق . م.

---

(١) أنظر ، أحمد المكناسى ، ليكسوس .

و Tarradell, Marruecos Punico, Tetuan, 1960.



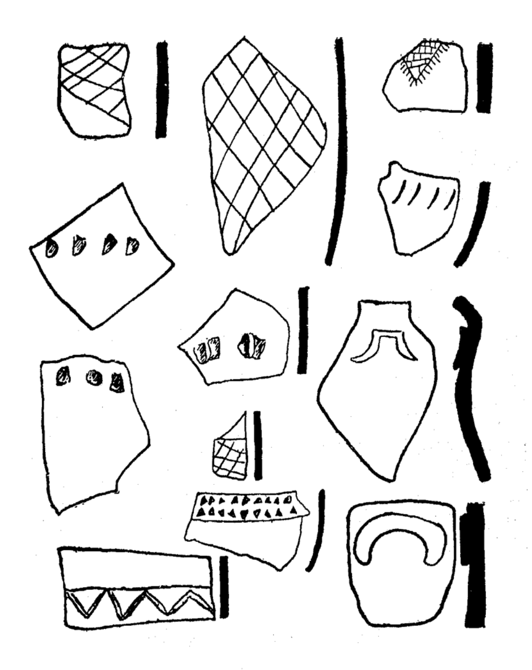
شكل رقم (٧٧)

موقع ليكسوس قرب مصب نهر لوكوس

عند مدينة العرائش على ساحل المحيط الاطلسى



شكل رقم (٧٨)
منظر جوى لموقع تموده ويتضمن آثار
من المراحل القرطاجية والرومانية



شكل رقم (٧٩)
الفخار البربرى المنتمى للعصر الحجرى الحديث
والسابق مباشرة العصر الفينيقى فى ليكسوس

ولقـد كان العصر الفينيقى فى المغرب عصر استكشاف اقتصادى أكثر منه مرحلة سياسية وهو من تلك الناحية الأخيرة يعتبر تابعا لحكومات المدن الفينيقية المشرقية وبصفة خاصة مدينةصور ولقد ظل هذا الارتباط والالتزام الضريبى والحضارى كائنا لحد كبير حتى بعد استقلال هذه المراكز الفينيقية عن المشرق وبداية العصر القرطاجى .

ومن الظواهر الهامة التى تميز العصر الفينيقى منافسة اليونانيين الشديدة لهم فى المجال الاقتصادى . وهناك اعتقاد بأن اليونانيين قد سبقوا الفينيقيين فى إنشاء المراكز التجارية فى غربى البحر الأبيض المتوسط ولكى يغلب أن عملية الإنشاء هذه كانت فى وقت متقارب وقد حدث أحيانا أن استقرت العناصر اليونانية فى منطقة ثم تمكن الفينيقيون من الاستحواذ على السيادة الاقتصادية فيها بعد ذلك وبذلك انتقلت إلى حوزتهم . وعلى الرغم من هذه المنافسة الاقتصادية فقد سادت العلاقات السلمية بين الجانبين لحد كبير باستثناءعمليات القرصنة التى كانت تقوم بها بعض الجماعات من كلا الطرفين بحثا عن الثروة بطريقة غـير مشروعة . ولقـد شملت التجارة الفينيقية الكثير من الصناعات اليونانية رغم هذه المنافسة . وتنبغى الإشارة فى هـذا الصدد إلى أهميـة الدور الفينيقى فى الحضارة اليونانية وبصفة خاصة فى التعرف على الأبجدية ، فقد اعترف اليونانيون بفضل الفينيقيين فى هـذا الشأن مما كان له أثره البـالغ فى تيسير تحقيق العمليات التجارية ، لأن وجود وسيلة الاتصال السهلة يساعد على تشهيل اجراءات تلك العمليات . ولقد عاون نظام المقايضة على توسيع نطاق المبادلات التجاريه لما فى هذا النظام من ميزات عينية تساعد على أداء الشراء والبيع فى عمليـات مباشرة . وفى صميم المغرب تبادل البربر مع

الفينيقيين الأول النشاط التجارى فى سلام مما ساعد على تدعيم العلاقات البربرية الفينيقية ليس فقط فى المجال الاقتصادى ولكن أيضا فى المجال الحضارى. لقد بدأ البربر يتعرفون عن قرب بالمظاهر الحضارية والتجارية الجديدة مما دعم قدراتهم الحضارية وساعد على تطويرهم. وكذلك تأثر الفينيقيون بالبربر وتقاليدهم وعقائدهم، وهذه الظواهر سرعان ما تصل إلى قمتها فى أثناء العصر القرطاجى، وكذلك سادت العلاقات التجارية السلمية بين قرطاج وأوتيكا من ناحية ومصر من ناحية أخرى عن طريق برقة التى استقرت فيها بعض العناصر اليونانية قرب نهاية القرن السابع ق. م.

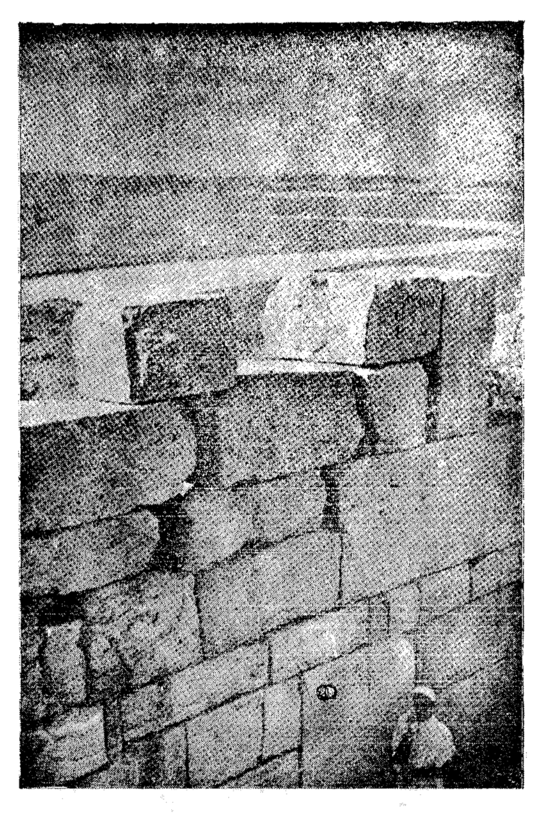
وقد بدأت العلاقات الفينيقية اليونانية فى التطور من الاطار السلمى إلى الاطار الحربى على إثر إزدياد المنافسات التجارية والسياسية. وقد ظهرت بوادر ذلك فى جزيرة صقلية التى جمعت بين الجانبين اليونانى والفينيقى. وقد بدأت تلك المشاحنات بين الطرفين فى بداية القرن السادس ق. م. ولم تستطع مدينة صور القيام بدور الحماية والدفاع عن هذه المراكز الفينيقية الغربية بسبب الضغط الآشورى والبابلى الكلدانى. وهنا بدأت مدينة قرطاج تحتل مكان الزعامة وعملت على تحقيق تلك الحماية. ويمكن القول أنه منذ ذلك الوقت قد بدأت فعلا الدولة القرطاجية فى التواجد كقوة سامية جديدة فى غربى البحر الابيض المتوسط وذلك منذ حوالى منتصف القرن السادس ق.م. ولم يقتصر هذا التهديد اليونانى على جزيرة صقلية بل لقد ظهر أيضا على الساحل الليبى فى طرابلس حيث استقرت بعض العناصر اليونانية وحاولت أيضا منافسة القرطاجيين، وذلك غير القوة الفارسية الهائلة التى وصلت سيادتها الغربية حتى مصر فى عهد الملك الفارسى قمبيز الثانى سنة ٥٢٥ ق. م.

والتى حاولت التحرش غربا بالمراكز الفينيقية وعلى رأسها قرطاج ولكن البحارة الفينيقيون فى الأسطول الفارسى امتنعوا عن تحقيق هـــذا الغرض وبذلك تخلص الفينيقيون من عنصر جديد قوى كان من أشد الأخطار التى تهدد تواجدهم فى تلك المنطقة .

أما عن كيفية الانتقال من هذه المرحلة الفينيقية إلى المرحلة القرطاجية المستقلة فقد تم ذلك على يد أسرة فينيقية فى مدينة قرطاج هى الأسرة الماجوية نسبة إلى زعيمها وأسمه ماجو وكان قائدا للجيش . وتنبغى الإشارة فى هذا الصدد أن ظاهرة الأسر كانت سائدة فى هذا المجتمع بسبب العامل الاقتصادى حيث استحوذت الأسر الثرية على السلطان وأصبحت لها الزعامة فى ذلك الوقت . وقد تمكن ماجو من انشاء جيش قرطـاجى قوى من الجنود المرتزقة من كافة العناصر الليبيه أى البربرية الذين كانوا يعملون كمشاة فى الجيش وكذلك العناصر البربرية النوميدية الذين تميزوا بقدراتهم فى مجال الفروسية وأيضا العناصر الغالية وغيرها . ولم يتردد اليونانيون فى الانخراط فى صفوف الجنود المرتزقة فى الجيش القرطاجى . ولكن كان لهـذه القوة العسكرية المأجورة خطورتهـا فى كافة الجوانب التنظيمية والتكتيكية والقوميـة . وكانت هنـاك اشكالات دفع الأجور واحتمالية قيامهم بتذمرات داخلية بسبب تأخر دفع الأجور . ومن ناحية أخرى اتبعت قرطاج سياسة عقد المحالفات السياسية مع بعض القوى المتاخمة لها مثل الاترورين فى شبه الجزيرة الإيطالية . هـــذا بالاضافة إلى قيام تلك المدن الفينيقية بعمليات تحصينية قوية للدفاع عن كيانها مثل بناء الاسوار والحصون والثكنات وكذلك تجهيز الجيش بالمعدات والمؤن وأيضا توفير

السفن اللازمة للأسطول القرطاجى . وقد عثر فى الحفائر فى الكثير من هذه المواقع الفينيقية على آثار هذه التحصينات الدفاعية . أنظر أشكال رقم (٨٠) ، (٨١) .

وبذلك بدأت مرحلة جديدة أقرب إلى الصفة السياسية منها للاقتصادية وهى مرحلة العصر القرطاجى ، ازدادت فيها الصلات الفينيقية البربرية وانتقل فيها المغرب من الاطار المحلى البحت إلى صميم معترك التطورات السياسية الدولية فى حوض البحر الابيض المتوسط .



شكل رقم (٨٠)
منظر لجزء من الحائط الغربى الحجرى الضخم فى ليكسوس



شكل رقم (٨١)
منظر لجزء من الحائط الشرقي في ليكسوس

الفصل الثانى

العصر القرطاجى فى جانبه السياسى

المرحلة الأولى

يمتد العصر القرطاجى من الناحية الزمنية من حوالى منتصف القرن السادس ق. م. إلى النصف الثانى من القرن الثانى ق.م ، وبالتحديد سنة ١٤٦ ق. م. ولا يعتبر هذا العصر من أهم مراحل التاريخ المغربى القديم فحسب ، بل من أهم مراحل التاريخ الأفريقى وتاريخ حوض البحر الأبيض المتوسط . وقبل دراسة النظام السياسى القرطاجى والتاريخ السياسى والحضارى فى هذا العصر والذى يتضمن جوانب الصراع السياسى العنيف مع القوتين اليونانية والرومانية وموقف البربر والممالك البربرية من هذا الصراع الدولى الكائن فى الأرض المغربية وفى حوض البحر الأبيض المتوسط ، ينبغى التعرض إلى تلك المدينة العاصمة التى قادت هذه المرحلة التاريخية الحاسمة وهى مدينة قرطاج . فقد احتلت تلك المدينه منذ بداية هذا العصر دور الزعامة التاريخية السياسية والحضارية للدولة القرطاجية ، ولذلك فهى تعتبر نموذجا للحياة السياسية والحضارية فى تلك الفترة . وعلى الرغم من قلة الآثار التى تخلفت بعد عملية الإفناء الرومانى للمدينة فقد نجت بعض المقابر والمعابد وغيرها من الآثار التى ساعدت على إلقاء بعض الضوء عن تاريخ هذه المرحلة .

قرطاج العاصمة :

لقد كان المؤرخ Appian صادقا ومعبرا بدقة فى القرن الثانى

قبل الميلاد عن وصفه لمدينة قرطاج ، حيث قال عنها أنها أشبه ما تكون بالسفينة الراسية [١] لأنها قد بنيت فى شبه الجزيرة المحاطة بالبحر من ناحية وبالبحيرتين من ناحية أخرى مما يجعل وجهتها بحرية أكثر منها برية افريقية . وتعتبر قرطاج نموذجا للمدينة القرطاجية والتى تعبر عن التفكير القرطاجى والحياة القرطاجية والنشاط السياسى والاقتصادى فى العصر . وتتضمن هذه المدينة العظيمة كافة جوانب النشاط الحضرى مثل الجوانب التجارية والحربية كآثار الميناء والاسوار والاستحكامات والسوق وآثار الجوانب السياسية والدينية كالساحة والمبانى الرسمية والمعابد ، وكذلك آثار الجوانب المدنية كالمنازل والجبانات وغيرها . ويمكن إعتبار الموانىء بمثابة أهم المناطق فى المدن القرطاجية لاتصالها اتصالا وثيقا بالهدف الاقتصادى البحرى الذى إتجه القرطاجيون إلى تحقيقه . ولكن يلاحظ أن الموانىء القرطاجية كانت أقل مساحة من الموانى اليونانية والرومانية . ولقد فرق المهندس القرطاجى فى تخطيطه للمدينة بين ميناء خاص بالاغراض التجارية وآخر خاص بالاغراض الحربية ، فقد كان هناك الميناء التجارى المستطيل الشكل والميناء الحربى المستدير الشكل والذى تتوسطه جزيرة عليها قيادة الاسطول القرطاجى . وتقع آثار هذه الموانىء الآن شمال جون الكرم بين سالمبو ودرمش [٢] . هذا وقد جهزت هذه الموانىء بالأرصفة اللازمة لرسو السفن كما خصصت أماكن معينة لها . وقد استكملت تلك

---

(١) Gilbert and Colette Charles - Picard, Daily life in Carthage, London, 1961, P. 26.

(٢) أحمد صفر ، مدنية المغرب العربى فى التاريخ ، تونس ، ١٩٥٩ ، ص ٩٧ .

الموانىء استعداداتها الخاصة بعمليات فتح واغلاق تلك الموانىء بواسطة السلاسل الحديدية ، وكذلك الطرق المؤدية إليها والكبارى الموصلة بين بعض مناطقها .

ومن أهم منشآت تلك المدينة المرتبطة ارتباطا كبيرا بغاياتها الاقتصادية والسياسية المنشآت التحصينية الدفاعية . وعلى رأسها بناء الاسوار والخنادق والأبراج العالية . وتصل تلك الاسوار فى طولها إلى حوالى أربعة وثلاثين كيلو مترا وفى ارتفاعها إلى ثلاثة عشرة مترا وفى سمكها إلى تسعة أمتار وترجع من الناحية الزمنية إلى حوالى القرن الخامس ق. م. ولم تقتصر تلك الاسوار على مجرد حماية المدينة من مختلف التسللات والأخطار التى تهدد أمنها ولكن يلاحظ أيضا أن هــــذه الأسوار كانت من الضخامة بدرجة أن جدرانها الداخلية كانت تستخدم بعد تجهيزها بالاحتياجات الأساسية ، كثكنات واسطبلات ذات أدوار سفلية وعلوية . وكان الدور السفلى يسع ثلاثمائة فيل والدور العلوى أربعة آلاف حصان وقد جهزت الأرضيات المنحدرة لتساعد على عملية الصعود ونزول تلك الحيوانات . وتتسع الثكنات لحوالى عشرين ألف جندى من المشاة وأربعة آلاف من الفرسان . وزيادة فى تدعيم التحصين اللازم لتلك المدينة العظيمة حفر خندق كبير يبلغ عرضه عشرين مترا مما يجعل وسائل الحماية فى غاية القوة . هذا بالاضافة إلى وجود قلعــة داخلية يحيط بها سور كبير وتحتل مكانها الآن كنيسة لويس التاسع (١) .

وهناك أيضا آثار المبانى ذات الصبغة السياسية والاقتصادية والاجتماعية كالساحات أو كما تسمى أيضا الرحبه أو البطحاء عند المواطنين العرب فى

أحمد صقر ، نفس المرجع ، ص ١٠٢ .

تونس وهى تماثل الساحة اليونانية Agora واللاتينية Forum ، وتقع فى مكان متوسط بين الميناء والقلعة . هذا بالاضافة إلى مبان أخرى لها وظيفتها السياسة مثل مبنى مجلس الشيوخ وقاعات القضاء .

وقد استكملت المدينة جوانبها الدينية ببناء المعابد وخاصه للالهة البربرية الأصل تانيت Tanit والاله أشمون وكذلك هناك المنازل ذات الأدوار العليا وهى العمارة الخاصة بمدينة صور أصلا والتى استمر القرطاجيون بصورة تقليدية فى بنائها رغم عدم الحاجة الماسة إلى ذلك فى المغرب . وتتضح فى تلك المنازل القرطاجية بعض المؤثرات اليونانية وبصفة خاصة الأعمدة الايونية أنظر الأشكال (٨٢) ، (٨٣) ، (٨٤) .

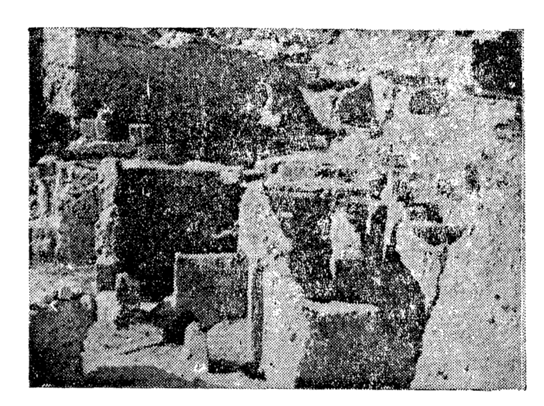
وقد مرت تلك المدينة القرطاجية باعتبارها العاصمة السياسية للدولة القرطاجية بعدد من التطورات السياسية والدستورية تتصل إتصالا كبيرا بالطبيعة الأولى لهذه العناصر الفينيقية الأصل وهى الطبيعة الاقتصادية .

التنظيم السياسى القرطاجى :

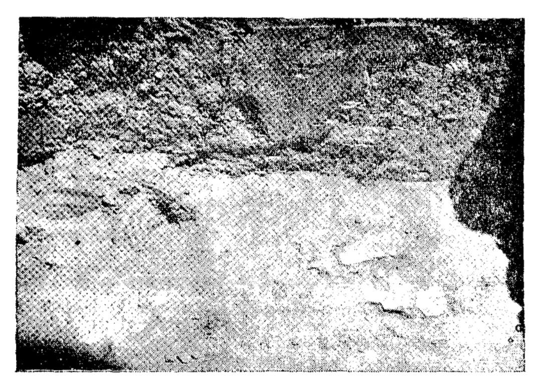
مر هذا التنظيم بثلاث مراحل رئيسية متداخلة . أولى تلك المراحل هى مرحلة الملكية . وهذه تعتبر فى الواقع استمرارا لما كان موجودا فى حكومات المدن الفينيقية فى المشرق ولكن هذه الملكية القرطاجية كانت فريدة فى نوعها فهى ليست كالملكية المصرية القديمة ذات الطابع الإلهى أو الملكية السومرية، بل لقد كان الملك القرطاجى يختار من طبقة معينة فى الدولة وهى الطبقة الثرية وذات الجاه التقليدى بالوراثة وهى الطبقة الارستقراطية . وعلى ذلك فيمكن القول بأن التنظيم السياسى القرطاجى كان متمشيا تماما مع الهدف الفينيقى الأول وهو الاستحواذ على الثروة



شكل رقم (٨٢) بقايا منزل من العصر القرطاجي



شكل رقم (٨٣) بقايا منازل أخرى من العصر القرطاجى فى المرحلة الأخيرة



شكل رقم (٨٤) منظر لبقايا الفسيفساء الملون لمنزل من العصر القرطاجى ـ الموريطانى

الاقتصادية . ولم تكن العمليات الحربية والسياسية القرطاجية تهدف إلا لتدعيم هذا الجانب . وكذلك لم تتم عمليات الاستكشاف البرى والبحرى القرطاجى والتدخل فى أسبانيا وغيرها إلا لتثبيت أركان هذا الهدف الاقتصادى الذى احتل مكان الصدارة فى التاريخ الفينيقى والقرطاجى . ولذلك كان أصحاب هذه الثروة الاقتصادية فى المكانة الأولى فى السلطات السياسية . ويشبه ذلك لحد ما تطور التنظيم السياسى فى المجتمع اليونانى حيث ظهر التنافس بين الطبقات ، وكان للجانب الاقتصادى فاعلية فى هذا الصدد. ويلاحظ الدارس أن هذه الطبقة الارستقراطية قد تجسمت بصفة خاصة فى عدد من الأسر التى احتكرت هذه السلطات السياسية فى الدولة . وعلى رأس هذه الأسر ، كانت الاسرة الماجوية. ويقتصر المؤرخ فى دراسة هذه المرحلة على المصادر الكلاسيكية لعدم توفر المادة القرطاجية . ولم تستمر هذه المرحلة طويلا لتغير الأسس الاقتصادية ، فقد نشأت طبقة جديدة فى المجتمع القرطاجى وهى طبقة ملاك الاراضى الزراعية . وبذلك بدأت عوامل التنافس الاقتصادى على الثروة والتنافس السياسى على السلطات السياسية فى الدولة . وقد تمكنت هذه الطبقة الجديدة من الاستحواذ على تلك السلطة وإنتزاعها من الأسره الماجوية وذلك فى منتصف القرن الخامس ق. م. وبدأت مرحلة جديدة هى أقرب إلى النظام الجمهورى رغم الاستمرار فى استخدام التعبير الملكى .

وقد استمرت هذه المرحلة الثانية من التنظيم السياسى من حوالى منتصف القرن الخامس ق. م. إلى حوالى بداية القرن الثالث ق. م. ويلاحظ الدارس فى هذه المرحلة تعدد الوظائف السياسية وتأثرها لحد كبير بالتنظيم السياسى

اليوناني والروماني ، فقد ظهرت عدة هيئات سياسية جديدة مثل مجلس الشيوخ ومجلس المائة . وكان مجلس الشيوخ يتكون من ثلاثمائة عضو، أما مجلس المائة فكان مكونا من مائة وأربعة أعضاء . وتركزت السلطة السياسية المباشرة فى يد حاكمان أو كما كانا يسميان ملكان أو سبطان ، وهذا النظام يشبه نظام القناصل الرومانى · ويستمر هذان الحاكمان فى سلطتهما لمدة سنة ولهما رئاسة مجلس الشيوخ ، كما يشترك مجلس المائة فى وظيفة الرقابة كضمان لسير الشئون السياسية فى طريقها . ويلاحظ الدارس أن هذه المرحلة من تطور التنظيم السياسى القرطاجى أعطت الشعب لحد كبير نوعا من المشاركة فى هذا التنظيم ، أما المرحلة الثالثة فهى تجمع لحد ما بين المرحلتين الأولى والثانية .

وقد إستمرت المرحلة الثالثه من هذا التنظيم فى القرنين الثالث والثانى ق. م. وتركزت فيهما السيادة السياسية لأسرة برقه ولكن ليس بنفس الطريقه التى كانت عليها المرحلة الاولى بل لقد جمعت تلك المراحل بين سلطة تلك الاسرة وسلطات مجلس الشيوح والمجالس الأخرى الخاصة بالشئون المالية والدينية كالمجلس الثلاثيني ومجلس العشرة . ويلاحظ الدارس أن هذه التجربة السياسية التى واجهتها الدولة القرطاجية كانت مثل ما يعاصرها من القوى الأخرى اليونانية والرومانية ، حيث قد مرت جميعها بمراحل التطور التنظيمى السياسى . ولذلك يلاحظ الدارس جمع التنظيم السياسى القرطاجى بين النواحى الملكية والارستقراطية والشعبية أو الديمقراطية. وعلى الرغم من عدم استقرار هذا التنظيم فقد كان الدستور القرطاجى يوضع فى صف الدساتير اليونانية والرومانية ، فهو الدستور الأجنبى الوحيد الذى اتجه أرسطو إلى إعتباره فى دراساته الدستورية .

ومن الأهمية بمكان الاشارة إلى تركيز هذه السلطات فى أيدى المواطنين القرطاجيين رغم تواجد العناصر البربرية التى تداخلت لحد كبير مع العناصر الفينيقية الأصل وأصبحت دعامة هامة فى مقومات الدولة القرطاجية ، وبصفة خاصة فى المرحلة الأولى من العصر القرطاجى حيث ساد السلام والانصال الحضارى والاقتصادى بين الفينيقيين والبربر . ولكن ركز القرطاجيون سيادتهم السياسية على مواطنيهم الفينيقى الأصل كنوع من من الاطمئنان على مستقبل دولتهم السياسى . وتلاحظ أيضا لحد كبير ظاهرة الجمع بين الوظائف المدنية والوظائف العسكرية .

واستكمالا لهذا التنظيم السياسى إتجهت الدولة القرطاجية إلى تدعيم كيانها العسكرى بانشاء قوة حربية برية وبحرية تؤدى وظيفة الدفاع عن الدولة. وفيما يتعلق بالقوى البرية فقد تكون الجيش القرطاجى فى جملته من الجنود المرتزقة ، ويعتبر ذلك من الجوانب الخطرة فى تنظيمهم العسكرى لأن الجنود المرتزقة لايشعرون بالإخلاص نحو الدولة التى يعملون بالأجر وبصورة مؤقتة فيها ، كما أن عدم حملهم لصفة المواطن لاتدفعهم إلى التفانى فى أداء مهمتهم . وقد حاول القرطاجيون علاج هذة المسألة بوضع هؤلاء الجنود المرتزقة تحت القيادة القرطاجية مع الاستعانة ببعض القادة اليونانيين الذين لهم تجربتهم الحربية ، ومن ناحية أخرى تسليح فيالق الجيش على الطريقه اليونانية وتزويدهم بالخوذات والدروع البرونزية والفضية أحيانا ، وكذلك بمختلف أنواع الأسلحة مثل الرماح والسيوف والمنجنيق الذى يؤدى وظيفة المدفعية بقذف القذائف الثقيلة على العدو . وكذلك تسلح الجيش القرطاجى بالفروسية التى اعتمدوا فيها على المهارة الفائقة التى تميزت

بها العناصر البربرية فى ركوب الخيل . هذا بالإضافة إلى استخدام الفيلة التى كانت تثير الرعب فى نفوس الأعداء مما يكون له أثره فى تحقيق الإنتصار، كما استخدم القرطاجيون أيضا المركبات المصفحة التى سبق للآشوريين وكذلك العناصر الهندية الأوروبية إستخدامها فى الألفين الثانى والأول ق. م. فى الشرق الأدنى القديم والتى تأثر بها الفينيقيون وأدخلوها فى قوتهم القرطاجية. ويلاحظ الدارس أن ظاهرة إستخدام القادة اليونانيين فى الجيش القرطاجى فى بعض الأحيان كانت ذات خطر بالغ على الأمن القرطاجى لاحتمالية تواجد عنصر الخيانة بسبب رغبة اليونانيين الملحة فى السيادة الاقتصادية والسياسية على القرطاجيين بكافة الوسائل. ولقد حدث ذلك فعلا على سبيل المثال فى مرحلة خطيرة فى تاريخ المغرب فى العصر القرطاجى وذلك أثناء مرحلة الصراع الشديد بين القوتين القرطاجية واليونانية فى جزيرة صقلية، وذلك عندما اتجه اجاثوكليس إلى تهديد قرطاج فى عقر دارها باستغلال أحد الضباط اليونانيين وهو إفللاس الذى كان يعمل فى الجيش البطلمى فى مصر وتشجيعه للعمل معه ضد الدولة القرطاجية مع تمنيته بالملكية على تلك الدولة فى حالة الانتصار عليها. وهناك عدة أمثلة أخرى تؤكد إحتمالية عدم ولاء المرتزقة للدولة القرطاجية ، ومع ذلك فقد كان للجيش القرطاجى قوته الحربية الهامة .

ولم تقتصر القوة القرطاجية على الجيش بل لقد كان الأسطول القرطاجى عنصرا رئيسيا فى قوتهم العسكرية. ولاشك أن خبرتهم الطويلة بفنون الملاحة التجارية الحربية البحرية ودرايتهم العملية ببناء السفن وتجهيزها قد اتاحت لهم السيادة البحرية لحد كبير . ويلاحظ أن حجم السفن القرطاجية كان أقل من حجم السفن اليونانية والرومانية مما يميزها بسرعة الحركة والقدرة

على التكتيك الحربى السريع أثناء المعارك البحرية . كل ذلك قد دعم التنظيم السياسى القرطاجي وساعد على تثبيت هذه الدولة فى المغرب وحوض البحر الأبيض المتوسط كقوة سامية تواجه القوى اليونانية والرومانية المعاصرة فى تلك المنطقة. وقد دخلت الدولة القرطاجية فى صراع مرير مع تلك القوى اليونانية فى هذه المرحلة الأولى من العصر القرطاجى، ويستمر هذا الصراع فى المرحلة الثانية من العصر القرطاجي مع القوة الرومانية .

الصراع القرطاجى اليونانى الصقلى :

تمثل تلك المرحلة قمـــة التنافس الاقتصادى والسياسى بين الفينيقيين واليونانيين. فمن أهم مظاهر الحياة السياسية فى العصر القرطاجى ذلك الصراع السياسى والحربى بين الجانب القرطاجى من ناحية والجانب اليونانى والصقلى من ناحية أخرى أثناء القرنين الخامس والرابع قبل الميلاد . ويتضمن هذا الصراع عدة ظواهر، فبالإضافة إلى كونه يمثل مرحلة شاقة فى طريق الوصول إلى السيادة السياسيـــة فى وسط وغربى حوض البحر الأبيض المتوسط فى ذلك الوقت فهو يشتمل على ظواهر النزاع بين حكومات المدن فى جزيرة صقلية والمنافسة الشديدة بين الحكام للاستحواذ على الزعامة السياسية، وكذلك الإحتكاك بين الأنظمة الديمقراطية والاوليجركية . وبذلك يتبين أن تاريخ المغرب القديم فى هـذه المرحلة من العصر القرطاجى قد خرج من الإطـار الأفريقى والفينيقى البحت إلى الإطار الدولى المحيط بالمنطقة . وعلى الرغم من شدة جوانب هذا الصراع الذى تجلى فى عدد كبير من العمليـات الحربية البحرية والبرية فقد إنتهى بانتصار القرطاجيين وتأكيد سيادتهم فى المنطقة . أما عن مراحل هذا الصراع المرير فيمكن تتبعها فيما يلى : —

الحلقة الأولى ، الصراع القرطاجي ضد جلون : —

تبدأ تلك المرحـــلة كنتيجة مباشرة لظهور بعض الشخصيات الصقلية الطموحة إلى فرض سيادتها فى المنطقة وعدم السماح للقوى الأخرى بالتدخل فى شئونها . ومن أهم هذه الشخصيات فى بداية القرن الخامس قبل الميـلاد هيبوكراتيس Hippocrates فى مدينة جلا أو غيلية Gela ، أنظر شكل رقم (٨٥) وخريطة رقم (٦) ، وكذا شخصية جلون Gelon . وقد بدأت هذه الشخصيات فى تعضيد موقفها بالاستعدادات العسكرية البرية والبحرية من ناحية وكذلك التحالف مع بعض المدن الأخرى الصقلية، ثم القيام بالعمليات الحربية المؤدية إلى فرض سيادتها. ولقد لعبت مدينة سيراكيوز أو سرقوسة فى شرقى جزيرة صقلية دورا فعالا فى تزعم الجانب اليونانى فيها وأصبحت منذ ذلك الوقت قاعدة للكيان اليونانى. وقد نجح جلون فى تقديم المساعدات الحربية لمدينة سيراكيوز مما يدعم موقفها ضد بعض المدن الأخرى فى الجزيرة والتى كانت تميل إلى الجانب القرطاجي فى ذلك الوقت مثل سلينوس Selinus وهميرا أو هيارا أو حمير Hamira . وبدأت الاحتكاكات بين الجـــانبين فاصطدمت مدينة اكراجاس مع مدينة هميرا وتمكن حاكم الأولى وهو ثرون من الانتصار على تريلوس حاكم مدينة هميرا[١]، وقد طلب هذا الأخير معاونة الدولة القرطاجية له فى موقفه الشائك بعد هزيمته أمام نيرون. ويلاحظ الدارس تكرر هذه الحوادث المستمرة بين المدن الصقلية، وطلب كل منهـا المعونة إما من الدولة القرطاجية أو المدن اليونانية وأدى ذلك إلى الصدام المباشر وغير المباشر بين هذه القوى المختلفة . ومما يلفت النظر ويؤكد وجود

---

(١) Warmington, B. H., Op.cit., 45.

شكل رقم (٨٥) ، خريطة رقم (٦)
خريطة تمثل المواقع الرئيسية فى جزيرة صقلية

نوع من الارتباط بين الأوضاع السياسية فى شرقى البحر الأبيض المتوسط وغربيه أن حقيقة اعتبار اليونانيين كعدو مشترك لكل من الفرس والقرطاجيين ليؤكد لحد كبير إمكانية إتصال القرطاجيين بالفرس، والاستفادة من ذلك فى ايقاع الهزيمة باليونانيين فى شرق البحر الأبيض المتوسط وغربيه. ولذلك فمعاصرة الأحداث لبعضها ليست مجرد مصادفة(١)، فقد عاصر انتصار جلون انتصار الأسطول الآثينى على الفرس فى سلاميس. والواقع أن الدولة القرطاجية لم تعد منعزلة فى الإطار المغربى بل لقد أصبحت لها صفتها كدولة هامة من دول منطقة البحر الأبيض المتوسط . ولقد اتسع نفـــوذ الدولة القرطاجية فى ذلك الوقت من خليج سدرة فى ليبيا حتى منطقة جزيرة الصويرة على المحيط الأطلسى فى غربى المغرب الأقصى. وقد تدخلت الدولة القرطاجية عسكريا فى صقلية بعـد أن نظمت جيشا كبيرا تقول المصـادر اليونانية أنه كان مكونا من حوالى ٣٠٠،٠٠٠ جندى(٢) من الجنود المرتزقة ومائتى سفينة بقيادة هملكار أو كما يسمى عملقارت Hamilcar . ويصعب التيقن من صحة المصادر اليونانية المتعلقة بالقوة القرطاجية لما تتضمنه من عنصر المبالغة المتعمدة للأغراض السياسية. أما القوة اليونانية الصقلية بقيادة جلون فقد كانت مكونة من ٢٤،٠٠٠ جندى، ٢،٠٠٠ من الفرسان(٣) . وتقابلت القوتان القرطاجية واليونانية الصقلية قرب هميرا ونجح جلون فى إستخدام عدد من المناورات الحربية التى أدت إلى إيقاع الهزيمة بالقرطاجيين . ومن

---

(١) Ch-Andre' Julien, Histoire de L'Afrique du Nord, paris, 1961, 66.

(٢) Warmington, B. H., Ibid., 46.

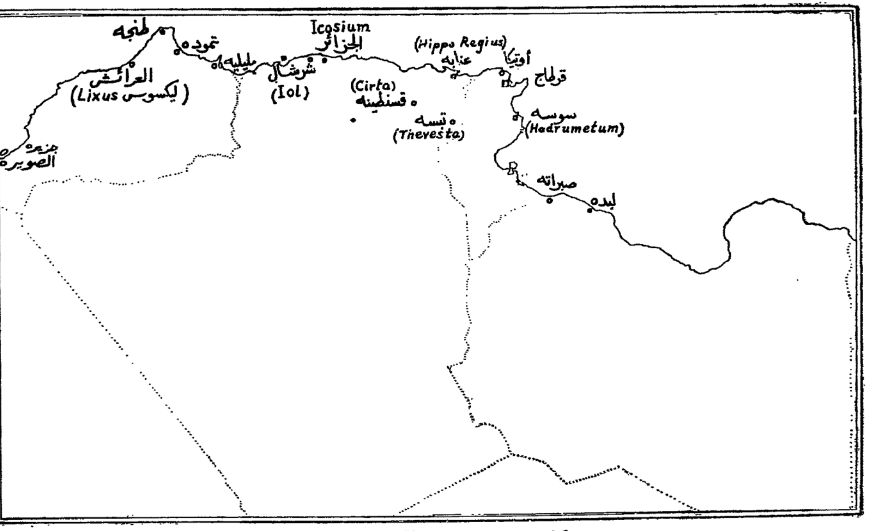
(٣) Ibid., 47.

أهم الظواهر فى تلك الهزيمة نجاح اليونانيين فى إحراق سفن الأسطول القرطاجى . وكان لذلك أثر كبير فى الحاق ضرر بالغ بالقرطاجيين لما للأسطول من أهمية أساسية فى حياتهم وأمنهم ولما يتطلبه بناء أسطول جديد من جهود متواصلة وإمكانيات كثيرة . واضطر القرطاجيون إلى طلب الهدنة ودفع ثمن بالغ لتلك الهزيمة .

ولم تقتصر آثار تلك الهزيمة على الخسائر الحربية والاقتصادية والنفسية، بل لقد أدت إلى تعديل مؤقت فى السياسة القرطاجية الخارجية، فقد اضطرت قرطاج إلى الانسحاب مؤقتا من ميدان نشاطها فى حوض البحر الأبيض المتوسط واتجهت إلى تركيز نشاطها فى الاطار الافريقى المغربى ، فدعمت علاقاتها مع البربر ، ويظهر ذلك واضحا من الناحية الفكرية فى ازدياد إيمان القرطاجيين بالإلهة البربرية الأصل تانيت Tanit إلهة الخصوبة والإنتاج . كما دعم القرطاجيون مراكزهم التجارية على طول الساحل الافريقى المغربى، وعلى سبيل المثال عثر فى ليبيا على الآثار القرطاجية المنتمية لهذه المرحلة فى كل من لبدة وصبراته ، وامتدت بعد ذلك فى تونس فى دار الصافى وسوسه Hadremetum وهكذا بحذاء الساحل المغربى حتى جزيرة الصويرة بصورة مؤكدة ، وحتى نهر النيجر من الداخل ومنطقة ساحل الكنغو فى أبعد مدى ، أنظر شكل رقم(٨٦) ، خريطة رقم (٧). وقد قام القرطاجيون فى هذه المرحلة بالرحلات(١) الاستكشافية والتجارية البحرية والبرية توسيعا لصلاتهم الافريقية .

---

(١) يتعرض الدارس لهذه الرحلات فى الفصل التالى .



شكل رقم (٨٦) ، خريطة رقم (٧) .

بعض المواقع الفينيقية والقرطاجية فى المغرب

ولكن هذه السياسة القرطاجية الجديدة رغم كونها قد أدت إلى إستعادة القرطاجيين لكيانهم الاقتصادى الذى كان قد بدأ فى التدهور على إثر هزيمتهم العنيفة السابقة، فانه لم يمنع من ناحية أخرى عودة الدولة القرطاجية إلى مجالها فى حوض البحر الأبيض المتوسط مرة أخرى كما يظهر ذلك فى المراحل التالية . ولم تكن تلك العودة طواعية بل اضطرارا على إثر معاودة التهديد اليونانى الصقلى للقرطاجيين ومراكزهم فى صقلية .

الحلقة الثانية ، الصراع القرطاجى ضد ديونيسيوس حاكم سيراكوز وما قبله مباشرة :

سبقت هذه المرحلة بعض الأحداث السياسية والحربية الهامة، فقد انتقلت حلقات الخلاف الشديد بين كل من أثينا وأسبرطة فى بلاد اليونان أثناء الحروب البلوبونيزية إلى جزيرة صقلية ، فبينما كانت مدينة سيراكيوز تميل إلى السياسة الاسبرطية كانت بعض المدن الأخرى مثل سجستا وليونتينى تميل إلى أثينا، وبذلك انتقلت جبهة الصراع الآثينى ــ الاسبرطى إلى صقلية، ووقفت قرطاج موقف المترقب لهذا الصراع اليونانى الداخلى ، وأيضا موقف المشجع له لما فيه من إضعاف للقوى اليونانية الصقلية بوجه عام. وقد حاولت أثينا إثارة اسبرطة بتقديمها يد المساعدة الحربية إلى بعض المدن الصقلية الموالية لها ضد سيراكيوز ، ولم تكتف أثينا بذلك بل لقد حاولت أيضا اجتذاب الدولة القرطاجية إلى صفها ولكن ذلك لم يواجه باستجابة مباشرة لأن الصالح القرطاجى كان يقتضى عدم التدخل فى ذلك الوقت وترك القوى اليونانية تتصارع فيما بينها .

وقد بدأت هذه الاشكالات عندما اشتد الخلاف على الحدود بين مدينتى سلينوس وسجستا ، وعلى الرغم من حسم النزاع بصفة أولية فى مؤتمر

جلا بجزيرة صقلية ٤٢٤ ق. م.(١) فقد عاد الخلاف بينهما مرة ثانية ثم مرة ثالثة ، وفى المرة الأخيرة طلبت سجستا المعاونة من قرطاج بل والانضمام إلى نطاق السيادة القرطاجية وذلك فى سنة ٤١٠ ق.م.(٢)، وقد تحقق هذا فعلا. ومما يؤكد ذلك من الناحية الأثرية انقطاع العملة السجستية منذ ذلك الوقت مما يدعم فقدانها استقلالها الذاتى وانضمامها للقرطاجيين. ومن ناحية أخرى اتجهت مدينة سلينوس إلى طلب المعـــاونة من مدينة سجستا ومهدت لذلك بارسال بعثتين (٣) دبلوماسيتين إلى كل من سلينوس وسيراكيوز كمحاولة لإنهاء الأزمة بالطرق السلمية وأيضا الحصول على الوقت الكافى للاستعدادات الحربية فى حالة الاضطرار إليها . وعندما أتمت الدولة القرطـاجية تكوين جيش كبير من الجنود المرتزقة بدأت حملتها الحربية لمساعدة سجستا وأعطت زمام قيادة تلك الحملة إلى هانيبـال بن جزجو أو حنبعل بن جيسـكن Hannibal بن Gisgo حفيد هملكار أو عملقارت الذى سبق أن مات فى معركة هميرا . ولم يكن اختيار هذا القائد اعتباطا بل كان مقصودا لما فى نفسه من رغبة ملحة فى أخذ الثأر والانتقام (٤) وكذلك تحقيق سيادة القرطاجيين فى صقلية. وتمكن هانيبال بن جزجو من تحقيق الانتصار رغم تدخل سيراكيوز وتقديمها المساعدة الحربية لمدينة سلينوس . وقد أنتقم القرطاجيون لهزيمتهم السابقة أشد إنتقام وقاموا بقتل آلاف من جنود العدو وأسر عدد كبير آخر. وتابع هانيبال بن جزجو عملياته الحربية بالتوجه إلى هميرا هادفا إعادة

---

(١) Ibid., 74.

(٢) Ibid., 75.

(٣) Ibid., 76.

(٤) Ibid., 75.

السيادة القرطاجية وأخذ الثأر لجـــده . ولم تقتصر معركة همـيرا الأخيرة على النـــاحية البرية بل لقد إستخدمت فيها القوة البحرية ، ومن ناحيـة أخرى قدمت مدينـة سيراكيوز مساعدتها الحربية لمدينة همـيرا كمحاولة لايقاف التقدم القرطاجى فى صقلية . ولـكن تمكن هانيبـال بن جزجو من إستخدام حيلة[١] حربية ماكرة بأن تظاهر بترك هميرا والتوجه مباشرة إلى مدينـة سيراكيوز ممـــا أثار الفزع فى نفوس السيراكيوزيين وأضطرهم إلى التراجع فورا للدفاع عن مدينتهم . وأضطر ديوكليس القائد السيراكيوزى العودة لإنقاذ مدينته . ولكن هانيبال بن جزجو سرعان ماعاد إلى هميرا عازما القضاء عليها ونجح فى هذا الصدد إلى أبعد مدى بل لقد وصل تشفيه إلى درجة جمعه عدداً كبيراً من الأسرى وتقـديمهم كتضحية بشرية لروح جده[٢] ، وبعد ذلك رجع هانيبال بن جزجو إلى العاصمة القرطاجية معلنا انتصاراته الكبرى . وكان المتبع بعد النجاح فى العمليات الحربية القيام بتسريح الجنود المرتزقة تخفيفا للاعباء الماليـة والاقتصادية وتم ذلك على إثر إنتهاء هذه الحملة الأخيرة . ولقد كان فى إستطاعة هانيبال بن جزجو متابعة سيره إلى مدينة سيراكيوز ولكنه قرر الاكتفاء بما وصل إليه من انتصارات[٣] ، وهذا يؤكد من ناحية أخرى أنه لم تكن السياسية القرطاجية تهدف فى صميمها إلى التحكم الكلى فى صقلية بل تحقيق السيادة القرطاجية فى جزئهـا الغربى ضمانا لتأمين تجارتها ومواصلاتها البحرية فى غربى البحر الأبيض المتوسط.

---

(١) Ibid., 78

(٢) Ibid., 78

(٣) « «

ولم يتوقف هذا الصدام القرطاجى اليونانى الصقلى عند هذا الحد بعد ذلك بل لقد عاد بدرجة أشد فى الحلقات التالية . وكذلك استمرت ظاهرة الاتصال السياسى بين هذا الصراع فى جانب وبين ما يجرى فى شرقى البحر الأبيض المتوسط من صراع آخر بين الفرس والآثينيين فى جانب آخر ، وكذلك ما بين الآثينيين والاسبرطيين فى جانب ثالث . ويلاحظ الدارس أن المدن الصقلية لم تتردد مرة أخرى فى الاستعانة بالمدن اليونانية الأم سواء كانت أثينا أو أسبرطة. وقد انتهز أحد الساسة القدامى وهو هرموكراتيس Hermocrates فرصة غضب المواطنين السيراكيوزيين على إثر هزيمتهم أمام القرطاجيين وبدأ يعمل بكافة الوسائل لتبوء مكان الصدارة فى سيراكيوز[١]. واستغل فى هذا الصدد حقيقة العداء الفارسى للأثينيين وتمكن من الحصول من الفرس[٢]، على المال اللازم لتجهيز أسطول يدعم به قوة سيراكيوز. ولقد كان توقيت هرموكراتيس لهذه الحركة السياسية مواتيا، فقد رحبت سيراكيوز به كزعيم جديد يقودها إلى الإنتصار. ولم يكتف هرموكراتيس بطلب المساعدة من الفرس بل لقد لجأ أيضا إلى اسبرطة وغيرها طالبا معاونتها الحربية . وأتبعت الدولة القرطاجية نفس الأسلوب السياسى بأن لجأت إلى أثينا طالبة صداقتها ومعاضدتها لها ضد سيراكيور ، وذلك بالاضافة إلى قيامها بالاستعدادات الحربية البرية والبحرية الضخمة للقيام بالعمليات الحربية المنتظرة فى صقلية بقيادة هانيبال بن جزجو ومعه هيملكو أو خيملكين Himilco . وقد حدث الصدام الحربى بين القوتين القرطاجية

---

(١) Ibid., 79

(٢) « »

واليونانية الصقلية فى مدينة أكراجاس ، ورغم انتصار القرطاجيين فى هذه المعركة سنة ٤٠٦ ق. م ، إلا أن تفشى الحمى بين الجنود المرتزقةالخاضعين للقيادة القرطاجية قد أدى إلى عرقلة هذا الإنتصار . والواقع أن ظواهر الاهمال وعدم إتباع الوسائل الصحية وإنعدام التكامل الطبيعى بين الجنود المرتزقة كان من العوائق الرئيسية التى تحول دون التاكد من نتائج المعارك .

وكان لظهور شخصية شعبية قوية جديدة فى المجتمع السيراكيوزى أثر بالغ فى تجديد عمليات الصراع العنيف بين القرطاجيين واليونانيين الصقليين ، تلك كانت شخصية ديونيسيوس Dionysius الذى تميز بقدرته على الاستحواذ على ثقة الشعب السيراكيوزى والوصول إلى مركز الزعامة والقيادة فى سيراكيوز . وقد اتبع ديونيسيوس فى أول الامر فى سياسته كل ما يكفل تدعيم مركزه الداخلى فى سيراكيوز حتى ولو كان ذلك على حساب السيادة السيراكيوزية فى صقلية ، وعندما اطمأن إلى ذلك بدأ فى العمل على تحقيق الانتصارات الحربية لسيراكيوز . وتدل على ذلك المعاهدة التى عقدها مع القرطاجيين ، والتى أضطر الاخيرون إلى عقدها بعد تفشى الحمى بين جنودهم المرتزقة من ناحية وانتهاء الحرب البلوبونيزية وانتصار أسبرطة التى تصادق سيراكيوز من ناحية أخرى ، والتى تتميز بالسماح للدولة القرطاجية بفرض سيادتها على غربى صقلية وذلك نظير الاعتراف بديونيسيوس زعيما على سيراكيوز[1] . ولم يكتف ديونيسيوس بهذه النتائج بل سرعان ما بدأ استعداداته الحربية والبرية والبحرية ووصل فى هذا الصدد إلى أبعد مدى باختراعه آلات

---

(1) Ibid., 87.

حربية جديدة مثل المنجنيق لقذف الاحجار على العدو والذى يؤدى دور المدفعية فى الأزمنة الحديثة ، وكذلك ضاعف أعداد الجذفين فى الأسطول السيراكيوزى تعضيدا للبحرية السيراكيوزية وتقوية لسرعة تحركاتها فى المعارك . وأيضا استخدم الحرب النفسية بشن حملة دعاية شديدة ضد القرطاجيين الذين وصفهم بأنهم أعداء اليونانيين والصقليين[1] . وقد التزم الجانبان السيراكيوزى والقرطاجى الحذر فى الهجوم على الآخر ولكن سرعان ما أصبح الطرفان وجها لوجه فى معركة موتيا motya سنة ٣٩٨ ق. م. وقد نجح ديونيسيوس فى الانتصار فى هذه المعركة على القرطاجيين ولكن الأخيرين لم يتقبلوا تلك الهزيمة بسهوله واتجه القائد القرطاجى هيملكو أو خيملكن إلى تغيير جبهة القتال والانتقال إلى مسانا messana، ودعم هذه الخطة الحربية بالتأييد البحرى بقيادة ماجو أو ماقو Mago. ونجح هذا التكتيك القرطاجى وانتصر القرطاجيون فى المعركة البحرية وخسر الأسطول السيراكيوزى خسارة بالغة قدرت بحوالى مائة سفينة وعشرين ألف رجل[2] مما اضطر ديونيسيوس إلى التراجع فورا إلى سيراكيوز . ولكن تكرر انتشار وباء الطاعون بين الجنود المرتزقة التابعين للجيش القرطاجى قد ساعد على انقاذ ديونيسيوس ومدينة سيراكيوز من هزيمة محققة ، فلقد أدت هذه الأزمات الصحية فاعليتها بين الجنود المرتزقة الذين أصبحوا غير قادرين على القيام بواجباتهم العسكرية. وانتهز ديونيسيوس هذه الفرصة المواتية وهاجم الجيش القرطاجى المنهار وتمكن من الانتصار . ولم يستطع القائد القرطاجى مواجهة الهزيمة فتخلص من حياته وتولى القائد ماجو القيادة القرطاجية .وحاول هذا الأخير استرداد

(١) Ibid., 94.
(٢) » 95.

سيادة القرطاجيين فى سنة ٣٩٩ ق م.[١]، ولكن دون جدوى واضطر إلى عقد اتفاقية سلام جديدة مع ديونيسيوس. ولم يسترح ماجو لهذا السلام المؤقت بل كان يتلهف إلى تحقيق الانتصار على ديونيسيوس ولذلك اتجه بقوة حربية جديدة إلى صقلية سنة ٣٨٢ ق.م[٢]. وحتى فى هذه المرة تمكن ديونيسيوس من الانتصار على القرطاجيين فقد تدرب طويلا على تلك الحروب وتفهم الخطط الحربية لأعدائه. وبلغت الهزيمة بالقرطاجيين إلى أن قائدهم ماجو قد فقد حياته فى المعركة. وأرغم القرطاجيون على الاتجاه نحو عقد معاهدة بها إذلال لسيادتهم فى صقليـة، تتضمن التنازل عن المواقع القرطاجية فى صقلية بل ودفع تكاليف ترميمها[٣]. ولكن عندما تغير ميزان القوى وتولى القائد هيملكو بن القائد السابق ماجو زمام القيادة القرطاجية وكان يتميز بالطموح والقـدرة والشباب تمكن من إبدال الهزيمة السابقة إلى انتصار جديد عند التحامه مع القوة السيراكيوزية بقيادة ديونيسيوس فى هميرا مما اضطر هذا الأخير إلى التنازل عن بعض مكاسبه السابقة لصالح القرطاجيين. ولم تكن هذه المعركة هى الأخيرة مع السيراكيوزيين فى عهـد ديونيسيوس بل لقـد عاد الاشتباك مرة أخرى سنة ٣٦٧ ق. م. وانتهى فى تلك المرحلة باتفاقية هدنة مع ابن ديونيسيوس واسمه أيضا ديونيسيوس.

هذا موجز لتلك الحلقة الثانية من مراحل الصراع القرطاجي اليونانى الصقلى، وتتتابع المراحل بعـد ذلك فى عهد كل من تيموليون Timoleon

---

(١) Ibid., 94.

(٢) Ibid., 95.

(٣) » »

وأجاثوكليس Agathocles . ومن الظواهر الهامة فى التاريخ المغربى فى أثناء هذه المرحلة الثانية بالذات حدوث أزمة خطيرة داخلية فى الدولة القرطاجية وهى الأزمة البربرية . فلقد كان البربر حتى ذلك الوقت يتعاونون مع العناصر الفينيقية فى كافة المجالات المدنيـة والعسكرية داخل الاطار القرطاجى . ولكن بدأت تلك العناصر البربرية فى التعبير عن تذمرها على إثر سوء الحالة الصحية بين البربر كنتيجة تفشى حمى الطـاعون فى الحروب الصقلية وتخلى القرطاجيين عنهم فى بعض هذه الأزمات الصحية الحرجـــة ، مما أساء إلى مشاعرهم . وقد تطور هذا الشعور بالتذمر إلى القيـام بثورة بربرية داخل الدولة القرطاجيـة ، ولكن هذه الثورة لم تؤد إلى نتيجتها المرجوة بسبب عدم استطاعة البربر الوقوف أمام الفينيقيين الذين اكتسبوا خبرة طويلة فى عمليات الدفاع عن كيانهم فى ذلك الوقت . ولكن بعد ذلك عادت العلاقات الفينيقية البربرية إلى حالتها السلمية وزالت هذه الأزمة الطارئة . وعندما وصل البربر إلى تكوين دولهم المستقلة عن الدولة القرطاجية بعد ذلك تمكنوا من الوقوف على قدم المساواة مع القرطاجيين، وكانت التجارب الطويلة قد دربتهم على الانتقال بحياتهم من المستوى القبلى إلى صميم الحياة التاريخية . ومن ناحية أخرى حاول القرطاجيون تلافى هـذه الأزمات الصحية التى لحقت بجنودهم المرتزقة . وكانوا يعتقدون أن سبب هذه الأزمات هو غضب القوى الالهية الصقلية عليهم مثل الاله دمتر Demeter وإبنته الالهة كور Kore [١]، وحاولوا إسترضاء هذه الآلهة بكافة الوسائل مثل تقديم القرابين والتضحيات البشرية وخاصة الأطفال إليهم ، وكذلك بناء معابد فى العاصمة القرطاجية

---

(١) Ibid., 94.

تكريما لهم . ولكن هذه الوسائل لم تكن ذات مفعول واقعى فى حل هذه الازمات الصحية . فلقد كان الجنود المرتزقة يعسكرون دائما فى الأودية والسهول المتاخمة للأنهار والروافد والتي يتجمع عندها أيضا البعوض نتيجة عدم اتباع الوسائل الصحية فى حياتهم فى هذه المناطق المنخفضة .

وتنبغى الاشارة أيضا إلى أنه على الرغم من سوء العلاقات القرطاجية اليونانية من ناحية ، وكذلك العلاقات القرطاجية البربرية من ناحية أخرى فى المجال السياسى فقد استمرت الصلات الحضارية بين هذه العناصر باستثناء بعض مراحل الفتور فيها على إثر اشتداد النزاع السياسى. وقد حدث ذلك مثلا عندما تزعزعت الثقة الوطنية فى بعض المواطنين القرطاجيين على أساس احتمال اتصالهم بالسيراكيوزيين ممـــا أدى إلى اتخاذ الحكومة القرطاجية قرار ايقاف تعلم اللغـة اليونانية ولكن ذلك لم يكن مجديا لأن التعامل فى المجالات الاقتصادية والحضارية ظل مستمرا بين الطرفين .

الحلقة الثالثة ، الصراع القرطاجى ضد تيموليون :

كان من أهم أصداء هذه المعارك المستمرة تفاقم الخلافات الداخلية فى كل من الدولة القرطاجية وصقلية ، مثل ذلك الخلاف بين ديونيسيوس الصغير وبين ديون Dion صهر ديونيسيوس الكبير والذى انتهى بانتصار الأخير لفترة معينة . ثم بدأ مرة أخرى التطلع إلى انقاذ الموقف من الخارج عندما قامت كورنثا بارسال معونة محدودة بقيادة تيموليون Timoleon. وقـد واجهت الدولة القرطاجية هذا القائد اليونانى الجديد بأسطولها الذى حاول منعه من دخول صقلية . ولكن تيموليون على الرغم من القوة البحرية القرطاجية فقد تمكن من الافلات منها وأيضا الانتصار على القوة البرية القرطاجية والصقلية المعارضة له ودخول سيراكيوز .

ولم تقف قرطاج موقف المستسلم لتيموليون بل أرسلت قوة قرطاجية حربية مثالية سنة ٣٤١ ق.م.[١] بقيادة هزدروبال أو كما يسمى صدر بعل أو ستر بعل ، ومعه هملكار أو كما يسمى عملقارت أو عبد ملقسارت . وتدارك تيموليون الموقف واستخدم أسلوب المباغتة فى التحركات الحربية وتمكن من ايقاع الهزيمة بالقرطاجيين ، وقتل هزدروبال وتلاه فى القيادة جزجو بن هانو العظيم الذى عقد اتفاقية سلام مع تيموليون ، وقد اضطر الأخير إلى ترك العمل السياسى بعد فقده بصره سنة ٣٣٨ ق.م[٢].

ومرة أخرى يتبدل الموقف وترتبط المسائل السياسية فى غربى البحر الأبيض المتوسط بشرقيه بسبب ظهور شخصية عالمية هى شخصية الاسكندر المقدونى الذى نجح فى تكوين امبراطوريته الهائلة . ونتج عن ظهور هذه القوة الجديدة تغيير كلى فى ميزان القوى السياسية والحضارية . وكان من الصعب الوقوف أمام الاسكندر الأكبر بمبادئه العالمية ، ولكن الدولة القرطاجية كانت تأمل فى مساعدة مدينة صور فى محاولة الصمود ضد الاسكندر . ولكن من ناحية أخرى كان من المحتمل امتداد سير الاسكندر غربى واحة سيوه إلى قرطاج ولكن ذلك لم يتحقق لاتجاهه نحو الشرقين الأدنى والأقصى .

وخلف تيموليون فى حكم مدينة سيراكيوز رجلا قويا عمل على إعادة السيادة السيراكيوزية وهو أجاثوكليس Agathocles وواجهت قرطاج هذا الخطر الجديد سنة ٣١١ وسنة ٣١٠ ق.م. مما اضطرها إلى ارسال حملة

---

(١) Ibid., 104.

(١) Ibid., 108.

كبيرة بقيادة هملكار بن جزجو الذى تمكن من احراز النصر على السيراكيوزيين.
ولم يكن أجاثوكليس من الشخصيات التى تستسلم للهزيمة بسهولة بل سرعان
ما ابتدع خطة حربية خطيرة ، وهى تغيير مكان المعركة بفتح جبهة حربيـة
جديدة فى صميم الأراضى المغربية وكان ذلك فى صيف سنة ٣١٠ق.م. ومما
يؤكد تصميم أجاثوكليس على تحقيق خطته تلك ، تعمده احراق السفن
السيراكيوزية بعد انزال جنوده على الشاطىء المغربى فى منطقة سيدى داود
غربى رأس عنابه . ولقد كان لهـــذه الخطوة الحربية الجريئة أثر كبير فى
العاصمة القرطاجية ، فقد ساءت نفسية القرطاجيين إلى أبعد درجة ووصل
بهم الذعر إلى الإلتجاء إلى آلهتهم والتقرب إليها بالقرابين والتضحيات البشرية
من أبناء النبلاء . ومن ناحية أخــــرى ضاعف القرطاجيون استعدادهم
العسكرى لحماية الدولة من هذا الضغط المباشر ، فتألف جيش قرطاجى من
٤٠,٠٠٠ من الجنود المشاة وعدد كبير من الفرسان والمركبات الحربية بقيادة
هانو وبوملكار . وحدثت أولى المعارك المنتظرة وتمكن فيها أجاثوكليس
من الانتصار على الرغم من بعده عن مراكزه الأصلية فى صقلية، وتحرج
موقفه بحكم عدم توفر أسطول تحت تصرف قواته . واضطر بوملكار إلى
التراجع ، وكذلك هملكار فى صقلية لم يتمكن من ضرب اليونانين والصقليين
ضربة قاضية فى سيراكيوز ، بل لقـد وصل الكيد بالسيراكيوزيين إلى
إرسال رأس هملكار إلى أجاثوكليس بالمغرب كتأكيد عينى لانتصارهم.
وقد اتبع أجاثوكليس خطة السرعة فى تحركاته الحربية كسبا للوقت وتنفيذا

---

(١) Ibid., 109.

لخطته ، وكان يهدف إلى حصار مدينة قرطاج العاصمة من جميع الجهات ماعدا الجانب البحرى، ولذلك تقدم بقواته إلى سوسه ثم إلى أوتيكا وبنزرت. وكذلك حاول تدعيم قواته بقوى أخرى خارجية فاتفق مع افللاس [1] وهو الذى كان أصلا يعمل كأحد حراس الاسكندر المقدونى ، وتحقق ذلك فعلا واتجه افللاس بقوته من برقة إلى حيث كانت قوات أجاثوكليس حول قرطاج . ولكن افللاس الذى كان يعتز بيونانيته لم يستطع التعاون مع أجاثوكليس اليونانى الصقلى ولذلك دبر هذا الأخير خطة للتخلص منه وتم ذلك فعلا ، وضم قواته إليه .

ولم تكن هذه العمليات الحربية فى قرطاج هى الوحيدة أمام أجاثوكليس بل كان من الضرورى عليه المحافظة على كيان سيراكيوز ولذلك عزم على السفر إليها تاركا إبنه أركاجثوس Archagethus كمسئول عن جبهة المغرب. وانتهزت الدولة القرطاجية هذه الفرصة المواتية وقامت بتجهيز ثلاثة جيوش للعمل فى محيطها لتأمين الدولة من الحصار المضروب عليها وكذلك طمأنة العناصر البربرية تلافيا لاحتمالية تمردها. وقد نجحت هذه الجيوش القرطاجية فى تحقيق أغراضها واضطر أجاثوكليس إلى العودة مباشرة إلى المغرب لمواجهة هذه التطورات الجديدة ولكن ذلك لم يؤد إلى أية نتيجة لأن القرطاجيين كانوا قد أتموا التخلص من الحصار وأنقذوا دولتهم من ذلك الخطر الداهم . وانتهى هذا الاشكال بعقد اتفاقية هدنة وسلام مع أجاثوكليس ، ولم تنتهز الدولة القرطاجية تحرج موقف أجاثوكليس ،

---

(١) Ibid., 110.

وتابعته في جزيرة صقلية وفي سـيراكيوز [١] بالذات بل اكتفت بهذا القدر من الانتصار .

ولكن عمليات الصراع الشديدة السالفة الذكر سرعان ما تعاود كرتها مرة أخرى مع قوة جديدة هامة في ميدان البحر الأبيض المتوسط كانت تترقب الأحداث الجارية حولها عن كثب وهي القوة الرومانية . وقبل دراسة مراحل الصراع القرطاجي الروماني تنبغي الاحاطة بالكيان المجتمعي المغربي في العصر القرطاجي والتعرف على الحياة الفكرية والمجتمعية القرطاجية والبربرية وكذا النشاط الاستكشافي في تلك الفترة .

---

(١) Ibid., 113.

الفصل الثالث

المجتمع المغربى فى العصر القرطاجى

إن أول ظاهرة يلمسها الدارس لتاريخ المجتمع المغربي القديم فى العصر القرطاجى هى الامتزاج الواضح بين عدد من العناصر الحضارية فى ذلك المجتمع فهناك العنصر القرطاجى الفينيقى الاصل والعنصر البربرى المحلى والعنصر اليونانى المتداخل فى بعض مجالات المجتمع القرطاجى وذلك بالإضافة إلى العناصر الحضارية المصرية والاترورية والقبرصية والكريتية والافريقية الزنجية. وكان لكل عنصر من هذه العناصر مقوماته الحضارية المادية والفكرية فى المجالات الدينية والاقتصادية والادبية والفنية. وعلى ذلك فالمجتمع المغربى فى تلك الفترة كان مجتمعا مختلطا تبلورت فيه أنماط جديدة نتيجة هذا الاختلاط، مما ساعد على حسم انتقاله من المجتمع المنعزل نسبيا فى مرحلة العصر الحجرى الحديث والقائم على النظام القبلى المحلى المحدود فى نشاطه الفكرى والمادى إلى مجتمع متطور له فاعليته فى تاريخ منطقة البحر الابيض المتوسط والقارة الافريقية ويمكن للباحث تتبع حياة هذا المجتمع فى عدة مجالات ويعتبر المجال الدينى ذو أهمية خاصة فى حياته نظرا لارتباط القرطاجيين بأصلهم الفينيقى ارتباطا وثيقا حيث كان للدين فاعليه خاصة فى الحضارة الفينيقية .

ويلاحظ الدارس أن الانسان فى هذه المرحلة كان لايزال يبحث عن الحقيقة ولذلك لم يقتصر مجهوده على تطوير فكره الدينى فى نطاق معين بل حاول الاعتماد على كافة مايتراءي له من الافكار الدينية الاجنبية محاولا

الاقتباس منها بما يكمل تفكيره الخاص. ويلمس الدارس هذا الخلط الواضح في الفكر الديني في هذا المجتمع بصورة ظاهرة ، ولكن ذلك لايمنع من تواجد الأصول الفينيقية الأولى كأساس للديانة القرطاجية . ولقد كانت معرفة المؤرخين عن الديانة الفنيقية محدودة ولكن بعد اكتشاف النصوص الكثيرة التي عثر عليها في حفائر بيبلوس أي جبيل ورأس الشمرا أي أوجاريت والتي ألقت أضواء جديدة على بعض جوانب هذا الدين تبين أنه في أساسه أسيوي سامي الأصل يعتمد كغيره من الديانات السامية على الاعتقاد في ظاهرة الخصوبة والإنتاج كما أنه يؤمن ببعض القوى الطبيعية الموجودة في محيط بيئة الإنسان في تلك المرحلة . والاله الأول عند الفينيقين هو الإله إيل وهو إله القوى الكامنة في مياه الأنهار والآبار . وهناك أيضا الإلهة عاشرة Asherat والاله بعل Baal والاله عليان aliyan. ويلاحظ الدارس أن بعض هذه الآلهة يرادف قوى الهية أخرى تناظرها في العقائد المختلفة فمثلا الاله الفينيقي بعل يرادف في العقائد العراقية القديمة الإله أداد Adad [1] والاله ملقارت إله مدينة صور يرداف الاله اليوناني هيراقليس Heracles[2]، والإلة داجون الفينيقي يقترب من الاله البابلي الكلداني أو اونس Oannés [3] والإله أشمون اله

---

(١) Drioton, E., Contenau, G. and Duchesne- Guillemin, J., The Religions of the Ancient East, London, 1959, 76.

(٢) ج . كونتنو ، الحضارة الفينيقية ، ترجمة محمد عبد الهادى شعيرة ومراجعة طه حسين وتحقيق الاعلام وتعقيب رشيد الناضورى ، القاهرة ، ص ١٢٠.

ونجيب مخائيل ابراهيم ، مصر والشرق الأدنى القديم ، سورية ، الاسكندرية ١٩٥٩ ، ٥٥.

(٣) ج. كونتنو ، نفس المرجع ، ١٢١.

الصحة والطب يرادف الإله اسكليبيوس Asklepios اليونانى [1] وهكذا .
وهذه المترادفات تشير إلى وجود انصـــال فكرى دينى بين الفينيقيين من ناحية وبين جيرانهم من ناحية أخرى . ومثال ذلك الاتصال الفكرى الذى يرجع إلى بداية العصور التاريخية بين مدينة بيبلوس الفينيقية وبين مصر القديمة ، والذى يتضح تأثيره خاصة فى العقائد الدينية الفينيقية كما يدل على ذلك تقليد الملك أحيرام على تابوته الحجرى للمناظر الجنزية المصرية المعروفة بطابعها الخاص .

وقد عبر الفينيقيون عن فكرهم الدينى فى شكل أدب أسطورى ملحمى يتضمن كافة القصص الدينية المتأثرة بالديانات السامية المجاورة والمعبرة عن صلة الالهة بعضهم ببعض وبصفة خاصة فى مظاهر الخصوبة المتصلة بالحياة الزراعية والإنتاج .

أما الآلهة القرطاجية فقد تضمنت الالهة الفينيقية السالفة الذكر ، أنظر شكل رقم (٨٧) بالإضافة إلى قوى إلهية جديدة ، على رأسها الآلهة تانيت Tanit. وقد اختلف المؤرخون فى أصل هذه الآلهة ولكن عدم الإشارة اليها فى نصوص رأس الشمرا وصور وغيرها يؤكد أنها غير فينيقية الأصل . كما أن عبادة البربر لها يزيد من الاعتقاد فى كونها بربرية الأصل [2]. وهى إلهة الانتاج والخصوبة عند القرطاجيين ويرمز اليها بسيدة ترضع طفلها ، أنظر شكل رقم (٨٨) ، وأيضا بمثلث يمثل الجسم واليدين ودائرة تمثل الرأس ، أنظر شكل(٨٩) ومن الجائز صعوبة تفسير اهتمام البربر بالهة أنثى

---

(١) Drioton, E, et. al., Op. cit., 78.

(٢) Warmington, Op. cit., 129.

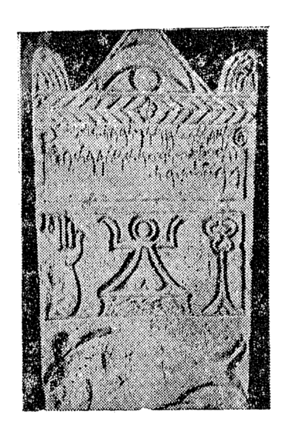


شكل رقم (٨٧)
نحت من البرونز للاله بعل حدد عثر عليه فى نيكسوس

بدلا من إله ذكر ولكن من الممكن الرجوع فى هـذا الصدد إلى بعض المجتمعات القبلية التى كانت تعطى أولوية خاصة للمرأه فى كيانها المجتمعى مما يجعلها تصل إلى اتخاذها رمزا للقوى الكامنة فى ظاهرة الاخصاب . ومن الآلهة القرطاجية أيضا الاله بعل حمون Baal Hamnion ويسمى أحيانا بعل عمون ، وقد اتجه المؤرخون إلى اعتباره ذو صلة بالاله المصرى آمون،ومن الممكن الاتجاه إلى تأييد هذا الرأى على أساس أن الاله آمون قـد انتشرت عبادته لحد ما فى شمال أفريقيا . وقد سبقت الاشارة إلى العثور على



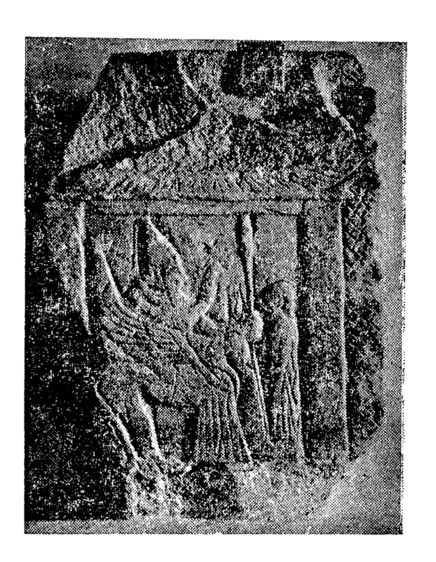
شكل رقم (٨٨) الإلهة تانيت



شكل رقم (٨٩) لوحة نقش عليها رمز الإلهة تانيت
وهو مثلث يمثل الجسم واليدين ودائرة تمثل الرأس .

رسوم لأكباش مقدسة على رأسها قرص الشمس فى كل من الجزائر وليبيا، ويمكن اعتبارها ترادف الكبش المصرى المقدس الذى يرمز للاله آمون فى مدينة طيبة ، مع الاختلاف فى نوع الكبش ذاته حيث يلاحظ أن الكبش الجبلى المغربى له شكله الخاص المميز . فمن الممكن تأثر قرطاج بهذا المعتقد المصرى القديم وظهوره مع الآلهة الأخرى الفينيقية والليبية . وربما يرجع هذا الاندماج إلى العصر الفينيقى نفسه باتحاد أحد الآلهة الفينيقية الأصل وهو الاله بعل مع الاله آمون المصرى مما أدى إلى ظهور الاله بعل حمون الذى يحمل الصفتين الفينيقية والمصرية القديمة . وقد صور هذا الاله القرطاجى فى عدة أشكال منها تصويره على شكل انسان وهو جالس على

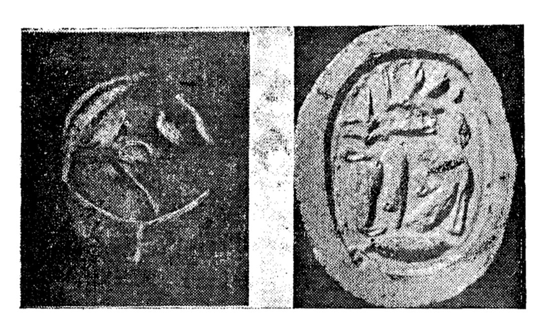
عرشه وبجواره تمثال لأبى الهول المجنح ، أنظر شكل رقم (٩٠)، وأحيانا يحمل قرنى كبش كما أن قرص الشمس المجنح المصرى الأصل كان من الرموز المتصلة بهذا الاله .



شكل رقم (٩٠) لوحة من سوسه Hadrumetum
عليها نحت يمثل الإله بعل حمون .

ومما يسترعى الانتباه أن هذه الظواهر المصرية القديمة فى الحضارة القرطاجية قد اتضحت أيضا فى نواح أخرى مثل الجعارين ، فقد عثر على

أمثلة منها فى عدد من المواقع الأثرية القرطاجية منها ليكسوس Lixus المطلة على المحيط الاطلسى المغربى ، وأحيانا تحمل أسماء بعض الفراعنة المصريين مثل تحتمس الثالث . أنظر شكل رقم (٩١) ، ويمكن تفسير تواجدها بأنه



شكل رقم (٩١) جعران مصرى عثر عليه فى ليكسوس ـ منظر للجزء الخارجى والباطنى ويلاحظ وجود علامة نسوبيت بالخط الهيروغليفى المصرى وتعنى ملك مصر العليا والسفلى.

نتيجة الصلات التجارية وتعامل القرطاجيين تجاريا فى نماذج مختلفة من انتاج مناطق متعددة فى حوض البحر الأبيض المتوسط سواء أكانت مصرية أو يونانيـة أنظر شكلى رقم (٩٢) ورقم (٩٣) أو فينيقية . وقد مارس القرطاجيون طقوس دياناتهم فى عدد من المعابد التى بنيت على طرز معمارية مختلفة تأثرت كثيرا بالطابع اليونانى الأصل كما كانت هنـاك طبقة الكهنة المتفرغين الذين يتوارثون وظيفة الكهانة فى عائلاتهم .

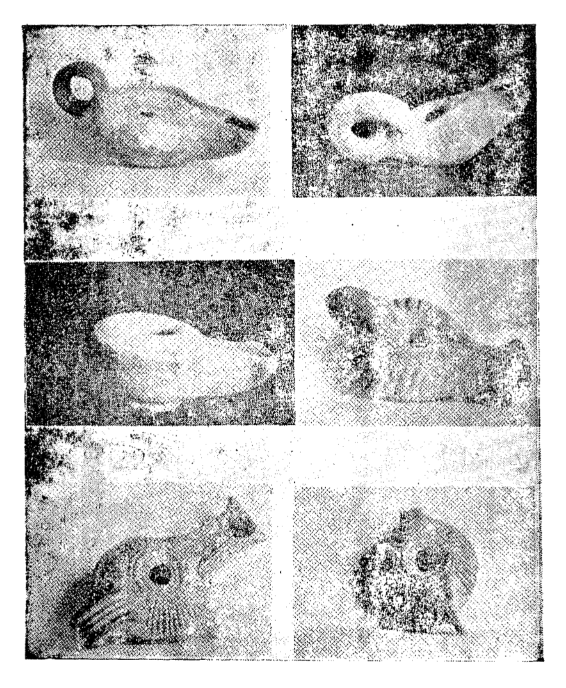
وفيما يتعلق باعتقاد القرطاجيين فى العالم الآخر فقد آمنوا به لحد معين



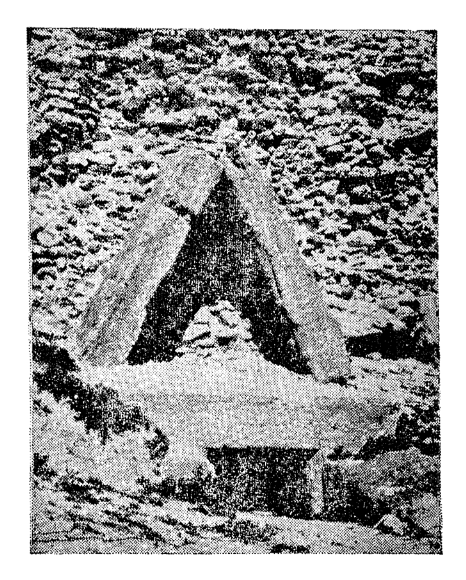
شكل رقم (٩٢) آنية فخارية كورنثية الأصل
عثر عليهـــا فى قرطاج .

وخصصوا مقابر لدفن موتاهم وزودوها ببعض الاحتياجات الرئيسية التى تلزم المتوفى ، وبتماثيل الآلهة وأقنعة لابعاد القوى الشريره . ويلاحظ أن بعض هذه المقابر قد اتخذت الشكل الهرمى المصرى القديم . أنظر شكل رقم (٩٤) .

ومن الظواهر الدينية المميزة للديانة القرطاجية ظاهره التضحية البشرية.



شكل رقم (٩٣) مسارج يونانية ورومانية مستوردة عثر عليها في جبانة مليلية وتنتمى إلى العصر القرطاجى فى المرحلة الأخيرة .



شكل رقم (٩٤) مقبرة قرطاجية ترجع إلى القرن السادس ق م.
ويلاحظ استخدام الشكل الهرمى فيها .

ولقد كان استخدامها على نطاق واسع فى المجتمع القرطاجى مما يؤكد سيادة العامل الدينى فى حياتهم ومستقبلهم ومحاولة التقرب بهذه الوسيلة الخاصة الى القوى الالهية المختلفة رغبة فى استرضائها ، والحصول على الانتصار فى الحروب ، والرفاهية فى المجتمع الدنيوى من ناحية ، وتزلفا للقوى الخفية ودفعا لشرها من ناحية أخرى . ويرجع هذا التقليد الدينى فى أصله إلى

الكنعانيين والفينيقيين فى فلسطين وفينيقيا . وتنبغى الإشارة أيضا إلى أن هذه العادة كانت موجودة فى المجتمع السومرى أثناء العصر التاريخى وفى المجتمع المصرى قبل بداية العصر التاريخى ، ولكنها استمرت عنــد القرطاجيين حتى العصر الرومانى . وقد عثر فعلا على بقايا رماد الأطفال الذين كانوا يضحى بهم فى معابد الآلهة مما يؤكد صحة ما ذكره المؤرخون اليونان والرومان فى هذا الشأن . أنظر شكل رقم (٩٥) .

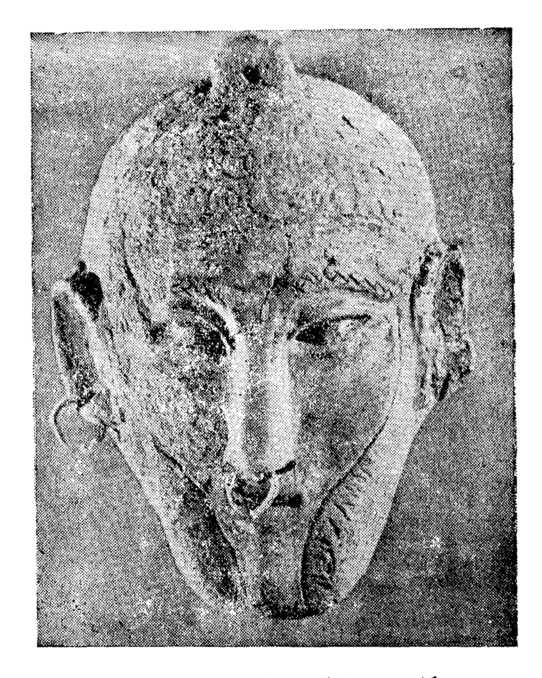


شكل (٩٥) منظر لوحة قرطاجية يظهر فيها أحد الكهنة وهو يحمل طفلا لتقديمه كضحية بشرية .

ومن ناحية أخرى حاول القرطاجيون التغلب على القوى الشريرة التى تهدد أمنهم باستخدام طريقة جديدة ترجع فى أصولها إلى أفريقيا الزنجية وهى صنع أقنعة ومسوخ طينية تحمل أشكالا شيطانية يرتديها الانسان ، أو يضعها فى منزله أو مقبرته كنوع من إخافة هذه القوى الشريرة وبالتالى ابعادها عنه ، أنظر أشكال (٩٦) ، (٩٧) . ويغلب على الظن أن توصل القرطاجيين إلى هذا التقليد الجديد كان نتيجة اتصالهم التجارى والحضارى البرى والبحرى مع أفريقيا الزنجية . وقد ثبت قيامهم برحلات برية عبر الصحراء الى منطقة نهر النيجر والسنغال ، وبالطريق البحرى على طول



شكل (٩٦) قناع طينى عثر عليه فى أحد المقابر القرطاجية



شكل (٩٧) قناع آخر قرطاجي يستخدمه الرجال
ويلاحظ وجود حلقات في الأنف والاذن .

ساحل المحيط الأطلسى حتى منطقة الكونجو. وقد اتاحت لهم هذه الرحلات الاطلاع على النماذج الحضارية الزنجية الطابع والتأثر بها تمشيا مع طريقتهم الخاصة فى الاستزادة من الحضارات الأجنبية لاستكمال كيانهم الحضارى.

ويسطر التاريخ السياسى للقرطاجيين حقيقة أهمية الدافع الدينى، فيلاحظ تقديمهم القرابين البشرية للآلهة فى مواقف كثيرة، كما أن أسماء الحكام القرطاجيين لها المفهوم الدينى، وعلى سبيل المثال اسم الملك القرطاجى الخالد هانيبال الذى يعنى « حن عليه بعل ». ولكى يلم الباحث بمختلف جوانب حياة المجتمع المغربى فى العصر القرطاجى تنبغى الإشارة الى العنصر البربرى ودوره فى ذلك المجتمع.

كان البربر يكونون العنصر الغالب فى المنطقة وكان نظامهم الاجتماعى يقوم على النظام القبلى البحت. ويرجع البربر فى أصولهم البشرية إلى عنصر البحر الأبيض المتوسط وفى أصولهم اللغوية الى عائلة اللغات الحامية التى تعود بهم إلى شبه الجزيرة العربية وبصفة خاصة منطقة عمان وحضرموت واليمن. ويطلق البربر على أنفسهم تعبير الامازيغ أى الأحرار. وقد كان انتقالهم إلى المغرب عن طريق الهجرات الحامية الكبرى إلى القارة الافريقية عبر بوغاز باب المندب. وقد اتخذت هذه الهجرات الطرق الصحراوية فى فى شرق وشمال السودان والنوبة المصرية ومنها الى مناطق الواحات ثم إلى المغرب. وقد اختلط البربر بالعناصر السامية والهندية الأوربية والزنجية، وتختلط نسبة هذا الاختلاط من مكان لآخر ويمكن للمؤرخ تتبع الأصول الحامية فى المناطق التى استقروا فيها فى شرق أفريقيا والسودان والنوبة ومصر والمغرب. ومن أهم الأمثلة على ذلك أصولهم فى مصر فقد ثبت انتماء اللغة

المصرية القديمة إلى عائلة اللغات الحامية مع وجود مؤثرات سامية بها كما أنه رغم تمكن المصريين من صنع حضارة مصرية راقية فى وادى النيل الادنى فقد استمرت صلاتهم الأولى بأصولهم[1] الحامية إلى حد معين .

وقد تعددت القبائل البربرية فى المغرب كما اختلفت فى تقاليدها ولهجاتها الخاصة وقد أشار المؤرخ ابن خلدون فى مقدمته إلى قبائلهم ولهجاتهم المختلفة مثل اللهجات الزناتية والمصمودية والصنهاجية وغيرها . ولم تصل هذه القبائل البربرية إلى الوحدة السياسية إلا أثناء العصر القرطاجى ، وذلك لأن الطبيعة القبلية وعدم استقرار البربر فى مكان معين وكذلك ظاهرة الرعى والزراعة المحدودة التى تمثل الجانب الأول فى اقتصادهم ، كل ذلك أدى الى استقلالهم القبلى لفترة طويلة .

وعندما اتصل الفينيقيون بالبربر الذين كانوا لا يزالون فى مرحلة العصر الحجرى الحديث بدأت العلاقات الفينيقية البربرية فى التطور فى المجالات الاقتصادية والحضارية مما ساعد على انتقال البربر من المرحلة القبلية البحتة إلى مراحل أكثر تقدما نحو تكوين دولة بربرية أثناء العصر القرطاجى وقد كان للنظام القبلى البربرى أثره على العصبية البربرية التى تعتمد على أساس صلات المصاهرة بين أفراد القبائل. وكان لتلك العصبية أثرها البالغ فى تاريخ البربر وفى تأخرهم نسبيا فى التوصل إلى الوحدة السياسية . فقد انفردت كل قبيلة بعصبيتها الخاصة التى عزلتها داخل نطاق محدود يتميز بوجود قلعة محصنة فى مركز منطقة انتشار القبيلة . ويلاحظ الدارس أن ظاهرة التحصين هذه

---

(١) أنظر عبد المنعم عبد الحليم ، الجمهورية الصومالية ، القاهرة ، ١٩٦٠ ، ٣٢٦ وما بعدها .

كانت لأغراض دفاعية ويمكن تتبعها فى المجتمعات الحامية الأصل وأيضا السامية فى بداية العصر التاريخى . ويلاحظ أن مجتمعات جريكو بفلسطين المنتمية لمرحلة العصر الحجرى الحديث تتميز بظاهرة التحصين ، وكذلك المجتمعات المصرية قرب نهاية عصور ما قبل الاسرات وبداية العصر التاريخى قد تميزت كذلك بهــذه الظاهرة التى لا تزال آثارها موجودة فى منطقة ابيدوس والكاب . وكان الغرض من هذا التحصين هو حماية المجتمع الأول من احتمالية التهديدات المختلفة الإنسانية أو الحيوانية التى تغــير على هذه المجتمعات المستقرة الجديدة .

وكانت العلاقة بين القرطاجيين والبربر فى أول الأمر يسودها السلام والصلات الاقتصادية والاجتماعية والحضارية العادية بعد أن نجح الفينيقيون الأول فى خلق جو من الثقة المتبادلة بينهم وبين تلك العناصر المحلية ، ولكن هـذا السلام لم يكن تاما أثناء مرحلة الصراع القرطاجى اليونانى السالف الذكر وخاصة بعد أن ساءت معاملة القرطاجيين للبربر الذين كانوا يعملون ضمن صفوف الجنود المرتزقة فى الجيش القرطاجى وأدى ذلك إلى تذمر البربر ومحاولتهم القيام بالثورات تعبيرا عن غضبهم . ولكن هـذه الثورات لم تؤد إلى استحواذهم على السيادة السياسية فى ذلك الوقت لأنهـم كانوا يفتقرون إلى قيادة موحدة تتولى توجيههم فى هذه التجارب السياسية الأولى فى مواجهتهم للقرطاجيين . وقد استفاد البربر من تلك المرحلة وبدؤا يتجمعون فى شكل مجموعات من القبائل تنتظم كل مجموعة منها فى شكل اتحاد قبلى اقليمى يرأسه أحد قادة هذه القبائل ويطلق عليه لقب « اغليد » Aguellid أي ملك أو رئيس مجموعة من القبائل المتحدة . وكان رؤساء القبائل الداخلة فى

الاتحاد يعاونون الاغايد فى حل المشكلات التى تواجه الاتحـاد وخاصة فيما يتصل منها بمسائل العصبية القبلية التى لم تتقبل هذا الاتحاد بسهولة . ويمكن أن تسمى الاتحادات القبلية الاقليمية التى نشأت حوالى النصف الثـانى من العصر القرطاجى دولا أو ممالك مثل مملكة ماسوله Massylie ومكانها منطقة نوميديا الشرقية ومملـكة مازيسوله Massesylie فى منطقة نوميديا الغربية ثم مملكة موريطانيا فى المغرب الأقصى . وقد نشأت هـذه الممالك بعـد نمو الوعى السياسى لدى البربر وشعورهم بالكيان الذاتى فى ذلك الوقت ومحاولتهم الاستقلال بالمغرب . وقد شجعهم فى هـــذا الصدد الرومان كمحاولة منهم لاضعاف الجانب القرطاجى بايقـاع الفرقة بين العنصرين الفينيقى والبربرى، ويلاحظ أنه فى هذه المرحلة أيضا برزت عدة ثورات بربرية وبصفة خاصة فى القرن الثالث قبل الميلاد .

ولم يقتصر نشاط البربر عـلى المغرب فحسب بل سبق أن اتصلوا بمنطقة شمال شرقى افريقيا أى بمصر القديمة ويمكن ارجاع تلك الصلات فى مظهرها السياسى والحضارى إلى بداية العصر التاريخى واثنائه . ولكن بوادر هذه الاتصالات ترجع فى الواقع إلى ما قبل بداية العصر التاريخى أى إلى مرحلة العصرين الحجرى القديم الأعلى والحجرى الحديث وما قبل الأسرات ، عندما اضطرت العناصر الليبيـة أى البربرية إلى التحرك شمالا وشمالا بشرق فى محاولة الاستقرار بعضها فى وادى النيـل الأدنى على حافة الصحراء فى مجتمعات الفيوم أو مرمدة بنى سلامة . ولكن الصلات ازدادت فى عهد الدولة القديمة وكذلك فى عهد الدولتين الوسطى والحديث غير أنها وصلت إلى قمتها فى بداية العصر المتأخر وأثناء الاسرتين الثانية والعشرين والثالثة والعشرين

عندما تمكنت أسر ليبية متمصرة من الوصول إلى كرسى الحكم وبذلك بدأت مرحلة ليبية فى التاريخ المصرى القديم .

لقد كانت تلك العناصر الليبية الأصل منذ بداية التاريخ المصرى القديم وبصورة مطردة دائمة التحرش والتسلل إلى مناطق الدلتا والفيوم فى مصر مدفوعة باغراء تلك الاقاليم الغربية التى تتجمع فيها الحياة الزراعية المستقرة. ولكن سرعان ما كان الفراعنة يبادرون إلى احباط تلك المحاولات ومن اشهرها ما حدث فى عهد ملوك الأسرة الثانية عشرة والتاسعة عشرة والعشرين وبصفة خاصة فى عهدى منفتاح ورمسيس الثالث اللذين تمكنا من إيقاف هذه التسللات الليبية فى ذلك الوقت بصورة مؤقتة. وتنبغى الإشارة فى هذا الصدد إلى أن حروب رمسيس الثالث مع الليبيين كانت حاسمة فى إيقاف عمليات التسلل المسلح مما دفعهم إلى التسرب السلمى والاستيطان فى مناطق الفيوم والدلتا والعمل كجنود مرتزقة فى الجيش المصرى .

وفى بداية العصر المتأخر كانت مصر قد وصلت إلى حالة من الضعف والاضطراب السياسى مكنت كثيرا من العناصر الأجنبية من الاستيطان فى البلاد والتطلع للاستحواذ على السلطة السياسية . وقد تمكنت العناصر الليبية البربرية المستقرة فى اهناسيا بالفيوم والتى تسميهم النصوص المصرية «التحنو» من تقلد وظائف هامة فى هذا الاقليم حتى ظهرت شخصية قوية فيها هى شخصية ششنق الأول الذى تمكن من الوصول إلى عرش مصر وتأسيس الأسرة الثانية والعشرين وذلك حوالى ٩٥٠ ق. م. وكان قبل وصوله للعرش يحمل لقب رئيس المشواش العظيم وهى تسمية ترجع فى أصلها إلى منطقة شط الجريد جنوب قرطاج . وقد دعم ششنق مركزه فى حكم البلاد بتزويج ابنه من

إبنة آخر ملوك الأسرة الحادية والعشرين المصرية فى تانيس، وبهذه الطريقة أوجد لأسرته حقا شرعيا فى الوصول إلى عرش الفراعنة . ولم تكن كل من الأسرتين الليبيتين فى تاريخ مصر القديم الثانية والعشرين والثالثة والعشرين أجنبية بمعنى الكلمة بل لقد تأثرت هذه العناصر البربرية بالحضارة المصرية المتفوقة فى ذلك الوقت بالنسبة اليهم ، وتمصرت لحد كبير مع الاحتفاظ ببعض العادات البربرية، ويظهر ذلك فى أسمائهم وأزيائهم. ولكن سرعان ما تمكن المصريون من استعادة سيادتهم مرة أخرى، غير أن العناصر النوبية الحامية الأصل والتى ترجع فى جذورها الأولى إلى التحركات البشرية البربرية المتجهة إلى المغرب عبر الصحراء والواحات تمكنت من الاستحواذ على السلطة من المصريين والليبيين وأسست الأسرة الخامسة والعشرين. ثم تمكن الآشوريون من فرض سيادتهم سبع سنوات أثناء القرن السابع ق. م. (من ٦٧٠ — ٦٦٣) . ولكن المصريين نجحوا فى الاستقلال وتحرير مصر وأسسوا الأسرة السادسة والعشرين ، وخلصت البلاد بذلك من سيادة العناصر الليبية والآشورية .

ولكن الصلات البربرية القرطاجية فى المغرب كانت أوثق منها فى المشرق فقد اتصل البربر بالقرطاجيين إتصالا وثيقا فى مجالات التعامل الاقتصادى والفكرى وكان من الطبيعى أن يشمل هذا الاتصال الجانب اللغوى المدون . فقد بدأ البربر فى تسجيل لهجاتهم فى القرن الثانى قبل الميلاد متأثرين باللغة البونية الفينيقية الأصل والتى نجح الفينيقيون فى التوصل إلى اختراع خطها لأول مرة فى حياة الانسانية بصورة نهائية .

أما عن النشاط الزراعى والصناعى فى المجتمع القرطاجى فقد تشكل حسب طبيعة الأقاليم المغربية التى تعتبر من الناحية الجغرافية من اقاليم البحر الأبيض

المتوسط . ولذلك نلاحظ زراعة الزيتون والتين والكروم والموالح والنخيل واللوز والرمان وغيرها من منتجات حوض البحر المتوسط . ولكن العناصر الليبية قد تميزت بمداومتها على تربية الأغنام والدواجن ورعى الماشية .

هذا بالاضافة إلى الخيل والجمال السريعة العدو والفيلة فى مختلف جوانب نشاطهم سواء كانت للحراسة أو للعمليات الدفاعية. ولم يكن الاقتصاد القرطاجى يعتمد على الزراعة اعتمادا رئيسيا بل كان يركز نشاطه بصفة خاصة على التجارة الخارجية ، وذلك يتضمن مجـــالات الاستيراد والتصدير، ولذلك نشطت الصناعات المحلية القرطاجية المعدنية والعاجية وأيضا صناعة النسيج والفخار والزجاج وغيرها. وبينما كان أثرياء القرطاجيين يركزون نشاطهم على اكتساب الثروات والاستحواذ على السلطة السياسية والحربية كانت طبقات الشعب العامة تقوم بالنشاط الصناعى فى الدولة . وكان للصناعات المعدنية النحاسية والبرونزية أهمية خاصة لما تؤديه من وظيفة تسليح قوات الجيش والاسطول وكانت تلك الصناعات تعتمد على المعـادن المستوردة من شبه جزيرة ايبيريا والتى نجح الفينيقيون الأول فى استغلالها منذ بداية الألف الأول قبل الميلاد . كما أن عمال النجارة كان لهم نشاطهم فى صناعة بناء السفن التى كانت الدعامة الأولى فى حياة القرطاجيين . هـــذا بالاضافة إلى نشاط الليبيين فى صناعة الأنسجة الصوفية والكتانية والجلدية والفخارية والقوارير الزجاجية والخرز وخلافه . وقد عثر فى الآثار القرطاجية على الكثير من الحلى مثل الحلقات المعدنية التى كانوا يزينون بها أنوفهم وآذانهم والعقود وغيرها من أدوات الزينة بالاضافة إلى المسارج الطينية والحجرية والشمعدانات التى كانت تستخدم فى الإضاءة .

ويلاحظ الدارس أن المنازل القرطاجية جمعت بين المنازل البسيطة ذات الأسقف السطحية أو المقببة والمطلية باللون الأبيض وبين المنازل العالية ذات الأدوار التي تصل في عددها إلى ستة طبقات ، مقلدة بذلك النمط الفينيقي الأصل في المدن الفينيقية في المشرق . وكانت المدينة الفينيقية تجمع بين المتطلبات السياسية والمدنية والدفاعية، فهناك السوق والميناء والقلعة والطرق المستقيمة الموصلة فيما بينها ، وكذلك هناك المقابر القرطاجية التي اعتمدت على الكتل الحجرية أحيانا وعلى الآجر في المراحل التاليـة في بنائها. ويلاحظ الدارس أن العمارة القرطاجية قد تأثرت كثيرا بالمؤثرات الأجنبية المصرية واليونانية. فهناك الأعمدة الايونية، أنظر شكل (رقم ٨٢)، والمسلات الحربية وقرص الشمس المجنح المصرى الأصل والاسقف الهرمية الشكل وغير ذلك . ولم يقتصر التأثير اليونانى على الجانب المعمارى بل كانت هناك المؤثرات اليونانية في الأدب والفكر الدينى وذلك على الرغم من العداوة العنيفة بين العنصرين القرطاجى واليونانى كما يتضح ذلك في مراحل الصراع السالفة الذكر .

وعلى الرغم من كثرة العناصر الأجنبيـــة في المجتمع المغربى في العصر القرطاجى إلا أن ذلك لم يؤد إلى تواجـد مشكلة طبقية بصورة قوية في هذا المجتمع وبصفة خاصة قرب نهاية العصر القرطاجى حيث تقاربت طبقات هذا المجتمع لحد كبير .

ويلاحظ أن القرطاجيين في المغرب كانوا يوجهون جـل اهتمامهم إلى نشاطهم الاقتصادى والاستقرارى ، ولذلك لم يعثر على آثار تبين نشاطهم المسرحى والرياضى البدنى . كما يلاحـظ بصورة واضحة في المجتمع اليونانى المعاصر في ذلك الوقت، وربما يرجع ذلك إلى كثرة انشغالهم في البيئة المغربية

الجديدة عليهم. ويلمس الدارس من ناحية أخرى مبالغتهم فى الاعتقاد فى وجود قوى خفية شريرة ومحاولتهم اتقاء شرها بكافة الوسائل مثـل اتخاذ المسوخ والتمائم وغيرها من الجوانب التى ترجع إلى أصول أفريقية أكثر منها فينيقية . كذلك يلاحظ استخدام القرطاجيين للوشم وهى عادة بربرية الأصل لها صفة دينية لأن أشكال الوشم تعنى رسوما لرموز الهية تؤدى وظيفة الحماية من القوى الشريرة . ولكن ذلك لا يعنى تغلب العادات البربرية عليهم بل كانوا يحتفظون بميراث من التقاليد السامية الفينيقية الأصل مثـل تحريم أكل لحم الخنزير وممارسة عادة الختان وغير ذلك من العـادات السامية الأصل . وقد وصل التطور بالمجتمع القرطاجى إلى سك العملة القرطاجية لتسهيل التبادل التجارى والتعامل بين أفراد المجتمع القرطاجى بدلا من نظام المقايضة الذى استخدم فى بداية مراحل الاستقرار الفينيقى فى المغرب .

ومن أهم مظاهر النشاط القرطاجى الخـالد فى تاريخ الانسانية قيامهم بعمليات الاستكشاف الجغرافى لأول مرة لمنطقة الساحل الأفريقى الغربى والساحل الاوروبى الغربى وذلك ابتداء من القرن الخامس ق . م عنـدما سجل بعض حـكامهم وبصفة خاصة هانو Hanno رحلته الشهيرة التى وصل فيها إلى منطقة الكونجو . وقد حفظ النص اليونانى تلك الرحلة ، أما النص القرطاجى الأصلى فقد فقد . وتنبغى الإشارة فى هذا الصدد إلى أن الوثيقة اليونانية تتضمن بعض النواحى التى تستوجب التوقف والتى ألحقت بالنص إما من جانب القرطاجيين أو اليونانيين لأغراض سياسية واقتصادية خاصة . وفيما يلى النص :

« تقرير عن رحلة هانو ملك القرطاجيين إلى أجزاء من أفريقيا فيما وراء مضيق جبل طارق، والذى قدمه إلى معبد الاله بعل .

١ ـ قرر القرطاجيون أنه يجب على هانو الإبحار بعـد مضيق جبل طارق وتأسيس مراكز ليبية ـ فينيقية. وقد أبحر ومعه خمسة وستون سفينة مجهزة بالمجاذيف و ٣٠٠٠٠ ثلاثون ألف رجـل وإمرأة وكذلك الطعام والضروريات اللازمة .

٢ ـ وبعـد عبور المضيق والإبحـار لمدة يومين أسسنا المركز الأول تايمياتريون Thymiaterion والتى يوجد بجوارها سهل كبير .

٣ ـ وبعد ذلك أبحرنا تجاه الغرب ووصلنا إلى مكان سمى سولوئيس Soloeis وهو رأس مغطى بالأشجار .

٤ ـ وبعد أن شيدنا معبدا هناك للاله بوسيدون Poseidon حولنا اتجاهنا وابحرنا شرقا لمدة نصف يوم وصلنا بعدها إلى مستنقع غير بعيد عن البحر مغطى بأعشاب كثيفة وعالية وكانت الفيلة وحيوانات أخرى تأكل هناك .

٥ ـ ودرنا حول هذا المستنقع لمدة يوم وبعد ذلك تركنا مستعمرين (جدد) عند قلعة كاريان Carian وجيتـه Gutta وعكره Acra وماليطة Malitta وأرامبيس Arambys .

٦ ـ ومن هنا أبحرنا إلى ليكسوس ، وهو نهر كبير ينبع من ليبيا .

وعلى ضفافه يرعى أهل ليكسوس الرحـل مواشيهم ومكثنا بعض الوقت مع هؤلاء الناس وصرنا أصدقاء لهم .

٧ ـ وفيما وراءهم يسكن الأثيوبيون البدائيون فى بلد مليئـــة بالحيوانات المتوحشة تخترقها سلاسل جبلية يقولون أن نهر ليكسوس ينبع منها. وحول هذه الجبال كان يسكن قوم ذو طبيعة خاصة هم التروجلوديت Troglodytes،ويدعى أهل ليكسوس أن هؤلاء الناس كانوا يستطيعون الجرى أسرع من الخيل .

٨ ـ وبعد الحصول على تراجمة من أهل ليكسوس ابحرنا جنوبا بحذاء شاطىء صحراوى لمدة يومين وبعد ذلك اتجهنا شرقا لمدة يوم واحد،وهناك وجدنا فى خليج جزيرة صغيرة محيطها ثلاثة أرباع الميـل وسميناها قرنة Cerne وتركنا بها مستعمرين وبحساب المسافة التى ابحرناها وجـــدنا أن موقعها يواجه قرطاج وذلك لأن الوقت الذى امضيناه فى السفر من قرطاج حتى مضيق جبل طارق يعادل ذلك من مضيق جبل طارق حتى قرنة .

٩ ـ ومن هناك مررنا بنهر كبير هو الكريتيس Chretes ووصلنا إلى مستنقع يحوى ثلاثة جزر أكبر من قرنة . وبعد تركهم أبحرنا لمدة يوم ووصلنا إلى رأس مستنقع تشرف عليـــه جبال مرتفعـة ويسكنه

أناس متوحشون كانوا يلبسون جلود الحيوانات المتوحشة ، وقد منعونا من النزول بقذف الأحجار علينا .

١٠ – ومن هناك دخلنا نهرا آخرا عميقا ومتسعا مليئا بأفراس النهر والتماسيح ، وبعد ذلك عدنا إلى قرنة .

١١ – ثم أبحرنا مرة أخرى جنوبا من قرنة لمدة اثنا عشر يوما بحذاء الساحل الذى كان يسكنه الاثيوبيون الذين فروا منا ، وحتى أهل ليكسوس الذين كانوا معنا لم يستطيعوا تفهم لغتهم .

١٢ – وفى اليوم الثانى عشر القينا المرسى تحت سلسلة جبال مكسوة بالأشجار العطرة وذات الأنواع الكثيرة .

١٣ – ومررنا بهذه السلسلة الجبلية فى بحر يومين ووصلنا إلى خليج متسع على جانبيه أراضى منخفضة. ومن هنا شاهدنا أثناء الليل نيرانا تتصاعد من كل جانب فى فترات غير منتظمة .

١٤ – أخذنا ماء وسرنا بحذاء الساحل لمدة خمسة أيام حتى وصلنا إلى خليج كبير قال عنه التراجمة إنه يسمى القرن الغربى وتوجد فيه جزيرة كبيرة وفيها بحيرة عليها جزيرة أخرى . وعند النزول عليها لم نشاهد غير

غابة ولكن أثناء الليل شاهدنا عدة نيران وسمعنا أصوات المزامير والطبول والدفوف وصيحات زحام كبير . واستولى علينا الخوف ونصحنا التراجمة بمغادرة الجزيرة وأبحرنا بعيدا بسرعة وبحذاء منطقة بها رائحة عطرة لخشب محروق ومنها تخرج ألسنة النيران التى تغطس فى الماء . ولم نستطع الاقتراب من الأرض بسبب الحرارة .

١٥ ـ وعلى ذلك ابحرنا بسرعة ونحن نشعر بخوف. وفى مدى أربعة أيام شاهدنا أثناء الليل الأرض مشتعله وفى وسط المنطقة كان هناك لهيب مرتفع فوق النيران يبدو كأنه يلامس النجوم ، وكان هذا أعلى جبل شاهدناه ويسمى مركبة الآلهة .

١٦ ـ وبعد المرور على أنهار مشتعلة لمدة ثلاثة أيام وصلنا إلى خليج يسمى القرن الجنوبى وكانت توجد فيه جزيرة مثل التى سبقت الاشارة اليها بها بحيرة عليها جزيرة أخرى وكانت مليئة بالمتوحشين وغالبيتهم إناث يكسو أجسامهن الشعر وأطلق عليهم التراجمة إسم الغوريلات Gorllas. وتتبعنا الذكور ولكن لم نستطع الامساك بأحد لأنهم كانوا يتسلقون الصخور المنحدرة ويقذفوننا بالاحجار ومع ذلك أسرنا ثلاثة إناث كن

يضربن ويخدشن اللذين أمسكوهن وقد قتلناهن وسلخناهن وأحضرنا جلودهن إلى قرطاج. هذا هو مااستطعنا الإبحار اليه نظرا لنقص التموين».[١]

وقد تعرض هذا التقرير لعدد كبير من وجهات النظر ويرجع ذلك إلى صعوبة التأكد من الحقائق المكانية التى وصلت اليها تلك الرحلة على ساحل أفريقيا الغربى. وأول ظاهرة هامة فى هذا التقرير هو أن النص القرطاجى مفقود ويصعب على الباحث تقبل الترجمة اليونانية دون تحفظ لما بين الطرفين القرطاجى واليونانى من منافسة شديدة وبصفة خاصة أثناء القرن الخامس قبل الميلاد حيث وصلت إلى درجة الحروب غير المنتهية حول السيادة الاقتصادية والسياسية فى وسط وغربى البحر الأبيض المتوسط. وكان فتح هذا المجال الجديد على الساحل الأفريقى الغربى بما يتضمنه من ثروات لانهاية لها يجتذب التجار اليونانيين والقرطاجيين ولذلك فمن المحتمل تضمن التقرير لبعض الفقرات المقتضبة أو غير الصحيحة من حيث موقعها الجغرافى على سبيل التمويه المتعمد لابعاد الطرف الآخر عن دخوله هذا الميدان الجديد. كما أنه من ناحية أخرى يلاحظ أن هذا التقرير قد تضمن الكثير من الاشارات التى تثير الخوف والفزع لدى من تسول له نفسه الاقتراب من هذه الأماكن، مما يزيد أيضا فى جانب الإبعاد المتعمد حتى يقتصر هذا السوق الجديد على نشاط القرطاجيين وحدهم. ومن الناحية الأثرية حاول بعض الباحثين تتبع الآثار الفينيقية والقرطاجية على الساحل المغربى المطل على المحيط الأطلسى،

---

(١) Warmington, Op. cit., 62 - 64.

وتمتد على أبعد مدى لهـا حتى الآن فى جزيرة الصويرة ، ولكن من المحتمل العثور على آثار أبعد من ذلك جنوبيا . ولا يعنى ذلك انعدام ورود حقائق فى هـذا النص بل على العكس من ذلك فقد تضمن الكثير من الحقائق التى تشهد بصورة واضحة على نجـاح القرطاجيين فى رحلتهم الاستكشافية والاقتصادية الهـامة على الساحل الافريقى الغربى ووصولهم حتى منطقة الكونجو فى افريقيا الاستوائية الغربية . أما عن بعض تفاصيل فقرات هذا التقرير فيلاحظ الدارس بعض الملاحظات التى تجدر الاشارة إليها .

تشير الفقرة الأولى من هـذا النص إلى حقيقة هامة فى التاريخ المغربى وهى أن الغرض من هذه الرحلة كان أصلا تأسيس مراكز ليبية ـ فينيقية أى بربرية قرطاجية على الساحل الغربى لأفريقيا. وهذه الإشارة تؤكد تداخل العنصرين البربرى والفينيقى فى العصر القرطاجى واعتبارهما عنصرا مندمجا لحد كبير حاملا للصفة القرطاجية لأول مرة فى تاريخ المغرب . وكما سبقت الاشارة فقد كانت العلاقات البربرية الفينيقية سلمية للغـاية فى هذه المرحلة . ويلاحظ أيضا فى تلك الفترة أن عدد السفن وأفراد الرحلة كان كبيرا للغاية ويشير النص أنه يصل إلى ثلاثين ألف ويصعب تقبل هذا الرقم لما يستوجبه ذلك من تجهيزات ضخمة فى ذلك الوقت الذى يمكن تقدير عدد سكان العاصمة القرطاجية فيه بحوالى ٢٠٠ ألف نسمه . وربمـا كانت هذه المبالغة متعمدة أيضا لأغراض سياسية واقتصادية .

وقد اختلف العلماء فى محاولة تحقيق الاماكن التى أشار اليهـا النص ،

انظر شكل رقم (٩٨) مثل ثاميا تريون والتى كان هناك اتجاه إلى اعتبارها موقع المهدية شمال الرباط فى المغرب الأقصى. ولكن ذكر النص لها أنها بمثابة المركز الأول بعد مضيق جبل طارق يجعل الدارس يحدد مكانها قرب طنجه وليس فى نواحى الرباط. ومما يدعم ذلك أن النص يشير فى الفقرة السادسة إلى نهر لوكوس الذى يوجد عنده موقع ليكسوس مما يجعل الرحلة لاتزال فى الجزء الشمالى الساحلى من المغرب ولم تصل بعد إلى منطقة المهدية. ومن الجوانب التى يلمسها الدارس عملية تشييد القرطاجيين للمعابد فى مراكزهم التى تمكنوا من انشائها وهذا يشمل محاولتهم توطيد حضارتهم فى هذه المواقع الجديدة مما يجعل تبعيتها الحضارية إلى الدولة القرطاجية ويجعل تحقيق الأغراض الاقتصادية أيسر مما لو ظلت على طبيعتها الأولى البربرية. ويؤكد ذلك أيضا الاشارة إلى الفقرة السادسة من هذا النص إلى توصل القرطاجيين إلى علاقة مصادقة ومودة مع أهل ليكسوس تدعيما للكيان القرطاجى فى هذه المواقع. ويشير النص أيضا إلى عناصر بشرية تحمل اسم الاثيوبيين فى الفقرتين السابعة والحادية عشرة. وينبغى على الدارس التفرقة بين الاثيوبيين الشماليين الذين يعتبرون من البربر وكانوا الايزالون فى ذلك الوقت فى مرحلة العصر الحجرى الحديث، وذلك لأن المغرب الداخلى الصحراوى والجبلى كان لاتزال تسكنه قبائل البربر وظلت لحدما فى مرحلة العصر الحجرى الحديث حتى العصر الرومانى، بينما الاثيوبيون الجنوبيون قد تغلبت عليهم الصفة الزنجية بحكم تواجدهم فى المنطقة المتاخمة مباشرة للاقاليم الاستوائية.

ولم يتمكن التراجمة من أهل ليكسوس من التفاهم مع هؤلاء الاثيوبيين الجنوبيين لاختلافهم الكلى عن اخوانهم فى الشمال. ومن الطريف أن فقرات النص التى تعبر عن الظواهر الطبيعية الجبلية والغابية والحيوانية فى الاقاليم التى



شكل رقم (٩٨) خريطة تمثل خطوط سير الرحلات البحرية
والبرية القرطاجية فى غرب أفريقيا .

مرت بها الرحلة تتمشى أوصافها مع طبيعة الاقاليم الافريقية التى لاتزال حتى الوقت الحاضر تحمل لحد بعيد نفس مظاهر تلك الطبيعة . ويشير النص فى الفقرات الثالثة عشر وما بعدها إلى ظاهرة النيران المشتعلة فى فترات غير منتظمة وأحيانا يصاحبها أصوات المزامير والطبول وصيحات التجمعات البشرية من حولها، وهذه تعبر بما لا يدعو إلى الشك عن الاحتفالات القبلية الزنجية التى لا تزال طقوسها تمارس بصورة متفاوته من مكان إلى آخر. وكان لتواجد النيران المشتعلة فيها ما يبرره إما للاضاءة أو لإبعاد القوى الشريرة أو لأغراض الدفء أو العبادة . ولكن الإشارة فى الفقرة السادسة عشرة إلى لهيب النيران المرتفع الذى ، حسب تعبير النص يلامس النجوم، فيرمز ذلك إلى بركان الكاميرون وهو لايزال فى منطقة الكونجو . ومما يؤيد الوصول إلى المنطقة الاستوائية اشارة الفقرة السابعة عشرة من النص إلى الغوريلات التى اعترضت الرحلة وقذفت أفرادها بالأحجار وغيرها من الظواهر التى تتسم بها الحياة الاستوائية .

هذه الرحلة تعتبر جهدا استكشافيا مبكرا فى تاريخ حركات الاستكشاف الإنسانى للعالم وتسبق هذه الجهود الاسبانية والبرتغالية وغيرها فى محاولة الوصول إلى اكتشاف القارة الإفريقية والدوران حولها . ولذلك تعد هذه الخطوة القرطاجية إحدى مآثرهم الخالدة فى تاريخ الإنسانية .

ولم يقتصر القرطاجيون على جهودهم الاستكشافية بقيادة هانو فهناك جهودهم على ساحل أوروبا الغربى بقيادة هملكو Himilco التى تمكن فيها من التعرف على ساحل اسبانيا الغربى وفرنسا الغربى . هذا بالاضافة إلى

جهودهم المتواصلة مع كل من الفرس والمصريين فى محاولة اكتشاف الساحل الافريقى الشرقى ومحاولة الدوران حول القارة الافريقية من الشرق إلى الغرب . ولقد كان لخبرتهم الطويلة بشئون الملاحة البحرية أثرها البالغ فى استخدام كل من الفرس والمصريين لهم فى العمل فى السفن وقيادتها . ومن أشهر محاولات المصريين فى هذا المجال تلك التى حدثت فى عهد الملك المصرى نخاو الذى استمر فى الحكم من ٦١٠ – ٥٩٤ ق.م. وكذلك تكليف الملك الفارسى اكزركسيس لأحد اتباعة وهو ساتاسبس Sataspes بالدوران حول افريقيا من الغرب إلى الشرق كعقاب له مما يؤكد تقدير المخاطر التى تواجه الرحالة فى رحلاتهم هناك . وقد عثر أخيرا على بعض النصوص الفينيقية فى البرازيل والتى يمكن اعتبارها كشواهد على إمكانية وصول الفينيقيين إلى ساحل أمريكا الجنوبية .

ولم تقتصر جهود القرطاجيين على عمليات الاستكشاف البحرية بل لقد نجحوا أيضا فى عبور الصحراء الكبرى من الشمال إلى الجنوب برغم ما اعترضهم من صعاب وأخطار، فقد ذكرت النصوص نجاح رحالة قرطاجى اسمه ماجو فى عبور الصحراء ثلاثة مرات دون الحصول على الماء فى طريقه. ولكن هذه الاشارة الأخيرة تتضح فيها المبالغة ولكنها تؤكد حقيقة عبورهم الصحراء من قرطاج إلى منطقة النيجر والسنغال .

وتعتبر هذه الرحلات مظهراً آخر من النشاط القرطاجى فى الخارج ومحاولتهم استكشاف المناطق الافريقية المحيطة بهم، ويتفق ذلك مع طبيعتهم البعيدة المدى المتوارثة عن أسلافهم الفينيقيين الذين بدأوا هذا الاتجاه

الخارجى فى تحركاتهم ونشاطهم التجارى والسياسى . ولكن على الرغم من هذه السيادة القرطاجيـة فى مختلف المجالات فى المغرب فى ذلك الوقت فقد واجهت الدولة القرطاجية قوة خطيرة حاولت اجلائها عن الأرض المغربية وإحلال نفسها مكانها واشعاع الفرقة بين عنصرين رئيسيين فى الدولة وهما الفينيقيون والبربر وذلك فى صراع رهيب نجح فى نهايته الرومان فى بداية العصر الرومانى فى المغرب .

الفصل الرابع

العصر القرطاجى فى جانبه السياسى

المرحلة الأخيرة

لم تكد الدولة القرطاجية تنتهى من المرحلة الأولى فى تاريخها السياسى وهى الخاصة بالصراع القرطاجى اليونانى حتى بدأت فى الدخول فى مرحلة جديدة فى سجل حياتها السياسية وهى مرحلة الصراع القرطاجى الرومانى، تلك المرحلة التى أنهت الدولة القرطاجية كلية فى المغرب وبدأت بعد ذلك مرحلة الاحتلال الرومانى لشمال أفريقيا . وقبل التعرض إلى حلقات الصراع القرطاجى الرومانى والذى يعرف أيضا بالحروب البونية الأولى والثانية والثالثة ، خلال القرنين الثالث والثانى قبل الميلاد ، تنبغى الإشارة فى بداية الأمر إلى بعض الحقائق الأولية المتصلة بالتاريخ الرومانى والتى تلقى بعض الضوء على البيئات الجغرافية والبشرية المحيطة بالدولة الرومانية الجديدة والتى كانت ذات فاعلية وثيقة خلال حلقات الصدام بالقوة القرطاجية .

بعض الحقائق الأساسية فى التاريخ الرومانى قبيل الصراع مع القرطاجيين:—

لم تكن عمليـة تكوين الدولة الرومانية بالمهمة السهلة بل قد مرت تلك المرحلة بعدة خطوات وصعاب محلية . وقد بدأت تلك الظواهر منذ نشأة مدينة روما على جزيرة فى نهر التيبر حوالى سنة ٧٥٣ ق. م. فقد حتم الموقع الجغرافى الممتاز لتلك المدينة تقلد الزعامـــة السياسية . وبدأت الإشكالات المحلية تواجه مدينة روما من العناصر المحيطة مثل العناصر الإترورية التى كانت

تقطن فى الشمال والعناصر الإيطالية مثل الأومبرية والسابالية شرقى نهر التيبر واللاتينية فى جنوبه وغيرهـا من العناصر الأخرى وبصفة خاصة العناصر اليونانية التى كانت تستحوذ على بعض المستعمرات التجارية الهامة فى جنوب شبه الجزيرة الإيطالية .

وقد بدأ التاريخ الرومانى بصفة خاصة بتمكن العناصر الاترورية من فرض سيادتها على روما فى حوالى القرن السادس ق.م. وذلك بعد أن نجحت العناصر الإترورية فى التوغل نحو الجنوب واجتياز نهر التيبر . ولكن من ناحية أخرى حـدث ضغط بشرى شمالى آخر وهو ضغط الشعوب الغالية ، وأدى ذلك إلى اضطرار الإتروريون إلى التراجع نحو الشمال لصد هـذه الهجمات الجـديدة عليهم . واستطاع الرومان انتهاز تلك الفرصة قرب نهاية القرن السادس ق. م. والتخلص من الحكم الاتروري وتكوين الجمهورية الارستقراطية سنة ٥٠٩ ق. م. [١].

وبدأت مدينة روما توطد علاقاتها مع المدن اللاتينية المحيطة وعقدت معها بعض المعاهدات التى تهدف إلى تحقيق الوحدة الاقليمية تحت زعامة روما . ولكن تلك الوحدة اللاتينية قد واجهت اختباراً عنيفا عندما اتجهت العناصر الغالية إلى غزو روما سنة ٣٩٠ ق. م. ومن الأهمية بمكان الإشارة إلى أن الدولة الرومانية الناشئة فى ذلك الوقت قد اتجهت إلى التحالف مع الدولة القرطاجية سنة ٣٤٨ ق. م. وتتعهد الدولة القرطاجية بمقتضى هذه الاتفاقية ألا تتدخل فى شئون المـدن اللاتينية بل أن تساعد روما على التحكم فى تلك المدن فى

---

(١) عبد اللطيف أحمد على ، روما ، الجزء الاول تاريخ الجمهورية والامبرطورية الرومانية ، القاهرة ١٩٥٨ ، ص ٢٧ .

حالة عصيانها، والواقع ان العلاقات بين الدولة القرطاجية والدولة الرومانية قبل الحروب البونية كانت علاقات يسودها السلام لحد كبير . هـذا وقد العلاقات الرومانية اللاتينية غير مستقرة تماما وذلك فى مرحلة النمو الرومانى تجاه الوحدة الايطالية . واتجهت مدينة روما إلى توسيع دائرة سيادتها فى الأقاليم الإيطالية منتهزة فرصة استنجاد بعض تلك الأقاليم بها مثـل منطقة كامبانيا الذين كانوا قد هددوا من ناحية إقليم سمنيوم. وكذلك من ناحية أخرى فقد اضطرت مدينة روما إلى التدخل بصدد الصعاب التى واجهتها مدينة تارنتوم الرومانية من ناحية السمنيين أيضا والتى أدت إلى اتجاه تلك المدينة إلى الاستعانة بملك إبيروس . وقد أدت هـذه التدخلات، إلى الصدام بين الرومان والسمنيين فى حروب طويلة استمرت فيها السمنية الأولى من سنة ٣٢٦ إلى سنة ٣٠٤ ق.م. كما استمرت الثانية من ٢٩٨ إلى ٢٩٠ ق.م. وقد وصلت الإشكالات المختلفة التى واجهت مدينة روما فى عملية صراعها الداخلى فى سبيل السيادة الرومانية إلى موقف جديد عندما تحالفت العناصر السمنية والاترورية والغالية ضد السيادة الرومانية، ولكن سرعان ما تمكن الرومان من إيقاع الهزيمة بهم فى موقعة سنتينوم Sentinum سنة ٢٩٥ ق.م. (١) .

وقد اكتسبت روما فى عمليات الصراع الداخلى السالفة الذكر عـدة تجارب مكنتها فى المدى البعيد من استخدامها وتحقيق سيادتها فى النهـاية . فقد اتجهت روما إلى اتباع السياسة التحصينية فى عملياتها الدفاعية بأن أقامت نقاط الحراسة فى أماكن متعددة تتصل مباشرة مع القيادة الرئيسية فى مدينة روما ذاتها بواسطة طرق ممهدة تسمح بسرعة الإتصال المباشر .

---

(١) نفس المرجع ، ٤٥ .

وهذا التقليد الرومانى البحت قد استخدمه الرومان فى كافة المناطق التى تحكموا فيها تدعيما لكيانهم السياسى والحربى . ويلمس الدارس بوضوح هذه السياسة الرومانية فى المغرب فى فترة الاحتلال الرومانى والتى سيتعرض لها الفصل التالى . ومن ناحية أخرى تنبغى الإشارة أيضا إلى طبيعة السلوك الرومانى الذى يميل إلى الواقعية البحتة[١] وروح المخاطرة والنزعة الحربية وكان يعمل على تحقيق هذه الخصال فى عملياته السياسية .

وبعد أن فرغت روما من القضاء على أعدائها من الاتروريين والسمنيين والغاليين إتجهت إلى نشر سيادتها فى الجزء الجنوبى من شبه الجزيرة الإيطالية الذى كان خاضعا للنفوذ اليونانى . وقد حدث أن ظهرت شخصية يونانية هامة فى ذلك الوقت وهى شخصيه بيرهوس Pyrrhus على عرش ابيروس وكان يأمل فى تدعيم السيادة اليونانية فى جنوب شبه الجزيرة الايطالية وفى جزيرة صقليه ويوقف كل من النفوذ الرومانى والقرطاجى فى غربى البحر الأبيض المتوسط. وقد انتهز بيرهوس فرصة تأهب الدولة الرومانية إلى تدعيم سيادتها على الجنوب وحدث أن طلبت مدينة تاريتتوم اليونانية النجدة فتقدم نحو تلبية هذا الطلب أملا فى نفس الوقت تحقيق غرضه البعيد المدى . ولكن هذا التدخل اليونانى الجديد سرعان ما حول الموقف من معركة محلية إلى صراع دام بين القوى الكبيرة فى غربى البحر الأبيض المتوسط . وفى بداية الامر انتصر بيرهوس فى معركة هرقليا سنة ٢٨٠ ق.م. ، عندما استخدم الفيلة فى إثارة الرعب والذعر فى نفوس الرومان مما أزعج مجلس الشيوخ الرومانى. ولم يستكمل بيرهوس تقدمه بعد ذلك نحو روما ذاتها بل اتجه نحو جزيرة

(١) نفس المرجع ، ٦ .

صقلية لمساعدة العناصر اليونانية ضد القرطاجيين هناك. وزاد هذا التدخل الموقف تعقدا فى جزيرة صقلية ولكن حسم الموضوع قد تم على يد الرومان الذين اشتبكوا فى معركة نهائية معه فى موقعة بنفنتوم سنة ٢٧٥ ق.م. والتى انتهت بانتصار القوات الرومانية وتحقيق سيادتها على شبه الجزيرة الإيطالية. ومهد ذلك نحـــو تحقيق الزعامة الرومانية وظهور روما كدولة قوية جديدة وخطيرة فى المنطقة. وكان من المنتظر تغير العلاقات السلمية بين تلك الدولة الرومانية والقرطاجيين لتنازع كل منهما حول السيادة السياسية والحــربيه والاقتصادية فى غربى حوض البحر الأبيض المتوسط. وقد حدث ذلك فعلا فى مراحل الصراع القرطاجى فى أثناء الحروب البـــونية الأولى والثانية والثالثة.

الحرب البونية الأولى :

كان من المتوقع كما سبقت الإشارة تصادم القوتين الرئيسيتين فى منطقة غربى البحر الأبيض المتوسط وهما القوة الرومانية والقوة القرطاجية حول السيادة السياسية والاقتصادية فى المنطقة. ولم يكن هذا التصادم مقتصرا على مرحلة واحدة بل لقد تعددت جوانبه فى عدة حروب برية وبحرية فى المغرب وفى صقلية وفى أسبانيا وفى ايطاليا، وتعرف تلك الحروب باسم الحروب البونية Bellum Punicum وذلك أثناء القرنين الثالث والثـانى قبل الميلاد. أما الحرب البونيـة الأولى فقد استمرت من سنـــة ٢٦٤ إلى ٢٤١ ق.م. وتضمنت عدة معارك فى جزيرة صقلية وفى الأرض المغربية. وقبل التعرض إلى الأسباب المباشرة لهذه الحرب وبعض معالمها الرئيسية تنبغى الإشارة مرة أخرى إلى أن العلاقات القرطاجية الرومانية لم تكن من السوء بدرجـة

تحتم هذا التصادم الحربى الهائل ، بل كانت تلك العلاقات يسودها السلام قبل هذه الحرب . وقد دعم هذا السلام بالمعاهدات التى تحدد نشاط كل طرف فى المنطقة تأكيداً لعدم تواجد دواع للصدام بينهما . هذا بالإضافة إلى أن هذه العلاقات السلمية قد وصلت إلى درجة تقبل قرطاجة مبدأ مساندة روما فى حالة تعرضها لبعض الإشكالات فى سبيل سيادتها فى شبـــه الجزيرة الإيطالية . وترجع سجلات هـــذه الاتفاقيات السلمية إلى القرن السادس والرابع قبل الميلاد . ولكن هذه العلاقات سرعان ما توترت بسبب عـدم إستقرار الأوضاع السياسية فى جزيرة صقلية وهى نفس الأسباب التى كانت من عوامل التصادم بين القرطاجيين واليونانيين . وكان التقليد الذى تتبعـه المدن الصقليةهو طلب الاستعانة تارة بالقوة القرطاجية وتارة أخرى بالقوة الرومانية حسب تقدير مدى القوة الفعلية الحربية والسياسية فى وقت طلب المساعدة . ولا ينبغى على المؤرخ فى نفس الوقت تجاهل سياسة كلا القوتين القرطاجية والرومانية فى الرغبة الملحـــة فى التوسع والسيادة الاقتصادية والسياسية على حساب المدن الصقلية من ناحية والقوى المنافسة من ناحية أخرى. وقد ظهر ذلك عندما حاولت مرة أخرى مدينة سيراكيوز أن تحتل دور الزعامة فى جزيرة صقلية ولم يكن ذلك يتفق مع رغبـة مدن أخرى صقلية مثل أكراجاس التى استعانت بالدولة القرطاجية . وقد اتصف الموقف السياسى فى ذلك الوقت بالنسبة إلى تلك الازمة الطارئة بالصفة الدوليـة لأنه قد اشتركت فيه عدة قوى مثل القرطاجيين واليونانيين والصقليـين والرومان ، وكل طرف من هذه الأطراف له مراميه السياسية الخاصة . وبدأت الأزمة فى التواجد عندما اتجه الملك بيرهوس Pyrrhus ملك إبيروس Epirus الواقعة فى غربى بلاد اليونان والمطلة على الجزء الجنوبى من البحر

الإدرياتيكى فى التدخل فى هذه المشكلة سنة ٢٧٨ ق.م. وكان يتميز بشخصيته الطموحة الراغبة فى التشبه بالإسكندر الأكبر [١]. ومن ناحية أخرى حاول القرطاجيون الاطمئنان إلى موقف الرومان من هذه الأزمة ولكن تدخل بيرهوس قد غير ميزان القوى التقليدى فى المنطقة، بل لقد وصل الأمر إلى تطور خطير عندما اتجه بيرهوس إلى تهديد الدولة القرطاجية فى عقر دارها مقلداً بذلك بعض الساسة اليونانيين الذين حققوا إلى حد ما خطتهم هذه .واستعد بيرهوس فعلا لهذا الهدف ولكن اضطراره إلى العودة إلى جنوب ايطاليا قد حال دون ذلك . وكان الموقف من وجهة النظر الرومانية يحتم ضرورة تحرير الجنوب الايطالى من القوى الدخيلة ونشر السيادة الرومانية على كافة أجزاء شبه الجزيرة ، وتمكن الرومان فعلا من الانتصار على بيرهوس فى الجنوب وبذلك انحصرت القوى الرئيسية المتنافسة فى غربى البحر الأبيض المتوسط على الرومان والقرطاجيين . وأصبحت عوامل التصادم المباشر بين هاتين القوتين قوية لأن الدولة القرطاجية قد اتجهت إلى محاولة فرض سيادتها الكلية مرة أخرى على جزيرة صقلية منتهزة فرصة رجوع بيرهوس وتوقف المساعدة اليونانية لمدينة سيراكيوز . وقد دعم هذا الكيان القرطاجى تقبل مدينة مسينا فى شمال جزيرة صقلية السيادة القرطاجية . وكانت روما تعتبر ذلك تهديداً لأمنها فى حدودها الجنوبية لأن مدينة مسينا تتاخم السواحل الجنوبية لشبه الجزيرة الايطالية . هذا بجانب تحكم القرطاجيين فى جزيرة سردينيا مما يمكن اعتباره أيضا من وجهة النظر الرومانية مصدر تهديد غربى للأمن الرومانى ، وقد ازدادت دوافع

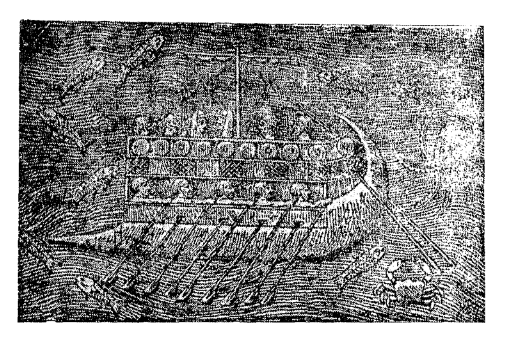
---

(١) عبد اللطيف احمد علي ، نفس المرجع ، ٤٩ .

التدخل الرومانى فى الموقف عندما حدث اتفاق تحالف بين هـــيرو حاكم سيراكيوز وبين الدولة القرطاجية ضد الرومان . وكان قد حدث أن تمكنت مجموعة من الجنود المرتزقة الإيطاليين والذين كانوا فى خدمة ملك سيراكيوز من دخول مدينة مسينا والإستيلاء عليها ولكن هذا الوضع اعتبره كل من هيرو والقرطاجيين شاذاً وينبغى التوجه مباشرة لإنهائه ، لأنه يعتبر خطراً جديدا على السيادة القرطاجية فى الجزيرة وكذلك على مدينة سيراكيوز . ولكن هؤلاء المرتزقة الإيطاليين تنبهوا إلى القوة الرومانية الشابة فى المنطقة واتجهوا إلى طلب معاونتها وتدخلها لإنقاذهم قبل أن يتدخل القرطاجيون ويتحكموا فى الموقف . وإزاء هذا التطور السريع عدل الملك هيرو سياسته من التحالف مع القرطاجيين إلى التحالف مع الدولة الرومانية التى أبدت استعدادها للتدخل الفعلى ومساندة الايطاليين فى مسينا وأرسلت قواتها التى تقدمت نحو سيراكوز ذاتها مما اضطر القرطاجيون إلى الإنسحاب من هـذا الموقف الحرج والاستعداد للمعارك القادمة مع الرومان ، وبذلك بدأت الحرب البونية الأولى .

كانت هذه الحرب بحرية الطابع بوجه عام وعلى الرغم من الخبرة الأولية المحدودة للرومان فى المجـــال البحرى فقد تفطنوا إلى ضرورة تجهيز قوات بحرية مستعدة لمواجهة القوة القرطاجية المتدربة على الملاحة البحرية بصورة ماهرة منذ أجدادهم الفينيقيين . ولذلك انتهـز الرمان فرصة استيلائهم على إحدى السفن الحربية القرطاجية وتمكنوا من تقليدها وعلى نطـاق واسع مستكملين بذلك أسطولهم المجهز بالأسلحة اللازمة للحروب البحرية ، فقد كانت السفن الرومانيـة مجهزة بالطوابق اللازمة للمجذفين يصل بعضها إلى خمسة طوابق والبعض الآخر إلى أقل من ذلك ولكن هـــذا التسليح الرومانى

البحرى لم يكن ليصل إلى درجة التسليح القرطاجى حيث كانت السفن القرطاجية تتميز بسرعتها وقدرتها على الدوران والتوجه بخفة نحو أهدافها، أنظر شكل رقم (٩٩) . وتمكن الرومان من تعديل صناعاتهم للسفن الحربية على إثر اكتسابهم لعدد من التجارب فى هذا المجال وحتى تتمشى مع تحقيق الانتصار فى العمليات البحرية الحربية. وكذلك اتجه القرطاجيون إلى الاستعداد من ناحيتهم بتجهيز قواتهم من الجنود المرتزقة بقيادة هانو ثم هملكار ثم هانيبال من بعده وتركزت تلك القوة القرطاجية بمدينة أكراجاس بجزيرة صقلية . ولم يهمل القرطاجيون



شكل رقم (٩٩) مثال لسفينة حربية قرطاجية

أيضا قوتهم البحرية المكملة لقواتهم البرية والتى توفر لهم الإمدادات والتموين اللازم، وواجهت القوى الرومانية والقرطاجية بعضها بعضا سنة ٢٦٢ ق.م. فى ليبارا ثم فى ميلاى بجوار مسينا وتمكنت القوة الرومانية من الانتصار فى هذه المعركة البحرية . وقد استمرت المصادمات القرطاجية الرومانية فى هذه الحرب تتأرجح بين الانتصار والهزيمة ، فبعد نجاح الرومان السالف الذكر

سرعان ما واجهتهم الهزيمة فى موقعة ترماى سنة ٢٥٩ ق. م. ولكن هذه المناوشات والسجال بين الطرفين لم يصل إلى نتيجة حاسمة إلا عندما أتجه الرومان إلى محاولة نقل الجبهة الحربية بصورة مؤقتة من المجال البحرى إلى المجال البرى على أرض المغرب ذاتها متبعين نفس التقليد اليونانى السابق الإشارة إليه فى هذا الصدد ، وذلك سنة ٢٥٦ ق. م.

واتجهت القوة الرومانية الجديدة بقيادة القنصلين م. فالسو M. Vulso و ا . رجولوس A. Regulus فى طريقها إلى الشاطىء المغربى . وعلى الرغم من محاولة القرطاجيين الوقوف فى طريقهم فقد نجح الرومان فى تفادى ذلك والانتصار على القرطاجيين والرسو بالقوة الرومانية فى أسبس Aspis شرقى عنابه . وقد أحدث هذا الوضع الجديد اضطراباً شديداً فى أرجاء الدولة القرطاجية لأن الرومان أصبحوا فى موقف يهدد الأمن القرطاجى بصورة مباشرة . ولكن من ناحية اخرى لم يكن من السهل على الرومان فى تجربتهم الجديدة تموين قواتهم فى الجبهة الغربية لمدة طويلة ، ولذلك لم يتمكن الرومان من الاستمرار فى المغرب . وقد عجل القرطاجيون بمضاعفة استعداداتهم العسكرية لمواجهة هذا الخطر الحاسم فاستدعى هملكار من صقلية وانتخب قائدان جديدان هما هزدروبال بن هانو وبوسكار للقيام بدور القيادة القرطاجية ، كما استدعى أيضا الأسطول القرطاجى لتدعيم الدفاع عن العاصمة القرطاجية . وتقدم القائد الرومانى رجولوس نحو تونس فى طريقه إلى قرطاج العاصمة ، وكذلك اتجهت القوة القرطاجية محاولة إيقاف الرومان ولكن هؤلاء الأخيرين نجحوا فى الاستيلاء على تونس . ومن التطورات الهامة فى هذا الموقف المتحرج انتهاز البربر هذه الفرصة ومحاولتهم الثورة ضد القرطاجيين وكان هذا الشعور من ناحية البربر يتفق مع نزعتهم الجديدة

الاستقلالية والهادفة إلى التخلص من النفوذ القرطاجى واليونانى والرومانى كذلك فيما بعد. وكانت العلاقات بين القرطاجيين والبربر مسالمة للغاية منذ استقرار الفينيقيين واندماجهم معهم فى المغرب ، ولكن المعاملة القاسية التى عومل بها البربر من الجنود المرتزقـة فى بعض المواقف وكذا التأخر فى دفع الأجور المستحقة لهم ، قد أثار نفوسهم وحفزهم نحو الاحتجاج ضد القرطاجيين منتهزين فرصة تأزم الموقف تجاههم . ولكن على الرغم من هـذه الصعاب الكثيرة فقد تمكن القرطاجيون من إنقاذ الموقف وذلك بالاستعانة بشخصية يونانيـــة اسبرطية خبيرة بالشئون الحربية وهى شخصية اكسانثيبوس Xanthippus . فقد أبدى هذا القائد اليونانى استعداده لتدريب القرطاجيين وتعديل خططهم الحربية بدرجة متفوقة تمكنهم من الانتصار فى معاركهم القادمة مع الرومان . وكان هذا التخطيط الجديد عاملا مباشرا فى استعادة القرطاجيين لسيادتهم فى المغرب وإيقاع الهزيمة بالرومان بل وأسر قائدهم رجولوس سنة ٢٥٥ ق. م. وبذلك تبـدل الموقف مرة أخرى وأصبحت للدولة القرطاجية مكانتهـا فى المنطقة . وعلى الفور اتجه القرطاجيون إلى استكمال قواتهم وتنظيمها من جديد استعداداً للعمليات الحربية المنتظرة مع الرومان . ولم يكن من السهل على الرومان تقبل الهزيمة بهذه الصورة الشديدة فاتجهوا مرة أخرى سنة ٢٥٣ ق م ، إلى الساحل القرطاجى ، ولكن محاولاتهم لم يتحقق لها النجاح ولذلك اقتصروا على المجال الصقلى ولو بصورة مؤقتة . وفى هذه المنطقة الأخيرة تمكنوا من إحراز الانتصار على القرطاجيين الذين حاولوا تدعيم نفوذهم فى صقلية بمهاجمة أحد المراكز الرومانية فى غربى الجزيرة وهى مدينة بانورموس Panormus وذلك بقيادة هزدروبال . وبذلك اختل ميزان القوى السياسة مرة أخرى وتصادمت القوتان القرطاجية والرومانية

فى المجال البحرى وتمكن القرطاجيون من أسر عدد من السفن الرومانية ، ومع ذلك فقد اتجه القرطاجيون أيضا إلى زيادة تدعيم قواتهم فى صقلية ، فأرسلت قوة قرطاجية جديدة بقيادة كارثالو Garthalo وتقدم على إثر ذلك القنصل الرومانى ا . بولوس Pullus إلى التصدى إلى هذه القوة القرطاجية ونجح الرومان فى إيقاع كارثالو بقواته بين قوتين بحريتين رومانيتين [١] . ولكن ذلك لم يؤد إلى إنهاء هذه الحروب البحرية إلا فى المعركة التالية عندما استعد الرومان بعد تجاربهم الطويلة فى المجال البحرى استعدادا كبيرا وواجهوا القرطاجيين بها . وكان القائد الرومانى لتلك القوة هو القنصل كاتولوس Catulus كما كان القائد القرطاجى البحرى هو هانو بينما القائد القرطاجى للقوات البرية هو هملكار برقه . وتمكن كاتولوس من إيقاع الهزيمة البحرية بالقرطاجيين واضطر هملكار برقه إلى عقد اتفاقية سلام مع الرومان دفعت فيها الدولة القرطاجية ثمناً بالغاً لهزيمتها ، فقد نصت هذه المعاهدة على جلاء القرطاجية عن صقلية والالتزام بعدم مهاجمة سيراكيوز وكذلك التعهد بدفع غرامة كبيرة وذلك سنة ٢٤١ ق . م . وبذلك انتهت الحرب البونيـة الأولى بانتصار الرومان فى المجال البحرى على القرطاجيين وفرض سيادتهم على جزيرة صقلية بل لقد انتهز الرومان فرصة اندحار الدولة القرطاجية وانشغالها بالاضطرابات الداخلية التى ظهرت على اثر انتهاء الحرب مباشرة ، وهى ثورات العناصر البربرية ضد القرطاجيين والتى اختارت فرصة ضعفهـا للحصول على حقوقهم والتمهيد لسيادتهم المستقلة ، واتجهت الدولة الرومانية إلى التحكم فى جزيرتى سردينيا وكورسيكا مؤمنة جانبها الغربى كما سبق أن أمنت جانبها الجنوبى .

---

(١) Warmington, op. cit. 160.

وبذلك تغير الموقف الدولى على إثر هذه الحرب البونية الأولى وأصبحت الدولة القرطاجيـة محدودة النشاط فى نطاقها البحرى الشمالى ولذلك اتجهت نحو جبهة جديدة تتمكن فيها من تحقيق سيادتها الاقتصادية والسياسية بعيده نسبيا عن المنافسة الرومانية وهذه الجبهة هى منطقة أسبانيا . ولكن الرومان لم يتركوا القرطاجيين منفردين فى هذه الجبهة بل استمروا فى تعقبهم لهم فيها.

ويمكن للدارس محاولة تفسير فشل القرطاجيين فى الحرب البونية الأولى أمام الرومان إلى عدة عوامل ، أولها يتصل بظاهرة خطيرة فى تاريخ المغرب فى العصر القرطـاجى وهى أن العنصر الفينيقى الذى نجح فى الاستقرار فى المغرب ونقل حياته إلى العصر التاريخى بمختلف مظاهره والتأثير فيه والتأثر به فى كافة المجالات الاقتصادية والحضارية والسياسية والاجتماعية لم يكن على درجة الإندماج الـكلى مع العنصر البربرى أثناء العصر القرطاجى ولم يكن من التكامل الكلى والجزئى بدرجة تجعل منها شعباً قرطاجيا واحداً فى ذلك الوقت . وكانت بعض العناصر البربرية قد اندمجت فعلا داخل إطـار الدولة القرطاجية ولكن البربر فى جملتهم لم يدخلوا تحت هذا الإطار . وربما يرجع ذلك إلى استمرار احتفاظ القرطاجيين بطبيعتهم الفينيقية الأولى وهى الطبيعية البحرية التجارية مع وجود بعض محـاولات للنفوذ داخل القارة الافريقية، ولكن كانت الطبيعة البحرية هى الغالبة مما قلل من ظاهرة الإندماج الكلى مع البربر . هـذا بالإضافة إلى استخدام القرطاجيين للبربر كجنود مرتزقة فى الجيش والبحرية القرطاجية وبصفـة خاصة فى سلاح الفرسان لمهارتهم التقليدية فى ركوب الخيـــل والعدو . ولكن حدث كما سبقت الإشارة، أثنـاء مراحل الصراع القرطاجى اليونانى وكذلك الصراع القرطاجى الرومانى بعض مظاهر القسوة فى المعاملة، ووضعهم فى المقدمة ،

وكذلك تأخير أجورهم المستحقة . كل ذلك قد أثار هذا العنصر الرئيسى فى العصر القرطاجى ودفعه نحو الثورات المتتالية ضد القرطاجيين بل التحالف فى بعض المراحل مع الرومان ضد القرطاجيين ثم محاولة الاستقلال الكلى والتخلص منهما .

ثانى تلك العوامل يمكن إرجاعه إلى حقيقة عدم وجود جيش قرطاجى دائم منظم ومدرب لأداء وظيفة الدفاع عن الوطن . فان ظاهرة استخدام الجنود المأجورين وقت الحاجة تجعل احتمالية الإنتصار وتوقفه على الوفاء بأجور هؤلاء الجنود واختيار اللائقين منهم وكذلك عمليات تدريبهم على الأسلحة المختلفة وخاصة لأنه فى تلك الفترة بدأت تتطور تلك الأسلحة تطوراً كبيرا يمكن اعتباره عاملا حاسما فى الإنتصارات الحربية والبحرية مثل المجانيق الكبيرة للقذف بالكتل الحجرية على أسوار المدن وكذلك الكلبشات الحديدية القلابة للسفن وكذلك استخدام إنعكاسات الأشعة الشمسية على المرايا واستغلال ذلك فى إشعال الحرائق فى السفن وتجمعات العدو .

وثالث تلك العوامل يرجع إلى عدم استقرار الأوضاع الداخلية السياسية داخل الدولة القرطاجية فلا يزال هناك النزاع التقليدى بين طبقات المجتمع حول الثروة فبينما يتجه البعض إلى الثروة المعتمدة على نتاج الأراضى الزراعية يتجه البعض الآخر إلى المكاسب الآتية من التجارة المعتمدة على الأسواق التى يلزمها الإبحار الدائم والاستيراد والتصدير وما يتصل بها من عمليات بيع وشراء . وكذلك هناك رجال الجيش وطبقات الشعب الأخرى . وتنافست بعض هذه الطبقات بل وتنافس بعض القادة حول

السيادة السياسية مما أدى إلى عدم وجود وحدة الرأى السياسى القرطاجى. وقد أثرت هذه المنازعات السياسية الداخلية على العمليات الحربية فكانت من أسباب تعطيل الانتصارات لعـدم الموافقة على إرسال الإمدادات فى الوقت المناسب بسبب هذه المعارضة . وكان لكل جانب حزبه من أعضاء مجلس الشيوخ القرطاجى مما يؤدى إلى انقسام المجلس وعدم الوصول إلى رأى نهائى موحد بصدد إحدى السياسات المعروضة على المجلس . وقد نتج عن هذه العوامل الثلاثة عدم نجـاح القرطاجيين فى إحراز الانتصار على الرومان ليس فقط فى الحرب البـــونية الأولى بل فى الثانية والثالثة .

وقد كانت الفترة الواقعة بين الحربين البونيتين الأولى والثانيـة من الفترات التى تجلت فيها هذه العوامل السالفة الذكر . ففيما يتعلق بخطورة عدم التجانس بين البربر والقرطاجيين والتأخر فى دفع الأجـــور بالنسبة إلى الجنود المرتزقة فقد تجلى ذلك عندما اتجه أحد الجنود المرتزقة وهو ماثو Matho ومعه أحد العبيد الفارين واسمه سبنديوس Spendius إلى دفـــع نفوس البربر نحو الاحتجاج والثورة ضد القرطاجيين داخل نطاق الدولة القرطاجية، وأيضا فى المجال القبلى حتى تكون ثورة البربر لها الصفة الجماعية الشاملة مما يساعد على النجاح . ووصلت هذه الثورة إلى درجة التمكن من مهاجمة القرطاجيين وإجبارهم على الانعزال داخل أسوار مدنهم . وتسلم هملكار برقة زمام القيادة القرطاجية وتمكن أخيراً من الإنتصار وإيقاف هذه الحركة البربرية الانفصالية . ومن أهم الظواهر التى تجدر الإشارة اليها هى أن بعض البربر كانوا لا يزالون يحملون جانب التعاون والتجانس مع

القرطاجيين وكان على رأسهم ناڤاراس Navaras[1]. وكان ذلك من الأسباب المباشرة فى التعجيل بانتصار هملكار برقة .

وكذلك مثال آخر لظاهرة النزاع السياسى الداخلى القرطاجى فى تلك الفترة ذلك التنافس بين كل من هانو وهملكار حول الزعامة السياسية فى ذلك الوقت ، والذي انتهى بتمكن هملكار برقة من الاستحواذ على الزعامة القرطاجية . وقد انتهز البربر مرة أخرى هذه الأزمة السياسية الداخلية وحاولوا القيام بحركة حربية ضد العاصمة القرطاجية ، ونجحوا إلى حد كبير فى تهديد الكيان القرطاجى ووصلت حالة القرطاجيين إلى درجة شديدة من السوء وقت محاصرة البربر لمدينتهم حتى أن الحاجة الملحة إلى الطعام بين الجنود المرتزقة فى الجيش القرطاجى قد دفعتهم نحو العودة إلى بعض العادات القبلية الأفريقية فى عصور ما قبل التاريخ وهى أكل لحوم البشر Cannibalism [2] . ولم ينقذ الموقف غير براعة هملكار برقة ، أنظر شكل رقم (١٠٠) ، فى استخدامه وسائل التحايل على البربر حتى سنحت له الفرصة المناسبة والتحكم الكلى فى الموقف الحربى وانهاء هذه المحاولة البربرية وإعادة السيادة القرطاجية . ومع ذلك فقد استمر القرطاجيون فى صراعهم المرير ضد الرومان محاولين تعويض خسائرهم فى الحرب البونية الأولى وذلك بالاتجاه إلى شبه جزيرة أيبيريا كمحاولة لاتخاذها كقاعدة جديدة ضد الرومان والانتقال منها بالطريق البرى إلى شبه جزيرة ايطاليا .

وكانت المبررات الأولية لاتجاه القرطاجيين إلى شبه جزيرة أيبيريا

---

(١) *Ibid.*, 166.

(٢) " " "



شكل رقم (١٠٠) هملكار برقة

تنحصر فى الأغراض الاقتصادية واستغلال الخـــامات النحاسية والفضية الكائنة هناك . ولكن الواقع أن هملكار عندما اتجه إلى أسبانيا كان يهدف أيضا إلى تحقيق هذه القاعدة العسكرية الجديدة ، فقـد عمل على تكوين قوة حربية من العناصر المرتزقة الأيبيرية واستخدام الثروات النـــاجمة عن استغلال المعادن فى إجتذاب المتطوعين بالانخراط فى قواته العسكرية، وكان يبرر هذه التصرفات للرومان على اعتبار كونها تهدف إلى استكمال القدرات المالية القرطاجية للتمكن من دفع التعويضات المستحقة للرومان بعد الحرب البونية الأولى .

وبعد وفاة هملكار سنة ٢٢٨ ق.م. أثناء إحدى العمليات الحربية فى أسبانيا تسلم زمام القيادة هزدروبال أو كما يسمى صدر بعل . وكان يختلف كلية فى شخصيته عن سلفه لأنه كان يفضل الوسائل السلمية بدلا من الحربية فى تعامله مع العناصر الأيبيرية . وقد دعم اتجاهه هذا بأن تزوج بابنة أحد الرؤساء الأيبيريين . وكان لهذه الخطوة أثرها البالغ فى تقبل الأيبيريين للسيادة القرطاجية . ومن أهم أعماله أيضا تدعيما للسيادة القرطاجية فى أسبانيا تأسيسه مدينة قرطاجنة أو قرطاجة الجديدة Carthage Nova أو Carthagena .

وقد نتج عن ذلك تذمر الرومان على إثر ازدياد ميل الأيبيريين للجانب القرطاجى ، ومع ذلك فلم يتفرغ الرومان لمعاودة صراعهم ضد القرطاجيين فى أسبانيا بسبب إنشغالهم المباشر فى صراع آخر فى شمال شبه الجزيرة الايطالية مع العناصر الغالية . وحسما لإحتمالية تحالف القرطاجيين مع الغاليين ضد الرومان ، فقد اتجه الأخيرون إلى عقد معاهدة مع القرطاجيين سنة ٢٢٦ ق.م. ، فحواها السماح للقرطاجيين بالتوسع فى شبه جزيرة ايبيريا على ألا يتخطوا نهر إبروشمالا بأية حال من الأحوال . ورغم هذا الاتجاه السلمى للقائد هزروبال فقد قتل على أيدى أحد الأيبيريين .

وتولى زمام القيادة القرطاجية بعده هانيبال العظيم أو كما يسمى أيضا حنبعل Hannibal . وسرعان ما بدأ طوراً جديداً فى العلاقات القرطاجية الرومانية بمجىء هذه الشخصية الشابة القوية الطموحة باصرار لتحقيق سيادة القرطاجيين والانتقام من الرومان . وقد عمل هانيبال على تنفيذ قسمه الذى ربطه به والده هملكار برقه وهو أن يعمل على تحقيق الانتصار وأن يبغض الرومان وينتقم لبلاده منهم مدى الحياة مما أدى إلى نشوب الحرب البونية الثانية .

الحرب البونية الثانية :

تعتبر هذه الحرب حلقة أخرى من حلقات المنافسة الشديدة بين القوتين القرطاجية والرومانية حول السيادة السياسية والاقتصادية فى حوض البحر الأبيض المتوسط. ولذلك فأسباب هذه الحرب البونية الثانية التى امتدت من سنة ٢١٨ ق م. إلى سنة ٢٠١ ق. م. ترجع فى صورتها العامـــة إلى نفس الدوافع المؤدية إلى الحربين البونيتين الأولى والثالثـة ، ولكن كانت هناك بعض الأسباب المباشرة فى هذا الصدد . وكان ذلك عندما اتجه هانيبال إلى الاستمرار فى متابعة تأكيد السيادة القرطاجية داخل شبه الجزيره الأيبيرية استكمالا للعمليات التى سبق أن بدأها والده . ولم يقابل ذلك بعين الرضا من وجهة النظر الرومانية لانه يعتبر بمثابة تأكيد للقاعدة القرطاجية الجديدة فى غربى البحر الابيض المتوسط ، مما يؤثر على الكيان الرومانى الذى خرج عن الإطار الإيطالى البحت واتجه نحو السيادة الرومانية فى المنطقة . وقد بدأ الرومان بمحاولة استخدام الوسائل السلمية الدبلوماسية فى هـذا الصدد فأرسلوا سنة ٢٢٠ق. م. بعثة إلى هانيبال تهدف إلى التفاوض معه كمحاولة للحد من استمرار توسعه فى أسبانيا ، ولو أنها فى صورتها المباشرة كانت ترمى إلى مساندة مدينة ساجنتوم Saguntum شمال قرطاجنة ، والتى أبدت ميلهـا نحو الرومان ، ضد النفوذ القرطاجى الهادف إلى التحكم فى كافة أرجاء شبه الجزيرة الأيبيرية . ولم يكن من السهل على القائد هانيبال تقبل وجهـة نظر البعثة الرومانية على التو ولذلك رفضها واتجه سنة ٢١٩ ق. م. إلى إقامـة الحصار حول هذه المدينة تمهيدا للتحكم فيها . ومن الأهمية بمكان الإشارة فى هذا الصدد إلى مثال آخر من أمثلة اختلاف وجهات النظر بين الساسـة

القرطاجين حتى فى الأوقات الحرجة، فقد اتجه هانيبال إلى التعرف على وجهة نظر العاصمة القرطاجية فى مسألة البعثة الرومانية قبل الإقدام على عمليات حربية، ولكن الحزب الكامن فى قرطاج بقيادة هانو أبدى معارضته على وجهة نظر هانيبال ، وعلى الرغم من ذلك فقد اتجـــه هانيبال إلى تحقيق رأيه معتمداً على قوته العسكرية وزعامته وشخصيته الفذة وتحكمه فى الموقف فى هذه القاعدة القرطاجية الجديدة . وكان هانيبال يدرك النتائج المباشرة لتصميمه الأخير، فاتجه بقواته الى شمال اسبانيا وعبر نهر ابرو مخالفا بذلك الاتفاقية مع الرومان ، مما أدى إلى نشوب الحرب البونية الثانية . والواقع أن القوة القرطاجية البحرية قد ضعفت كثيراً بعد الحرب البونية الأولى ، ولم يكن أمام الدولة القرطاجية غير إتباع الخطة المبنية على أساس مهاجمة روما بواسطة الطريق البرى بدلا من الطريق البحرى ، ولذلك كانت عملية تأسيس المراكز القرطاجية العسكرية فى أسبانيا ذات فائدتين إحداهما اقتصادية والأخرى حربية .

ويمكن للدارس أن يقسم الحرب البونية الثانية بين القرطاجين والرومان إلى جبهتين رئيسيتين هما الجبهة الأوربية والجبهة الأفريقيه أو بالأحرى المغربية. وفيما يتعلق بالجبهة الأوربية فقد التحم القرطاجيون فى عدد من المعارك الشديدة مع الرومان منذ الخطوة الأولى البـادئة بخروج هانيبال وجيشه سنة ٢١٨ ق. م. فى طريقه إلى شبه جزيرة إيطاليا . ولقـد سبق لكل من اليونانين والرومان تهـديد الدولة القرطاجية فى عقر دارها ، وثبتت خطورة هذه الخطة الحربية وتهديدها المباشر للكيان القرطاجى ولذلك اتجه هانيبال إلى تحقيق نفس الخطة فى مهاجمته للدولة الرومانية . وكان عامل

السرعة من أهم العوامل المؤثرة فى الموقف لأن التأخر الزمنى فى تحقيقها يعنى احتمال قيام الرومان بنفس الخطة تجاه القرطاجيين فى الغرب، وبذلك يفشل هانيبال فى عمليته الحربية . وقد أدى ذلك إلى تعجيل هانيبال بتنفيذ خطته رغم مايكتنفه الطريق نحو روما من صعاب شديدة وبصفة خاصة بجبال الألب والقبائل التى لا تزال على طبيعتها البرية فى تلك المنطقة، هذا بالإضافة إلى مقاومة الرومان . ونجح هانيبال فى تحقيق خطته ولم يتوان الرومان عن محاولة إيقاف هانيبال وجيشه الزاحف فبعثـوا بالقنصل الرومانى سكيبيو P. Cornelius Scipio لكى يقوم بمقاومة هانيبال من ناحية وأيضا لكى ينتهز فرصة طول خطوط مواصلات وتموين العدو ويحاول استغلال ذلك فى حرمانه من عمليات الامدادات والتموين مما يؤدى إلى فشله . ولم يكن هانيبال من القادة ذوى الخبرة المحدودة بل كانت لديه تجاربه وقدراته التى سمحت له بالنجاح فى تجنب محاولة سكيبيو السالفة الذكر والإفلات منها ببراعة . ولا يعنى ذلك عدم تكبد هانيبال لأية خسائر مادية أو بشرية فقد كانت صعوبة الطريق وطول المسافة والحالة الجوية من الأسباب التى انهكت قواته من الجنود المرتزقة وبصفة خاصة من العناصر الغالية . أما عن موقف سكيبيو بعد فشله فى ملاقاة هانيبال فقد اضطر إلى العودة إلى إيطاليـا لمقابلته هناك . وفعلا تقابلت القوتان فى معركة شديدة عند نهر تربيا Trebbia وقد تمكن القرطاجيون فيها من إحراز الإنتصار ، وكان لهذا الفوز الأول أثره البالغ فى هذه المرحلة من الصراع القرطاجى الرومانى . وذلك لأن أعداء الرومان لم يقتصروا فى ذلك الوقت على العناصر القرطاجية بل لقـد كانت هنالك العناصر الغالية التى كانت تنتهز الوقت المناسب للزحف على روما

وإنهاء السيادة الرومانية ، وكذلك كانت هناك بعض العناصر الإيطالية الأخرى مثل العناصر السمنية فى الجنوب والتى كانت تريد التخلص من الزعامة الرومانية على الوحدة الإيطالية . ولذلك فقد كان انتصار هانيبال على الرومان فى شمال إيطاليا حافزاً على تشجيع هذه العناصر المعارضة لروما فى الاستمرار على اتجاهاتها السياسية بل وتأييد هانيبال فى عملياته الحربية .

والواقع أن هذه الظاهرة السياسية من الأهمية بمكان لأنها توضح إيجابية سياسة هانيبال فى عملياته الحربية ضد الرومان لأنه حسب وجهة نظره كان يرمى إلى تحقيق الفرقة والانقسام داخل الوحدة الإيطالية تحت الزعامة الرومانية وبذلك يتمكن من قهر روما بعد تفتيتها داخلياً. وكان يعتمد فى هذا الصدد على أمل استجابة هذه العناصر الإيطالية لخطته الانفصالية النزعة هذه ولذلك فحتى هـــذه المرحلة من هذا الصراع الشديد فى الجبهة الأوروبية من الحرب البونية الثانية يمكن للدراس اعتبار هانيبال منتصراً فى خطته الحربية والسياسية فى صراعه مع الرومان. وقد أكد هانيبال خطته هذه بعقده اتفاقات تحالف مع العناصر الغالية ضد الرومان تدعيما لسياسته هذه، ومثال آخر يؤيد سياسته هو اطلاقه سراح الأسرى الإيطالى الأصل بعد انتصاراته ضد الرومان محاولا بذلك تشجيع هذه العناصر الإيطالية على الانفصال عن سادتهم الرومان ولكن رغم نجاح هذه الخطة فان مآلها فى المدى البعيد لم يكن مجديا إلى درجة حدوث الانفصال الشامل بين شعوب وولايات الوحدة الإيطالية ضد روما ، ولذلك فخطة هانيبال قد نجحت فى بوادرها ولكنها قد فشلت فى نهايتها .

وكان هانيبال يستخدم فى عملياته الحربية فى الجبهة الأوروبية تكتيك

الكمائن والتمويه مما يؤدى إسقاط أعدائه فيها وبذلك يتمكن من الانتصار . وقد حدث ذلك فى عدة معارك مثل معركتى تراسيمنوس Trasimenus فى إقليم اترووريا وموقعة كناى Cannae قرب ساحل البحر الادرياتيكى جنوب شرقى إيطاليا . وفى المعركة الأولى نجح هانيبال فى الإيقاع بقوة القنصل الرومانى فلامينيوس Flaminius فى كمين شمال شاطىء بحيرة تراسيمينوس بينما كان هانيبال مختفيا مع جيشه فى الغابات المحيطة ، وانقض على الجيش الرومانى غير المتنبه لهذا الخطر الكامن وأحرز الانتصار على الرومان بعد مفاجئتهم والهجوم عليهم. ومثال آخر لتحايل هانيبال فى عملياته الحربية حدث فى منطقة كمبانيا Campania عندما اتجه هانيبال إلى تسيير قطيع من الثيران رابطاً فى قرونها حطباً مشتعلا أثناء الليل وموجها إياها نحو المعسكر الرومانى مما أدى إلى إحداث الإضطراب فى معسكرات العدو ، وإنتهز هانيبال تلك الفرصة وأفلت من مواجهة الرومان .

وقد ترددت السياسة الرومانية بشأن خطتها تجاه هانبيال فبينما اتجه بعض القناصل الرومان إلى استخدام القوة العسكرية والالتحام مع القرطاجين فقد اتجه ، البعض الآخر إلى إلتزام الحكمة وتفضيل إرهاق العدو وعدم مجابهته مباشرة إلا بعد أن يكون قد أنهكته العمليات الحربية ولم يصل إلى نتيجة حاسمة، وفى ذلك الوقت يمكن القضاء عليه. وكان صاحب هذه السياسة الأخيرة هو الدكتاتور ماكسيموس Q. Fabius Maximus . ولكن ذلك لم يحل فى النهاية دون حدوث الاصطدام المتوقع بين الرومان والقرطاجين وذلك فى عهد القنصلين ڤارو C. T. Varro وپاولوس A. Paullus حيث تقابلت القوتان فى معركة كناى وتمكن القرطاجيون أيضا من إحراز

الانتصار على الرومان فى هذه الموقعة الهامة .

ويواجه المؤرخ فى هذه المرحلة الحاسمة من الحرب البونية الثانية موقفا فى غاية الدقة فمن وجهة النظر القرطاجية كان هانيبال منتصراً حتى ذلك الوقت على الرومان وكان فى إمكانه استكمال هذا الانتصار والتحرك تجاه العاصمة الرومانية وإنهاء سيادة أعدائه ، ولكن ذلك لم يحدث فعلى الرغم من انتصارات هانيبال فقد فضل الاتجاه نحو الجنوب بدلا من الاتجاه نحو العاصمة الرومانية . ويغلب أن خطة هانيبال هذه تتفق مع سياسته السابقة المعتمدة على بث الفرقة داخل الوطن الإيطالى تمهيدا لإحراز النصر النهائى على الرومان . ومن ناحية أخرى لم تكن عملية الاستيلاء على العاصمة الرومانية من السهولة بمكان لأن وسائل التحصين الرومانى كانت متوفرة كما أن القوة القرطاجية بعد عملياتها الحربية المتعددة وبعد خطوط تموينها ومواصلاتها عن الوطن القرطاجى أو القاعدة القرطاجية الأسبانية قد جعل إمكانية الانتصار على مدينة روما المحصنة غير مضمون النجاح، ولذلك فضل هانيبال عدم الاقدام على مهاجمة العاصمة الرومانية .

وقد حدثت بعض الاضطرابات النفسية الشديدة فى المجتمع الرومانى على إثر هذه الهزائم المتكررة ، ولكن على الرغم من ذلك فلم يفقد الرومان شجاعتهم وقدرتهم على التحمل فأثبتوا بذلك حقيقة خصالهم المبنية على أساس الجلد والقوة والاحتمال،ولذلك اتجهت روما إلى إعادة تجهيز قواتها العسكرية وتحصين العاصمة الرومانية واستكمال المؤسسات الدفاعية بصورة عاجلة إزاء هذا الموقف المتأزم .

ومما يؤكد عدم اطمئنان هانيبال على اكتمال قواته العسكرية فى تلك

المرحلة من الحرب ، على الرغم من انتصاراته السابقة ، أنه كان فى أشد الحاجة الماسة إلى المؤن والذخيرة اللازمة لجيشه . ويمكن الاستدلال على ذلك من ثلاثة أحداث هامة أولها طلبه النجدة العسكرية من حكومته القرطاجية وإرساله ماجو شقيقه الأصغر إلى قرطاج كمحاولة لتدعيم مطالبته هذه المعونة ولكن سبقت الاشارة أنه كان للنزاع الداخلى بين الأحزاب القرطاجية أثره فى عدم تحقيق طلب هانيبال بصورة كاملة ، ولكن بدرجة رمزية للغاية . فقد كان هانو الزعيم القرطاجى المعارض لا يؤيد وجهة نظر هانيبال ولذلك لم يحقق له طلبه . ومن ناحية أخرى لم تتحقق أيضا هذه الرغبة فى مساندة قواته من الجبهة الأسبانية لانشغال القوات القرطاجية فى محاولة تدعيم مركزها هناك ، وخاصة لأن الرومان قد شددوا من مقاومتهم للسيادة القرطاجية فى أسبانيا مستخدمين فى هذا السبيل القوات البرية والبحرية ومعتمدين أيضا على حلفائهم فى المدن الاسبانية وأيضا فى مسيليا Massilia قرب مصب نهر الرون ، بل لقد كانت القوة القرطاجية بقيادة هزدروبال فى أسبانيا فى حاجة هى الأخرى إلى المعونة العسكرية . ولكن على الرغم من ذلك فقد حاول هزدروبال التوجه إلى مساعدة شقيقه هانيبال ولكن تفطن الرومان إلى هذه الحركة الحربية ونجح القنصل الرومانى نيرون C. Nero فى انتظاره فى الوقت المناسب عند نهر ميتاوروس Metaurus فى اقليم أومبريا وتمكن من الانتصار على هزدروبال بل والتنكيل به بدرجة فظيعة وذلك بارسال رأسه إلى هانيبال نكاية فيه .

أما الحادث الثانى فيمكن ملاحظته فى ظاهرة تتعلق بالعقيدة القرطاجية حيث يلمس المؤرخ خلال التاريخ القرطاجى أثناء فترات تأزم المواقف الحربية وبصفة

خاصة بين الجنود المرتزقة فى الجيش، اتجاههم إلى استخدام ظاهرة التضحية البشرية تقرباً للقوى الإلهية وأملا فى مساندتها للجيش القرطاجى. وقد حدثت هذه العملية فى تلك المرحلة الدقيقة من الحرب البونية الثانية مما يؤكد مرة أخرى ذبذبة النفوس وعدم استقرارها الكامل داخل نطاق الجيش. ويلاحظ الدارس أن هذه التضحية البشرية كانت بعناصر غالية ويونانية ربما على أساس كونها ليست من صميم عناصر الجيش القرطاجى. ومن ناحية أخرى يمكن القول أنه فى هذا الوقت الحاسم لم تتقدم القبائل الغالية بتحقيق المساندات الحربية الفعالة للقرطاجين مما أدى إلى اضطرار هانيبال إلى البحث عن هذه المساندة من طرف آخر غير دولته القرطاجية أو القاعدة القرطاجية فى أسبانيا أو حلفائه من العناصر الغالية بل من قوة جديدة لمعت فى المحيط الدولى فى تلك الفترة وأظهرت عداءها الشديد للدولة الرومانية وهى القوة المقدونية وعلى رأسها الملك فيليب الخامس ملك مقدونيا. ويمكن اعتبار ذلك يمثل الحادث الثالث المؤكد لموقف هانيبال وعدم إقدامه للهجوم المباشر على روما. وينبغى على الدارس اعتبار هذه الرغبة المقدونية فى التدخل فى الشئون الإيطالية والصقلية حلقة جديدة من حلقات الصلات اليونانية فى غربى البحر الأبيض المتوسط والتى كانت لها فاعليتها السابقة فى هذه المنطقة.

ويمكن القول بأن ظاهرة التحالف بين المقدونيين والقرطاجيين لم تكن صادقة بمعنى الكلمة، لأن كلا من العنصرين له مطامعه الخاصة رغم اتفاقهما فى عدائهما للرومان. وقد سبقت الإشارة إلى مراحل الصراع اليونانى القرطاجى، وليست مقدونيا سوى إحدى الدول اليونانية الأصل، وليس من السهل تقبل التحالف الكامل معها. ولم تقف الدولة الرومانية مكتوفة الأيدى إزاء هذه المحالفات

السياسية بل سرعان ما عملت على تكوين أحلاف يونانيه أخرى مثل الحلف الآخى والحلف الأيتولى فى بلاد اليونان ضد الملك فيليب الخامس. وتستمر الدولة الرومانية فى العمل على محاربة مقدونيا حتى تتمكن فى النهاية من إيقاع الهزيمة بها فى معركة كينوسكفلاى Cynoscephalae فى الحرب المقدونية الثانية سنة ق. م. ، وفى الحرب المقدونية الثالثة فى معركه بيدنا Pydna سنة ١٦٨ ق. م.(١). وانتهت الدولة المقدونية على إثر هزيمتها الأخيرة فى الحرب المقدونية الرابعة سنة ٣٨ ق.م . .

وعلى ذلك لم يصل موقف هانيبال المتحرج فى جنوب شبه الجزيرة الإيطالية إلى خطوة متقدمة نحو الانتصار النهائى بل بدأت بوادر الفشل فى عملياته السياسيه والحربية تظهر على إثر عدم فاعلية المحالفات مع كل من الغاليين والمقدونيين . وكذلك واجهت جزيرة صقلية فى هـــذه المرحلة من الصراع الرومانى القرطاجى حلقة من حلقات هذا النزاع ،وذلك عندما تنازعت الأحزاب السياسية داخل مدينة سيراكيوز بين الاتجاه القرطاجى أو الرومانى وذلك على إثر وفاة حاكم سيراكيوز وهو الملك هيرو Hero . وقد حاول كل من القرطاجيين والرومان تأييد مؤيديه فى صقلية ،وتطور الموقف إلى حرب شديدة بحرية وبرية بين الطرفين تمكن فيها الرومان من إحراز الانتصار ودخول مدينة سيراكيوز سنة ٢١١ ق. م (٢) .

وتعقد الموقف بالنسبة إلى هانيبال على إثر هذه التطورات الخطيرة

---

(١) عبد اللطيف أحمد على ، نفس المرجع ، ١٢٦ .
(٢) Warmington, op. cit., 182.

وأصبح مركزه حرجا فى شبه الجزيرة الإيطالية فهو فى مسيس الحاجة إلى المؤن والامدادات، ولكن طريق هذه المساعدات مشوب بالصعاب، ولذلك يمكن اعتبار مصير الحرب البونية الثانية فى جبهتها الأوروبية قد بدأ يتحول من جانب الانتصار القرطاجى إلى بداية التراجع أمام الرومان فى شبه الجزيرة الأيبيرية بعد ذلك إلى أن ينحصر أخيراً فى الجبهة المغربية .

ولم تكن الدولة القرطاجية تركز طاقتها على الجبهة الايطالية بل لقد كانت الجبهة الاسبانية تحتل مكانة رئيسية أيضا فى نضال القرطاجين مع الرومان . ورغم تردد الدولة القرطاجية فى إرسال الامدادات الحربية اللازمة فقد كانت تضطر إلى التشهيل بها عندما يتأزم الموقف إلى درجة شديدة ، وقد حدث ذلك فى أسبانيا فأرسلت الدولة القرطاجية قوة حربية بقيادة أخوى هانيبال وهما ماجو وهزدروبال . وقد نجحت هذه النجدة فى إعادة السيادة القرطاجية فى الجبهة الاسبانية ولو بصورة مؤقته، لأنه سرعان ماتغير ميزان القوى مرة أخرى على إثر بزوغ شخصية رومانية قوية كانت لها فاعليتها الحاسمة فى إعادة السيادة الرومانية إلى الجبهة الأسبانية وإجلاء القرطاجيين عنها، صاحب هذه الشخصية هو كورنيليوس سكيبيو أو كما يسمى أيضا شبيون P. Cornelius Scipio وقـــد أطلق عليه أيضا الافريقى Africanus لأنه كان صاحب الخطة الرومانية الرامية إلى غزو المغرب وإنهاء السيادة القرطاجية فيه . فقد تفطن سكيبيو إلى أوضاع القوات القرطاجية فى الجبهة الأسبانية واستخدم اسلوب المباغتة فى الحرب ونجح فى هذا السبيل . ولم يتمكن القائد القرطاجى هزدروبال برقة ولا القائد القرطاجى الاخر هزدروبال بن جزجو من الصمود أمام سكيبيو مما أدى

إلى انسحاب القرطاجيين من الجبهة الاسبانية وفقدانهم قواعدهم الاسبانية وعلى رأسها مدينة قرطاجنة التى خلدت سيادتهم فى هذه المنطقة . وقد ازداد موقف هانيبال تحرجا على إثر هذه الهزيمة وأصبح محصورا فى شبه الجزيرة الإيطالية بعد أن انقطعت خطوط مواصلاته البرية واشتدت عليه عمليات الحصار البحرى. ولم يقتصر الموقف عند هذا الحد بل اقد اتجه سكيبيو إلى خطة جريئة خطيرة وهى نقل مكان المعركة من الأرض الإيطالية إلى الأرض المغربية وبذلك يرغم هانيبال وقواته إلى الجلاء عن شبه الجزيرة الإيطالية فى أسرع وقت ممكن للقيام بالدفاع عن وطنهم . وهكذا تطورت الحوداث الحربية والسياسية تطوراً يختلف عن بدايتها وأصبح الموقف أكثر وضوحا نحو انتصار الرومان فى هذه الحرب البونية الثانية .

وبذلك بدأت الجبهة الأفريقية أو بالأحرى المغربية فى هذه الحرب ولم تكن الموافقة على فتح هذه الجبهة باجماع السادة أعضاء مجلس الشيوخ الرومانى لأنه قد ظهرت بعض الاعتراضات داخل اجتماعات هذا المجلس على أساس إبداء الرغبة فى التخلص من هانيبال وجيشه أولا قبل المبادرة بفتح ميدان جديد للحرب، وذلك لاحتمال انتهاز هانيبال إرسال القوات الرومانية إلى الجبهة المغربية والقيام بعملية انقضاض على العاصمة الرومانية . ولكن هذا الرأى لم يقابل بالتأييد لأن هانيبال كان فى موقف فى غاية الحرج لا يسمح له باتخاذ هذه الخطوة . ومما يؤيد ذلك أنه بمجرد فتح الجبهة المغربية سرعان ما استدعته الدولة القرطاجية للقيام بدور الدفاع عن الوطن . وكان انتخاب سكيبيو قنصلا خطوة فعالة نحو تحقيق وجهة نظره السالفة الذكر . وقد قابلت الدولة القرطاجية هذا القرار الرومانى بانزعاج شديد ولم يكن

من السهل على قرطاج استجداء الصلح والسلام فى هذا الموقف الدقيق ولذلك قررت الدولة القرطاجية إرسال حملة حربية إلى الأرض الرومانية بقيادة ماجو ، ولكن هذه الخطوة لم تؤد فاعليتها فى اضعاف عزيمة الرومان نحو تحقيق خطتهم الجديدة وهى فتح الجبهة المغربية فى صراعهم مع القرطاجيين .

وقبل الاحاطة بهذا الصدام الجديد بين الطرفين على أرض المغرب تنبغى الاشارة مرة أخرى إلى أهمية القوة البربرية فى المغرب . لقد وصلت تلك القوة إلى درجة هامة فى إقرار الاوضاع السياسية والاقتصادية فى تاريخ المغرب القديم فى تلك الفترة . فقد تمكنت هذه العناصر البربرية من تكوين ممالك مستقلة لحد كبير تحاول الدخول فى معترك النزاع السياسى بالمغرب والخروج منه محرزة استقلالها الكامل ، ولو كان ذلك على حساب أحد الطرفين القرطاجيين أو الرومان. ولذلك كان من الطبيعى تدخل هذه القوة البربرية فى صميم هذا الصراع. وقد حاول كل من القرطاجيين والرومان استمالة البربر نحوهم كسبا لتأييدهم المادى والمعنوى من ناحية وإبعاداً لمقاومتهم من ناحية أخرى . وقد بادر القرطاجيون اتخاذ هذه الخطوة بالتحالف مع سيفاكس Syphax رئيس مملكة مازيسيله Masaesyli وذلك على الرغم من أن البربر بوجه عام كانـــوا متفطنين إلى غايات كل من القرطاجيين والرومان ومع ذلك فقد قبلوا هذا التحالف على أساس إمكانية اكتساب بعض الفوائد من ورائه . وقد دعم القرطاجيون هذا التحالف مع البربر بالزواج السياسى وذلك عندما قبل سيفاكس الزواج من سوفونسبه Sophonisbe أو صفان بعل بنت هزدروبال بن جزجو ، وعندما فشلت

محاولات الرومان للتحالف مع سيفاكس أو على الأقل إيقاف تحالفه مع القرطاجيين فقد اتجهوا إلى أحد الرؤساء البربر الآخرين وهو الاغليد أى الرئيس أو الملك ماسينسا رئيس دولة ماسيله Massyli [1] ، أنظر شكل رقم(١٠١) . ويعتبر ماسينسا من أهم الشخصيات البربرية التى نجحت فى تحقيق



شكل (١٠١) الاغليد أو الرئيس أو الملك ماسينسا

(١) Warmington, Ibid., 187.

الكيان البربرى المستقل فى المغرب ، بل لقد تمكن من توسيع أرجاء مملكته فشملت المنطقة الداخلية الممتدة من ليبيا حتى المحيط الأطلسى فى أوج سيادتها متضمنة نوميديا الشرقية والغربية أو كما أطلق عليها ماسيلة ومازيسيله . وكذلك دعم هذه السيادة السياسية بحضارة بربرية متأثرة ببعض المؤثرات القرطاجية مثل اللغة البونية والخط البونى الجديد وكذلك ببعض المؤثرات الدينية القرطاجية اليونانية الأصل وذلك بالاضافة إلى نشر المدنية المستقرة بين أرجاء القبائل البربرية التى أنهت بصورة حاسمة فى تلك الفترة حياتها القبلية البحتة واتجهت إلى الحياة الحضرية[1] وبذلك انقسم البربر إلى فريقين أولهما برئاسة سيفاكس فى جانب القرطاجيين والآخر وهو ماسينسا فى جانب الرومان . وحقيقة إنقسام البربر هذه كانت من أهم أسباب تأخر وحدتهم السياسية وتكوين دولة مستقلة .

وتمكن القنصل الرومانى سكيبيو من تنفيـذ خطته العسكرية فى الجبهة الإفريقية فى ربيع سنة ٢٠٤ ق . م. عندما نجح فى إنزال قواته فى منطقـة أوتيكا وبذلك فتح الرومان هذا الميدان الحربى الجديد مما إضطر القرطاجيين إلى المبادرة بتخصيص قواتهم العسكرية المدفاع عن قرطـاج وأصبح من المستحيل إسداء المعاونة والامدادات إلى هانيبال فى شبه الجزيرة الايطالية، كما أصبح من المحتم إستدعاء هانيبال إلى قرطاج لمواجهة الموقف .

وقد حدثت فى تلك الأثناء حادثة هامة لها مغزاها، فعلى الرغم من تحالف سيفاكس مع القرطاجيين بل وإرتباطه معهم بصلة النسب فقد عرض التدخل بين القرطاجيين والرومان فى مفاوضات تهدف إلى محاولة إنهاء هذه الحرب

(١) انظر عبد العزيز بن عبد الله ، فى كتاباته عن الحضارة المغربية .

قبل تطورها إلى مراحل أكثر خطرا . وهـذا الموقف يؤكد مرة أخرى عدم تمسك البربر قلبا وقالبا بتحالفهم مع القرطاجيين أو الرومان بل كانوا فى حقيقة الامر يرغبون فى التخلص منهما . ومن ناحية أخرى لم يكن من السهل على القائد الرومانى سكيبيو بعد وصوله فعلا إلى أرض المغرب وتحالفه مع ماسينسا الدخول فى عملية تصالح مع القرطاجيين فى ذلك الوقت لأنه من وجهة النظر الرومانية كان الموقف فى جانبهم والانتصار على وشك الوقوع ، ولـكن مع ذلك فلم يمانع كلا الطرفين بالتظاهر بالتفاوض كسبا للوقت الذى يمكن استغلاله فى تدعيم الاستعدادات العسكرية ، وأيضا كشفا لقوات الطرف الآخر إلى أن يحين الوقت المناسب للالتحـام الفعلى بينهما . ولذلك تخللت هذه الفترة من الحرب فى الجبهة الافريقية بعض الحيل المستغلة ظرف التمهيد المحرب فى سبيل التعرف على استحكامات العدو والتأثير على حالته النفسية ممـا يكون له نتائجه فى المفاوضات بين الجانبين . ومثال ذلك تلك اللعبة الخطرة التى أقترفها سكيبيو عندما قام باشعال النيران سرا فى قاعـدة البربر الموالين للقرطاجيين مما أدى إلى الحاق الضرر البالغ بهم والتأثير على نفسيتهم وموالاتهم للقرطاجيين ولكن هذه المفاوضات بين الطرفين لم تسفر عن اتفاق وبدأ كل من الرومان والقرطاجيين فى الاستعداد النهـــائى نحو المعركة المنتظرة بينهما . ولذلك إتجه سكيبيو إلى منطقة تونس ونجح فى إحراز الانتصار على القرطاجيين وبدأ يهدد العاصمة القرطاجية وقد أفلحت الخطة الرومانية فى التأثير على نفسية البربر الموالين للقرطاجيين ومن ناحية أخرى تشجيع ماسينسا وقواته البربرية على الاقدام نحو القرطاجيين وحلفائهم من بربر سيفاكس . وقد تمكن ماسينسا من الإيقاع بسيفاكس والانتقام منه

ومن زوجته القرطاجية صوفو نيسبه أو صافان بعـل ولكن الأخيرة قد ثأرت لنفسها ووطنها وفضلت إنهاء حياتها بالإنتحار بدلا من الحياة مع أعدائها من بربر ماسينسا والرومان . وكان لهـذه الحادثة أثرها البالغ فى نفوس القرطاجيين الذين أصبحوا منفردين بأنفسهم دون حلفاء معهم فى صراعهم ضد الرومان وحلفائهم من البربر مما زاد من أعبائهم الحربية فى هذا الموقف الحرج .

ووصل هانيبال إلى قرطاج وهو مكره على ذلك بعد فشله فى تحقيق الانتصار الذى كان قاب قوسين أو أدنى على الرومان . وقد ظهرت بعض بوادر احتمالية السلام على أساس التفاوض بين الطرفين لأن الأزمة القرطاجية فى حربها الطويلة مع الرومان قد وصلت إلى ذروتها مما يحتم الرغبة فى المطالبة بانهاء هذه الحرب . ولكن سكيبيو لم يكن ليوافق على ذلك دون اشتراطات قاسية تنهى السيادة القرطاجية فى مجال البحر الأبيض المتوسط وأيضا فى المجال المغربى بصورة مذلة للسيادة القرطاجية التى كانت فى بداية هذه الحرب صاحبة لواء الانتصار، ولذلك فان إمكانية عقد اتفاقية سلام بين القرطاجيين والرومان قد أصبحت فى نطاق الاستحالة .

وتقابل الجيشان القرطاجى بقيادة هانيبال والرومانى بقيادة سكيبيو فى معركة حاسمة هى معركة زاما Zama سنة ٢٠٢ ق . م ويطلق عليهـا أيضا جامه ويحددها ورمنجتن بأنها قريبة من ناراجرا Naraggara وهى ساقية سيدى يوسف (١)، بينما يحدد مكانها صفر بأنها « قرب الضريح القائم بقصر طوال

---

(١) Op. cit., 190.

الزوامل وفى أعلى نقطة من المعبر المفتوح بين جبل ماصوج شمالا والجبال الملاصقة لصردمكثر من جهته الشمالية جنوبا والذى يصل بين سهل سليانه وسهل السرس »[1] . وقد تمكن الرومان فى هذه المعركة الهامة من احراز الانتصارعلى القرطاجيين رغم استخدام الأخيرين لكافة طاقتهم الحربية . واضطرها انيبال إلى طلب السلام وعقد معاهدة الصلح مع الرومان .وأجابه الرومان إلى طلبه رغم استطاعتهم فى ذلك الوقت الاستمرار فى الحرب ولكن كانت الجهود الضخمة التى بذلها الطرفان تتطلب ذلك .

ولقد كانت هذه المعاهدة سنة ٢٠١ق.م خاتمة لهذه الحرب البونيةالثانية وحوت نصوصها الكثير من عناصر الاذلال والمهانة للقرطاجيين فقد تعهدوا بتحمل الالتزامات المالية الخاصة بدفع تكاليف القوات الرومانية وكذلك التعويضات المستحقة عن الخسائر ، والمساعدات اللازمةفى حالة الحاجة إليها، هذا بالاضافة إلى تحديد سفن القوات القرطاجية البحرية بعشرة سفن لاغير، مع عدم السماح لها بالدخول فى حرب داخلية أو خارجية بدون موافقة السادةالرومان. ومن أهم اشتراطات المعاهدة السماح لماسينسا امتلاك الاراضى التى قيل أنها كانت أصلا فى حوزته مما أدى إلى تحديدقطاع قرطاج بمساحة ترجع بها إلى بداية مرحلة استقرار الفينيقيين فى المغرب . وبذلك تغيرميزان القوى فى حوض البحر الابيض المتوسط وأصبحت قرطاج دولة محدودة الكيان السياسى والحربى وأصبحت روما القوة الأولى فى المنطقة بأسرها. أما عن موقف القائد العظيم هانيبال بعد تلك الهزيمة فقد أصبح محفوفا

---

(١) صفر ، نفس المرجع ، ٢٣١ .

بالمخاطر نظرا لنقم بعض الساسة القرطاجيين عليه واعتباره مسئولا عن هذا الفشل رغم جهوده الجبارة واصلاحاته الداخلية فى الفترة الوجيزة التالية مباشرة للحرب . ولذلك آثر الخروج من قرطاج والاستمرار فى طريق محاربة الرومان ولكن فى جبهة مشرقية بعد أن حاربهم فى الجبهة المغربية . وقد التحق بقوات الملك السورى انطيوخوس الثالث ثم اتجه بعد ذلك إلى بيثينيا وآثر أخيرا إنهاء حياته بنفسه بالانتحار وتناول السم سنة ١٨٣ ق.م. وبذلك انتهت حياة هذا القائد المغامر بعد بذل الجهود المضنية فى سبيل بلاده ، ومع ذلك فقد ظل الصراع القرطاجى الرومانى كامناً ومكبوتاً إلى أن حان الوقت لاستئنافه مرة ثالثة وأخيرة فى الحرب البونية الثالثة .

وفى الفترة الواقعة بين الحربين البونيتين الثانية والثالثة حاولت الدولة القرطاجية بكافة الوسائل استعادة مكانتها رغم ثقل الأعباء المالية والاقتصادية والسياسية المسئولة عنها ، وقد استغرق ذلك بعض الوقت . ومن ناحية أخرى انتهز الرومان فرصة انهائهم لهذه الحرب الطويلة وبدؤا فى القيام ببعض الاصلاحات الداخلية الرومانية وكذلك اتجهوا إلى تخليص روما من بقية المعارضات التى ظهرت فى المشرق حتى تستكمل سيادتها على كافة أرجاء حوض البحر الأبيض المتوسط . فقد قام الرومان بمحاربة الملك السورى أنطيوخوس الثالث ونجحوا فى الانتصار عليه فى معركة مجنيسيا Magnesia فى آسيا الصغرى سنة ١٩٠ ق.م. [1] وكذلك وطدوا سيادتهم الكاملة على شبه الجزيرة الأسبانية وتمكنوا من إنهاء ثورة القبائل المحلية

---

(١) عبد اللطيف احمد على ، نفس المرجع ، ١٢٩ .

وبذلك تمهد الطريق نحو تأسيس الامبراطورية الرومانية. ومن أهم أحداث الفترة بين الحربين، نجاح ماسينسا فى انتهاز فرصة ضعف القرطاجيين وتحقيق دولته البربرية . ولكنه لم يكتف بهذا القدر من السيادة بل كان يطمع أيضا فى التوسع على حساب بقية أملاك الدولة القرطاجية. ولما كان نص المعاهدة الموقعة بين القرطاجيين والرومان يحرم الأول من القيام بالحرب دون إذن الرومان فلم يكن أمام القرطاجيين غير استجداء الرومان بصدد التدخل لإيقاف ماسينسا من استمراره فى الاستيلاء على المواقع القرطاجية . وكان ماسينسا يعمـــل على التظاهر الكلى بالتحالف مع الرومان ، وفى نفس الوقت يوغر صدورهم بالكراهية الشديدة ضد القرطاجيين بل ويصل فى هذا الصدد إلى المجاهرة باتهامهم باستعادة نشاطهم المعادى للرومان. ولم تكن استجابة الرومان لهذا الموضوع عادلة بل كان يتجسد فيها التحـيز الواضح تجاه البربر ويظهر ذلك فى بعثتهم التى أرسلوها إلى قرطاج برئاسة كاتو M. porcius Cato لمحاولة حسم النزاع بين البربر والقرطاجين . وقد أنهت هذه البعثة مهمتها بالحث على ضرورة افناء الدولة القرطاجية حسماً لهذا النزاع المستمر معها . وتبين حرفية أقوال كاتو هذا الرأى عندما يقول « فى رأيى أن قرطاج يجب أن تدمر [١] . ولم يكن الرومان على ثقة تامة بالبربر رغم اتضاح ميلهم نحوهم لأنهم كانوا يتخوفون من إزدياد نفوذ البربر وبذلك تظهر قوة جديدة فى المغرب تحل محـل القرطاجيين وتهدد الدولة الرومانية ولذلك تعددت الآراء بين الرومان بصدد الإجراء النهائى الذى ينبغى اتخاذه مع البربر والقرطاجيين فى منازعاتهم الأخيرة .

---

(١) Warmington, Op. cit., 202.

وقد عاود البربر مهاجمتهم للأراضى الخاضعة للنفوذ القرطاجى وذلك على إثر حادثة معينة تتلخص فى أن ماسينسا قد أرسل كلاً من ماسيبسا وغولوسة إبنيه فى بعثة إلى قرطاج ، ولكن كانت المعاداة القرطاجية للبربر قد وصلت إلى أبعـــد مدى على إثر تحرشاتهم واستفزازاتهم على حساب القرطاجيين ، ولذلك قرر كرثالو Carthalo منعهم من دخول مدينة قرطاج بل لقد اعتدى على بعض أتباعهم . وكانت هـذه الحادثة عاملا مباشراً فى إستئناف الحروب بين كل من القرطاجيين والبربر . وعلى الرغم من كبر سن الإغليد ماسينسا حيث كان قد بلغ حوالى الثامنة والثمانين من عمره فقد حمل لواء قيادة الجيش البربرى فى هذه الحرب . أما رئاسة الجيش القرطاجى فقد كانت للقائد هزدروبال . وقد تمكن القرطاجيون من الانتصار فى بداية الحرب ولكن العوامل التقليدية فى الجيش القرطاجى مثل عدم إتباع وسائل النظافة اللازمة قد أدت إلى عدم تمكن القرطاجيين من متابعة هـذه الحرب بنفس القوة كبدايتها . ولم يكن موقف الرومان موقف المستطلع للأحداث بل لقد كان عزمهم على إفناء الدولة القرطاجية لامراء فيه ، ولكن كانت عمليات الاستعداد سائرة فى سبيل الاستكمال والانتظار للوقت المناسب . وقد شعرت الدولة القرطاجية بخطورة هـــذا الموقف وحاولت تجنب تدخل الرومان فى هذه الأزمات المستمرة بين القرطاجيين والبربر ولكن دون جدوى ، فقد كان تصميم الرومان فى هـذا الصدد نهائيا . وقد وصلت حالة القرطاجيين النفسية إلى درجة غير عادية من السوء ، ويتضح ذلك عندما طلب منهم الرومان إحضار ثلاثمائة رهينة ، وكذلك تسليم كافة الأسلحة القرطاجية البرية والبحرية نظير إيقاف التهديد بالتدخل العسكرى فى شئون حسم النزاع بين القرطاجيين والبربر . وقد نصت إشتراطات الرومان فى هذا

الشأن أن تكون تلك الرهائن من الأطفال من أبناء أعضاء مجلس الشيوخ القرطاجى. ومع كل تلك المبالغة فى معاملة الرومان للقرطاجيين فقد اضطر القرطاجيون إلى تحقيق هـــذه المطالب رغم شططها . ولكن الرومان من ناحية أخرى عندما تبينوا حقيقة تحرج القرطاجيين استمروا فى مبالغاتهم فى مطالبهم بأن أبدوا رغبتهم بأن يترك القرطاجيون مدينة قرطاج كلية ويتنقلوا إلى مكان آخر ، ولكن هذا التعنت الشديد من الجانب الرومانى لم يكن ليطيقـه القرطاجيون بأى ثمن كان . ولذلك سرعان ما ثارت نفوس القرطاجيين واشتدت عزيمتهم وصمموا على مواصلة الحرب مع الرومان ، وبذلك استؤنفت العمليات الحربية مرة أخرى، وتعرف بالحرب البونية الثالثة.

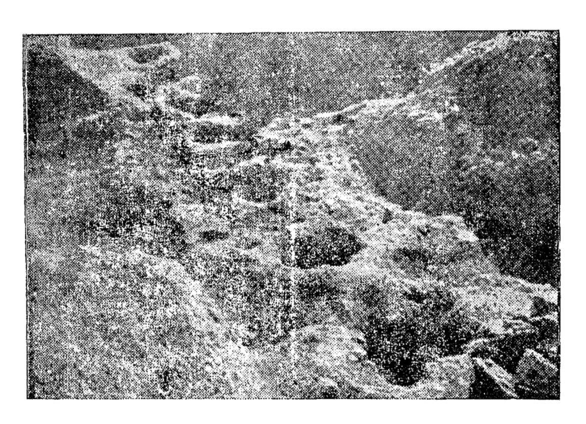
الحرب البونية الثالثة :

استمرت هذه الحرب من سنة ١٤٩ ق.م. إلى سنة ١٤٦ ق.م. كافح فيها القرطاجيون عن حياتهم ومصيرهم فى شكل بطولى منقطع النظير. وتظهر قدراتهم الفائقة عند قيامهم بعملية الاستعداد لهذه الحرب. وعلى الرغم من أنهم كانوا قد سلموا أسلحتهم للرومان، فانهم لم ييأسوا بل سرعان ما ضاعفوا جهودهم وأعادوا بناء طاقتهم الحربية مرة أخرى وبذلوا جهوداً فريدة فى هذا الصدد إلى درجة أن النساء قد سمحن باستخدام شعورهن كحبال فى بعض مستلزمات الأسلحة (١) . وقد تسلم زمام القيادة القرطاجية القائد هزدروبال أما القائد الرومانى فكان سكيبيو . ويلاحظ الدارس أن المدن الخاضعة للسيادة القرطاجية لم تكن جميعها فى صف القرطاجيين بل إنحاز بعضها إلى جانب الرومان وعلى رأسها مدينة سوسه كما إستمرت مجموعـة أخرى إلى جانب

---

(١) Ibid., 205.

القرطاجيين وعلى رأسها بزرت . وبدأت القوتان القرطاجية والرومانية فى الاشتباك العسكرى . وقد كان لعمليات التحصين القرطاجى أثرها البالغ فى الدفاع عن مدينة قرطاج ، ومثال ذلك الخنادق والحيطان القوية التى كانت تستخدم كحواجز دفاعية ، أنظر شكل رقم (١٠٢) . وعلى الرغم من نجاح



شكل رقم (١٠٢) منظر لبقـايا آثار الخندق أو الخط الدفاعى الاول لمدينة قرطاج

الرومان فى اقتحام أحد جوانب المدينة فقد نجح القرطاجيون فى صدهم ولم يتوانوا عن الانتقام منهم أشد انتقام . ومن الأحداث الهامة التى وقعت أثناء الحرب البونية الثالثة وفاة الإغليد ما سينسا سنة ١٤٨ق.م، لأنه قد ترتب على ذلك عودة البربر إلى مرحلة أخرى من الفرقة السياسية بعد أن نجح ماسينسا إلى حد كبير فى جمع شملهم . ومما يؤكد توثق صلات الرومان بالبربر الموالين

لماسينسا فى ذلك الوقت تدخل القائد الروماني سكيبيو فى هذه الشئون البربرية الداخلية وحضور عملية تقسيم سلطات المملكة البربرية بين أبناء ماسينسا الثلاث وهم ميكيبسا ومستعنبعل وغولوسة ولكن سرعان ما انفرد ميكيبسا بهذه المملكة. وتأكيداً لاستمرار تحالف الرومان مع البربر اصطحب سكيبيو معه غولوسة ليعاونه فى عملياته الحربية ضد القرطاجيين، وأيضا لكى يوءمن البربر على علاقاتهم الطيبة مع الرومان. ولكن ذلك لم يحل دون محاولة القرطاجيين اجتذاب مجموعات أخرى من البربر إلى جانبهم فى هذا الصراع الدامى بينهم وبين الرومان وبربر ماسينسا. وكانت هذه المجموعات الجديدة فى أقصى المغرب أى القبائل البربرية الموريطانية. ولكن ذلك لم يؤد إلى نتيجة حاسمـــة لأن الرومان قد نجحوا فى توطيد صلاتهم بالبربر وتقوية روح الكراهية بينهم ضد القرطاجيين، على الأقل فى المجال الحربى، وبذلك نجحوا فى نشر الفرقة بينهم. ولا يعنى ذلك إستمرار هذه الصلات المتوترة بين القرطاجيين والبربر بل لقد كان للجانب الفكرى إعتبار خاص بين الطرفين. فعلى الرغم من استمرار العمليات الحربية الطويلة بينها واندحار القرطاجيين كلية فى نهاية الحرب البونية الثالثة فقـــد تقبل البربر تركة القرطاجيين الفكرية المسجلة فى بقايا مكتبتهم الحاوية لفكرهم وأدبهم وتراثهم فى ذلك الوقت. وكان لذلك أثره فى إستمرار الصلة الفكرية بينهم. ومن أهم مظاهر ذلك أيضا إستمرار اللغة البونية الجديدة وكذلك التأثر بالعقيدة القرطاجية إلى حد كبير.

ولم تكن عملية الاستيلاء على قرطاج العاصمة بالمهمة السهلة أمام القوات الرومانية وذلك لعدة أسباب منها شدة التحصينات المحيطة بالعاصمة القرطاجية، وكذلك وجود منفذ بحرى تستطيع بواسطته مواصلة مقاومتها للغزاة. هذا

بالإضافة إلى صلابة القرطاجيين واستماتتهم فى سبيل المحافظة على مدينتهم الخالدة . ولم يحل ذلك دون نجاح الرومان من اقتحام أحد أبوابها والنفوذ منه إلى المدينة، وبذلك تمكنوا من إحداث أولى الثغرات فى نطاق التحصينات القرطاجية مما أدى إلى تحكمهم بعد ذلك فى المدينة . ولكن واجهتهم مشكلة المنفذ البحرى الذى كان يعتبر طريقاً لتموين المدينة ، ولذلك إتجه الرومان إلى التحكم فى هذا المرسى ، ولكن القرطاجيين بعزيمتهم القوية قد عملوا على شق منفذ يؤدى إلى البحر لكى يستخدم عوضاً عن المرسى الذى تحكم فيه الرومان. وكذلك ظهرت عزيمتهم القوية فى استغلال كافة إمكانياتهم المادية والبشرية ذكوراً وإناثا لاستعادة قواتهم البحرية مستخدمين نجاحهم فى شق هذا المخرج الجديد لإعادة مواصلاتهم البحرية مرة أخرى . ولكن سرعان ما تنبه الرومان إلى هذه الخطة القرطاجية الأخيرة وقاموا بمهاجمتها وبذلك سدوا جميع منافذ المدينة المؤدية إلى الخارج وكان اقتحام المدينة بعد ذلك . كما أنه كان لظاهرة الحصار الشديدة هذه وقفل مداخل المدينة أثرها البالغ ليس فقط فى الناحية النفسية للقرطاجيين بل أيضا فى الجانب الحيوى حيث لم تعد التموينات والامدادات الداخلية تفى بمطالبهم مما أدى إلى إضعاف طاقتهم فى عمليات مقاوماتهم الشديدة للرومان . وفى سنة ١٤٦ ق . م تقدم سكيبيو بقواته محاولا إخضاع المدينة القرطاجية كليةً . ووصل دفاع القرطاجيين عن أنفسهم إلى درجة تحصنهم فى منازلهم وكذلك فى قلعة البرصة Byrsa. وكانت المعارك تدور بين المنازل والطرقات ، وظهرت فيها جوانب الشدة والقسوة المتناهية من الطرفين ، فقد كان كل منهما يدافع عن مصيره كما إستخدم سكيبيو أيضا الخنادق والحيطان وأبراجها وإشعال النيران فى عملياته الحربية ضد قرطاج . وحدثت بعض الأحداث الخاصة التى تلقى

ضوءاً على مدى مشاعر القرطاجيين فى صميم وقت أزمتهم . مثال ذلك موقف زوجة القائد القرطاجى هزدروبال التى لم تقبل تصرف زوجها فى إضطراره إلى اللجوء إلى الإستسلام للقائد الرومانى سكيبيو وفضلت الإنتحار مع أولادها فى وسط النيران المشتعلة بدلا من الحياة بذلة مع الرومان المنتصرين . ولم يكتف الرومان بانتصارهم النهائى هذا بل قام الجنود بالسلب والنهب فى هذه المدينة الخالدة و إشعال النيران فيها وحرثها وذر الملح فى أرضها حتى لا تصلح الحياة فيها مرة أخرى .

وقد سجل المؤرخون أن سكيبيو بعد تدميره مدينة قرطاج « ألقى نظرة على المدينة التى ازدهرت أكثر من سبعمائة سنة منذ إنشائها والتى حكمت مناطق كثيرة جزرا وبحارا وكانت ثرية فى السلاح والأساطيل والفيلة والمال مثل الامبراطوريات العظمى بل والتى فاقتهم فى الإقدام والشجاعة الفائقة ، فرغم أنها جردت من كافة أسلحتها وسفنها فقد صمدت لحصار شديد ومجاعة لفترة ثلاث سنوات ووصلت الآن إلى نهايتها بالتدمير الكلى ، ويقال أن سكيبيو بعد ذلك قد بكى ورثا مآل عدوه . وبعد ذكر الحقيقة أن الأفراد والمدن والأمم والامبراطوريات نهايتها محتومة وكذلك نصيب طرواده العظيمة ونهـــاية الامبراطوريات الآشورية والميدية والفارسية والتدمير الأخير للامبراطورية المقدونية الكبيرة ، أشار بقصد أو لاشعوريا إلى كلمات هكتور من هومر ، «سيأتى اليوم الذى ستسقط فيه طرواده المقدسة وكذلك الملك بريام وجميع رجاله المسلحين معه . » وعندما سأله المؤرخ بوليبيوس Polybius والذى كان معه ماذا يقصد التفت إليه قائلا ، «هذه لحظة عظيمة يا بوليبيوس ولكن إن الخوف يتملكنى أن نفس النصيب سيأتى لوطنى فى يوم من الايام» .[١]

(١) Ibid., 212 f.

وهكذا انتهت الحرب البونية الثالثة بتدمير العاصمة قرطاج ، وبذلك توقفت هذه القوة السياسية الهامة فى المغرب وحوض البحر الأبيض المتوسط وانفردت القوة الرومانية بالسيادة الكاملة على هذه المنطقة ، ومهد ذلك إلى تحقيق الامبراطورية الرومانية ليس فقط فى أرجاء المغرب الكبير بل فى كافة أقاليم حوض البحر الأبيض المتوسط الشرقية والغربية .

الفصل الخامس

تقييم موجز لتاريخ المغرب
فى العصرين الفينيق والقرطاجى

لكى يقيم المؤرخ المادة التاريخية يلزمه بصورة طبيعيه مقارنة هذه المادة بما يعادلها فى الاقاليم المعاصرة ، على أساس موضوعى بحت ، كما أن هـذا التقييم يتفاوت حسب المدرسة التاريخية التى يتجه إليها المؤرخ ، وكذلك وجهته فى التفسير التاريخى . وتاريخ المغرب فريد من نوعه فى هذا الصدد لأنه يمثل تاريخ مجموعة من العناصر المنتمية فى أصولها البشرية إلى عائلة الشعوب واللغات الحامية المختلطة ببعض العناصر الشمالية والإفريقية الزنجية، وقد استجابت إلى العناصر السامية المهاجرة إلى المغرب ونجحت فى اكتساب الكثير من التجارب الجديدة عليها ودفع عجلة التطور الحضارى والسياسى المغربى القديم نحو الانتقال إلى بداية العصر التاريخى ، وإلى محاولة إيجاد الكيان السياسى المستقل بالمغرب . ولم تكن هذه العملية التاريخية التى مر بها شعب المغرب القديم بالمهمة السهلة لوجود الفوارق الكثيرة فى المجالات الحضارية والبشرية والفكرية ولكن على الرغم من ذلك فسرعان ما تأقلم البربر وطوروا حياتهم بصورة تدريجية نحو المدنية . كما كان للصعاب الجغرافية الشديدة التى كانت تعطل من عملية الاتصال السهل بين المراكز الحضارية الوافدة والمحلية أثرها الواضح . فظاهرة التحول الحضارى من المرحلة البدوية إلى المرحلة المدنية تستوجب وقتا طويلا تتقبل فيه هذه الشعوب المتنقلة من مكان إلى آخر والمستقرة نسبيا بصورة غير دائمة فى أماكنها ، النماذج المتفوقة

عليها بسلام . ولذلك ينبغى على المؤرخ إقرار حقيقة هامة وهى أن الإنسان فى المغرب القديم قد نجح فى إجراء عملية التحول التاريخى من العصر الحجرى القديم الأعلى إلى مرحلة الاستقرار والزراعة وإنشاء القرى ونمو المجتمعات الحضرية البربريه إلى درجة وصولها إلى ولايات وممالك قرب نهاية العصر القرطاجى . ويسجل المؤرخ أيضا فى هذا الصدد عدم تعرض الفينيقيين إلى حرب مباشرة من طرف البربر فى أثناء عملية تحولهم التاريخى هذه مما جعل هذا التحول بمثابة نقلة طبيعية فى تاريخ الإنسان فى هذه المنطقة على أيدى العناصر الفينيقية . فبداية العصر التاريخى إذن فى المغرب لم تكن مثل المشرق مما أدى إلى طول فترة التطور المؤدى إلى ما بعد تلك المرحلة . ويختلف ذلك كل الاختلاف عن التاريخ المصرى القديم أو التاريخ السومرى فى جنوب العراق القديم أو تاريخ سوريا أو فلسطين أو إيران حيث يلاحظ الدارس نمواً طبيعيا وتدريجيا محليا توصل الإنسان فى بدايته إلى الانتقال إلى العصر التاريخى، فلم تكن تلك البداية على أيدى عناصر مستقرة وافدة على العناصر المحلية ، مما يجعل تاريخ المغرب القديم متميزا بهذه الظاهرة الخاصة عن تاريخ المشرق القديم .

ملاحظة أخرى تستوجب الانتباه فى تاريخ المغرب القديم هى سرعة انطلاقها من المجال المحلى المغربى البحت إلى الاطار الدولى الافريقى وفى حوض البحر الأبيض المتوسط . ويلاحظ الدارس أن البربر رغم تحركاتهم البشرية والحضارية داخل المغرب بصورة مستمرة فان استقرارهم على السواحل كان محدوداً ، وعندما جاء الفينيقيون تمكنوا من إستكمال هذا الجانب فى تاريخ المغرب القديم باستقرارهم على الساحل المغربى وإقامتهم المراكز التجارية وإزدياد نشاطهم البحرى فى حوض البحر الابيض المتوسط

وعلى الساحل الافريقى الغربى بل وساحل أوربا الغربى أيضا بالاضافة إلى نشاطهم الداخلى . ولكن هذه الصفة الدولية النسبية فى التاريخ السياسى والحضارى رغم ما اكتنفته من صعـــاب شديدة فى الصراع مع اليونانيين والرومان فقد اكتسب المغرب منها الكثير من الأنماط الحضارية المعاصرة فى ذلك الوقت مما ساعد على ازدياد عملية التطوير الحضارى فى المغرب وربطها بميزان القوى الموجهة. ولا يترك الدارس فى هذا الصدد الاشارة إلى الدساتير والنظم اليونانية والرومانية التى استحدثت فى المغرب لدى القرطاجيين والبربر وكذلك فى المجال الدينى، فقد جمع البربر بين المؤثرات العقيدية المحلية والفينيقية واليونانية الأصل وبعض الملامح ذات الطابع المصرى القديم . ويلاحظ أن المكتبة القرطاجية بعد تدمير قرطاج كانت من نصيب البربر استكمالا لأداء هذه الوظيفة الفكرية .

ظاهرة ثالثة يلمسها الدارس فى تقييم تاريخ المغرب القديم وهى أنه على الرغم من استمرار التأثر الفعلى بالحضارة القرطاجية واليونانية وفيما بعـد الرومانية، فقد استمر البربر على بعض مقوماتهم الحضارية بل ونجحوا فى القيام بعدة ثورات سياسية فى ذلك الوقت كمحاولة للتخلص من السيـادة القرطاجية والرومانية السياسية. هذا بالاضافة إلى ما تحلى به البربر من خصال قوية [1] تحمل فى طياتها قيماً وصفات حسنة وكذلك قدرات بدنية قوية تجعل منهم أفراداً قادرين على المهام الحربية وتحمل المشاق . وهذه الصفات ترجع فى الواقع إلى الأصول الحامية الأولى حين حملتها الهجرات البشرية

---

(١) أنظر عبد العزيز بن عبد الله فى كتاباته عن الحضارة المغربية ، ومحمد محى الدين المشرفى فى افريقيا الشمالية فى العصر القديم، الرباط ١٩٦٠ .

أصلاً من اليمن وعمان إلى شرق وشمال أفريقيا . ويلمس الدارس تقارب القرطاجيين من البربر فى الاستجابة الحضارية الفكرية والمادية بصورة أكثر عمقا منها مع الرومان. ويمكن إرجاع ذلك أيضا إلى كون الأصول الحامية والسامية ترجــــع بصورة مشتركة إلى شبه الجزيرة العربية . كما يلاحظ على سبيل المثال أن الحضارة المصرية القديمة،على الأقل فى مراحل بدايتها، قد جمعت بين الصفتين الحامية والسامية، ويمكن تتبع بعض هذه الجوانب فى اللغة المصرية القديمة وكذلك فى التراث الأثرى . وحقيقة كون الرومان ينتمون إلى عائلة الشعوب الهندية الأوروبية وكذلك سيادتهم العسكرية قد حال دون استطاعتهم ، رغم محاولاتهم الكثيرة ، تحويل البربر إلى شعب رومانى النزعة. ونفس هذه الظاهرة تنطبق أيضا على كافة شعوب الشرق الأدنى القديم الذى خضع للسيادة السياسية والعسكرية لعدة عناصر قوية، ومع ذلك فلم تتمكن هذه العناصر من الاستمرار في تحويل المصريين إلى عناصر خاضعة لحضارتهم . كل ذلك صحيح إلا مع العناصر السامية العربية التى تمكنت من التأثير الكلى على المصريين والبربر وتعريبهم لغويا وفكريا ولا يقتصر ذلك على شمال افريقيا بل على الشرق الادنى القديم . وبعد إندحار قرطاج تمكن الرومان من التحكم الكامل فى المغرب وبداية العصر الرومانى بها.

وببداية العصر الرومانى فى المغرب تأتى مرحلة جديدة فى تاريخه تختلف كل الاختلاف عن المراحل السابقة فبينما يلمس الدارس فى المراحل السالفة تداخل العناصر الفينيقية الأصل مع العناصر المغربية القديمة وهى العنـــاصر البربرية تداخلا سلمياً لحد كبير كما يتمكن الفينيقيون من إحداث النقلة الحضارية والاقتصادية الهامة بالمغرب وهى بداية العصر التاريخى ويتركون تأثيراتهم الحضارية والاقتصادية فى مجالات الزراعة والتجـارة والفكر

الدينى والسياسى فى تلك المجتمعات المغربية القـــديمة ، يلاحظ أن العصر الجديد وهو العصر الرومانى يختلف تمام الاختلاف عن تلك المرحلة التى سبقت الاشارة إليهـا . فالمرحـــلة الجديدة تنتمى إلى عنصر يرجع فى أصوله إلى عائلة الشعوب واللغات الهندية الأوروبية فهو يختلف عن عائلة الشعوب واللغـات السامية والحاميـة التى ترجع فى أصولهـا إلى شبه الجزيرة العربية . وعلى الرغم من الفوارق اللغوية والحضارية بين العناصر السامية والحامية فانها يرجعان إلى أصول مشتركة تحمل فى جذورها بعض المفاهيم الأقرب اتصالاً من تلك الخاصة بالعناصر الهندية الأوربية . وبينما كان استقرار الفينيقيين فى المغرب سلمياً يلاحظ أن استقرار الرومان فى هذه المنطقة كان بالقـوة العسكرية مما يعطى صفة التحكم الحربى البحت أكثر من صفة الاستيطان والاتصال بالبربر فى المجالات التجارية والاجتماعية والفكرية . ولذلك فمرحلة العصر الرومانى فى المغرب تعتبر بمثابة احتلال أجنبى لهذه المنطقة الهامة من شمال أفريقيا .

ويمكن وتقسيم التاريخ المغربى أثناء العصر الرومانى إلى ثلاثة مراحل رئيسية :

أولا : تاريخ المغرب أثناء مرحلة عصر الجمهورية الرومانية من سنة ١٤٦ ق م. إلى سنة ٢٩ ق.م.

ثانيا : تاريخ المغرب أثناء المرحلة الأولى من عصر الامبراطورية الرومانية من عهد أوغسطس إلى عهد جورديان الثالث من سنة ٢٩ ق.م. إلى سنة ٢٤٤ م.

ثالثا : تاريخ المغرب فى المرحلة الأخيرة من عصر الامبراطورية الرومانية من سنة ٢٤٤ إلى ٤٢٩ م. ويبدأ الدارس بالمرحلة الأولى .

الفصل السادس

المغرب فى العصر الرومانى من الناحية السياسية

المرحلة الأولى

قبل الاحاطة بتاريخ المغرب السياسى فى المرحلة التالية مباشرة لنهاية الحرب البونية الثالثة تنبغى الاشارة إلى بعض الظواهر السياسية والاقتصادية والنفسية الرومانية والتى تحكمت لحد كبير فى تشكيل التاريخ المغربى القديم إلى حد فى هذه المرحلة وكذلك فى المراحل التالية أثناء العصر الرومانى .

فقد عانت الدولة الرومانية بعد أنتهاء الدولة القرطاجية إثر انتصار الرومان فى الحرب البونية الثالثة الكثير من الأزمات وعلى رأسها المشاكل الاقتصادية التى نجمت عن استمرار العمليات الحربية فى الجبهات الايطالية والاسبانية والمغربية وقتاطويلا مما أدى إلى فقدان الكثير من الشباب الرومانى والايطالى الذى كان يعمل أصلا فى المجتمع الرومانى بكافة مظاهر نشاطه الاقتصادى مما أدى إلى عدم تواجد الأفراد العاملين فى الحقول الزراعية ونتجت عنه الأزمات الاقتصادية. ومن ناحية أخرى أدت هذه الحروب أيضا إلى عدم الاكتراث بالمفاهيم والقيم السلوكية فى المجتمع الرومانى مما أدى إلى تدهور الاخلاق وقد نجم عن ذلك أيضا استغلال أصحاب السلطات السياسية فى الدولة لهذا الموقف وتوخيهم النزعة الذاتية بدلا من المصلحة العامة للدولة والشعب الرومانى . ويمكن ملاحظة عدم تواجد التجانس بين طبقات المجتمع الرومانى فى ذاك الوقت ، فعلى سبيل المثال ازدادت نسبة العبيد الذين

كانوا أصلا أسرى حروب وتجمعـــوا فى المجتمع الرومانى لأداء مختلف الخدمات ولكنهم تفطنوا إلى ضرورة الحصول على بعض الحقوق التى تتفق مع خدماتهم من ناحية أخرى. هذا بالاضافه إلى تردد الرومان فى منح العناصر الايطالية نفس الحقوق التى يحملها المواطنون الرومان .

وقد أدت هذه الاشكالات إلى تضاعف المسئوليات الساسية المخولة لمجلس الشيوخ الرومانى الذى كان يحمل السلطة السياسية فى الدولة. وقد تطورت هذه السلطات السياسية خلال التاريخ الرومانى فى عصور الملكية والجمهورية والامبراطورية . ويمكن تلمس بعض أوجه الشبه بين الدساتير السياسية اليونانية والقرطاجية والرومانية رغم اختلاف وجهات النظر وطبيعة الاقاليم والمجتمعات الطبقية فيها ولكن كانت السيادة من الناحية النظرية فى أصول هذه الدساتير ترجع فى الواقع إلى العناصر اليونانية. ومن أهم السلطات أثناء العصر الجمهورى الرومانى كانت تلك المخولة إلى القنصل الرومانى Consul وكذلك من يمثله فى المناطق الواقعه تحت النفوذ الرومانى وهو البروقنصل Proconsul ، هذا بالاضافة إلى الموظفين المكلفين بكافة الشئون التنظيمية فى الدولة سواء المالية أو الادارية. وقد تطورت هذه السلطات فى عصر الامبراطورية الرومانية وظهرت وظائف جديدة تطلبتها هذه التوسعات الامبراطوية مثل وظيفة البروكيوراتور Procurator وهـــو بمثابة الممثل للامبرطور فى الولايات الرومانية وكذلك وظيفة البروبريتور Propraetor الذى كان يحكم أيضا الولايات الامبراطورية .

وقبل الخوض فى تاريخ المغرب القديم فى هذه المرحلة الأولى من العصر الرومانى يلاحظ أن تلك المرحلة قد عاصرت بزوغ شخصيات رومانية

هامة فى المجتمع الرومانى ومن أهمها شخصية تيبريوس جراكوس Tiberius gracchus وأخيـــه جايوس جراكوس Gaius gracchus وسلا L. Sulla وماريوس C. Marus وبومبي وشيشرون ويوليوس قيصر وأوغسطس. وكان لهذه الشخصيات أثرها البالغ فى العمل على محاولة تحقيق الاصلاحات المباشرة التى تطلبتها تلك الأزمات الاقتصادية والسياسية السالفـة الذكر. ولكن لم تقابل هـذه المحاولات بالموافقة التامة من طرف مجلس الشيوخ الرومانى مما أدى إلى ظهور صراع داخلى فى هـذه المرحلة الأخيرة من الجمهورية الرومانية بين هؤلاء الشخصيات السياسية العظيمة وبين أعضاء مجلس الشيوخ الرومانى.

وفى هذه المرحلة الأولى قسم الرومان المغرب إلى ثلاثة أقسام رئيسية:

أولا: الولاية الافريقية وكانت تتضمن منطقة العاصمة القرطاجية بصفة خاصة وقد تحكم فيها الرومان بصورة كاملة.

ثانيا: ممالك بربرية تنقسم بدورها إلى ثلاث وحدات سياسية:

أ ـ نوميديا وعاصمتها قرطه وهى قسنطينة.

ب ـ موريطانيا القيصرية وتقع فى المنطقة الغربية من الجزائر وعاصمتها شرشال.

حـ ـ موريطانيا الطنجية وعاصمتها طنجة.

ويتجه تاريخ المغرب القديم فى هذه المرحلة الأولى من العصر الرومانى وهى المرحلة الأخيرة من الجمهورية الرومانية إلى إظهار الشخصية المغربية القديمة بصورة أكثر قوة من الجانب السياسى منها فى المرحله السابقة. فقد تمكن

البربر من تحقيق سيادتهم السياسية إلى حد كبير رغم أنها قد تعرضت بشدة إلى تدخل الرومان الذين خشوا من ازدهار القـــوة البربرية بدرجة يصعب التحكم فيها وتصبح بمثابة خطر جديد يهدد الكيان الرومانى ويحل محل القوة القرطاجية السالفة . ولكن على الرغم من ذلك فقد حاول البربر بصورة دائبة التخلص من التدخلات الرومانية والصمود لعمليات الضغط العسكرى والسياسى الرومانى . ولكن هذه المحاولات لم تصل إلى تحقيق غاياتها النهائية، واتجه الرومان إلى تدعيم كيانهم السياسى والحربى فى المغرب واحتلاله كلية والقيام بعمليات طبع المنطقة المغربيـة بالطابع الرومانى كغيرها من المناطق التى خضعت للسيادة الرومانية استكمالا لتحقيق تحويل منطقة البحر الأبيض المتوسط بأسرها إلى بحيرة رومانيـــة تحت سيادة مدينة روما العاصمة . ويتضح ذلك فى مرحلة تاريخ المغرب القديم فى عصر الامبراطورية الرومانية .

ويمكن للمؤرخ تتبع هـذه المحاولات البربرية فى الفترة التاليـة مباشرة للحرب البونية الثانية والتى يتضح فيها انقسام البربر على أنفسهم وانحياز ماسينسا إلى جانب الرومان . وقـــد كان الرومان يتبعون سياستهم التقليدية القائمة على التفرقة السياسية بين أفراد العنصر الواحد ممـــا يؤدى إلى تحقيق أغراضهم . فبعـد وفاة ماسينسا سـنة ١٤٩ ق . م . تلاه فى حكم المملكة البربرية ابنه مكيبسا Micipsa وبدأت الإشكالات البربرية الداخلية فى التواجد بصورة خطيرة على إثر وفاة هذا الإغليد فقد كان يتجه إلى تقليد ابنيه وهما أدهربال Adherbal ، أو كما يطلق عليـه أيضا آذربعل ، وهيامبسال زمام الحكم من بعده . ولكن ظهرت شخصية قوية

فى ذلك الوقت هى شخصية يوجورتا ، الذى يسمى أيضا يوغرطه 'Iugurtha وهو ابن غير شرعى لمستعنبعل أخو مكيبسا وكذلك أنجب هكيبسا إبنا شرعيا وهو غوده والذى لم يكن من الكفاءة والقدرة العقلية مثل يوجورتا . وكان مكيبسا يخشى جانب يوجورتا لما لمسه فيه من قوة الشخصية والحيلة ولذلك اتجه فى بداية الأمر إلى محاولة إبعاده عن المملكة البربرية ببعثه فى حملة عسكرية لتأييد الرومان فى عملياتهم الحربية فى أسبانيا . وقد أظهر يوجورتا فى هذه البعثة قدرات حربية فائقة كفلت له النجاح وتقدير الرومان مما دفع مكيبسا إلى ضرورة تقبله ومحاولة التوفيق بينه وبين أبنائه بتبنيه له والتوصية بالحكم من بعده لابنيه أولا ثم ليوجورتا بعد ذلك . وقد اكتسب هذا الأخير بهـذا الإجراء حقا شرعيا فى تولى العرش وأخذ يعمل بوسائله الانتهازية محاولا إخلاء كل من أدهربال وهيامبسال من طريقه والانفراد بالسلطة السياسية فى المملكة البربرية .

ولما توفى مكيبسا لم يتفق الورثة الثلاثة على تقسيم سلطات المملكة البربرية وانتهز يوجورتا هذا الموقف وأخذ يحاول تحقيق أهدافه الخاصة بطرق ملتوية مستخدما وسيلة المؤمرات تارة والرشوة تارة أخرى . وقد تمكن من النجاح فى بداية الأمر فى قتل هيامپسال ، أما أدهربال فقد التجأ إلى الدولة الرومانية مستنجداً بها ضد يوجورتا . وكان هذا الطلب محل عطف الساسة الرومان لأنه يتفق مع سياستهم التفريقية النزعة ويدعم أقدام حلفائهم فى المغرب . ولكن يوجورتا لم يتوان عن محاولة اكتساب ود الرومان فى هـذا الصدد واتبع نفس الأسلوب الملتوى فى تحقيق أغراضه مع أعضاء مجلس الشيوخ الرومانى ونجح فى هـذا المجال . ولذلك قرر الرومان حل

هذا الاشكال الداخلى بين البربر بارسال بعثة رومانية ١١٦ ق م إلى المملكة البربرية كمحاولة لإجراء التوفيق بين يوجورتا وأدهربال بتقسيم المملكة البربرية بينهما . وتحقق هذا الإجراء فى بداية الأمر وقسمت المملكة البربرية إلى مملكة بربرية شرقية يحكمها أدهربال وتمتد من حدود الدولة القرطاجية القديمة، والتى أصبحت الولاية الافريقية الرومانية، حتى مدينة قرطه، بينما تمتد المملكة البربرية الغربية غرباً حتى الحدود الشرقية المغرب الأقصى أى وادى ملوية وذلك تحت حكم يوجورتا . ولكن هـذا التقسيم السياسى والادارى للملكة البربرية لم يؤد فى حقيقة أمره إلى حل لهـذا الاشكال البربرى الداخلى لأن يوجورتا لم يكن ليرض بهذا الموقف بل كان يهدف إلى الانفراد كليـــة بالسيادة السياسية بالمملكة البربرية المتحدة . ولذلك سرعان ما اتجه إلى تحقيق غرضه بالقوة العسكرية ووجه جيشه نحو مملكة أدهربال وتمكن من دخول العاصمة البربرية الشرقية وهى مدينة قرطه وحقق هدفه وأعاد الوحدة السياسية مرة أخرى للملكة البربرية تحت رئاسته . ولم يكن الرومان ليقبلوا هذا التطور الخطير الذى يعتبر منافيا لسياستهم ومنذراً بتكوين قوة بربرية لها شأنها فى المغرب يمكن أن تحل محل القوة القرطاجية ولذلك انتهزوا حادثة معينة مستهم عن قرب وهى تنكيل يوجورتا بشدة بالسكان الايطاليين بمدينـــة قرطه والذين كانوا يتجهون إلى مساعدة أدهربال ممـــا أثار نفوس الرومان الذين قرروا الدخول فى حرب مباشرة مع يوجورتا . وبذلك تعرض المغرب مرة أخرى لتدخل رومانى كبير أدى فى نهايته إلى احتلال الرومان للمغرب .

الصراع بين يوجورتا والرومان

يعتبر يوجورتا من الشخصيات البربرية الهامة التى حاولت تحقيق السيادة البربرية فى المغرب رغم مختلف الصعوبات المحيطة بموقفه وأساليبه فى هـذا الصدد . وإن دخوله فى صراع شديد مع الرومان ليدل على شجاعته الفائقة فى ذلك الوقت . وقد أستمر صراعه مع الرومان من سنة ١١١ — سنة ١٠٥ ق م. ويلمس الدارس فى مراحل هذا الصراع أمثلة للمجتمع البربرى السائد فى المغرب فى تلك الفترة . فرغم محاولات يوجورتا المتواصلة للابقاء على الوحدة السياسية البربرية فقد كان البربر فى حقيقة أو ضاعهم الاجتماعية يتضمنون العناصر البربرية التى اقتربت فعلا من الاستقرار فى المدن والتحضر فى حياتها مع المجتمعات المعاصرة سواء أكانت قرطاجية الأصل أورومانية ، وكذلك العناصر البربرية الأخرى التى كانت لاتزال فى طورها القبلى على حافة الصحراء تحاول الدنو من المجتمعات المتحضرة ولكنها لم تألف بعد حياة المدن والخضوع السياسى لدولة بربرية متحدة . ولذلك فقد كانت عمليـة الوحدة السياسية البربرية فى ذلك الوقت من المهام الصعبة التحقيق لما تتضمنه من عناصر ذات وجهات مختلفة . ويمكن اعتبار ذلك أيضا من الأسباب التى يلمسها الدارس فى اشتداد الفرقة السياسية بين الجوانب البربرية فى بعض فترات الصراع بين البربر والرومان. وتنبغى الإشارة أيضا إلى أن الطبيعة الجغرافية فى المغرب تعتبر من العوامل المتصلة بهذا الموضوع ، فليست تلك الطبيعة من السهولة والتجانس بدرجـة تكفل تحقيق تلك الوحدة السياسية بسهولة فى ذلك الوقت وذلك لكثرة المناطق الجبلية وعدم توفر الطرق الموصلة بينها . ولذلك يلاحظ أن السياسة الرومانية فيما بعـــد قد صممت على

إعطاء أهمية خاصة إلى طرق المواصلات سواء فى المغرب أو فى غيره من مناطق النفوذ الرومانى لكى تحقق التحكم الرومانى فى كافة تلك المناطق التى تصلها السيادة الرومانية .

وقد اتبع يوجورتا نفس وسائله الملتوية مع القوات العسكرية التى أرسلها الرومان لمحاربته وعلى سبيل المثال تلك القوة التى كانت بقيادة القنصل بستيا L. Calpurinus Bestia . ولكن هذه الوسيلة لم تكن دائمة المفعول مع كافة القادة الرومان ، ويظهر ذلك عندما تسلم القنصل ميتلوس Q.Metllus قيادة جيش رومانى جديد ضد يوجورتا سنة ١٠٩ ق . م . إذ دخلت الحرب بين يوجورتا والرومان مرحلة أخرى فى عهده ونجح هذا القائد فى إحراز الانتصار على يوجورتا الذى اضطر إلى الالتجاء إلى الهضاب والمناطق الجبلية الجزائرية والتحصن بها إلى أن يحين الوقت المناسب لكى يعاود مرة أخرى الحرب ضد الرومان . وهذه الظاهرة يمكن تلمسها فى المجتمعات البربرية التى تتسلح ببيئتها البرية والجبلية عندما تواجهها المخاطر . ولم يقتصر يوجورتا على هذه الطريقة بل عمد أيضا إلى اكتساب جانب القبائل البربرية فى الجنوب والمعروفة باسم قبائل جداله والتى كانت لا تزال على حالتها القبلية وكذلك حاول التحالف مع بربر الغرب فى موريطانيا والذين كانوا تحت زعامة ملكهم بوخوس . وقد نجح يوجورتا فى هذه الخطة البربرية الوحدوية وتمكن من توجيهها نحو العاصمة البربرية قرطه فى سبيل استعادتها وطرد النفوذ الرومانى منها . ولم يتمكن القنصل الرومانى ميتلوس من حسم الموقف فى الحال نظراً لحدوث بعض التطورات فى الاطار الرومانى التى استوجبت منه جهداً خاصاً . فقد ظهرت شخصية رومانية قوية فى ذلك الوقت وهى

شخصية ماريوس الذى كان أصلا يعمل مع ميتلوس ولكنه كان طموحاً ويميل إلى الجانب الشعبى ولذلك كان من الثائرين على الأشراف ورجال مجلس الشيوخ الرومانى . وقد تحقق طموح ماريوس فى التوصل إلى درجة القنصلية عندما تقدم إليها سنة ١٠٧ ق.م . وبذلك انتقلت القيادة الرومانية فى وضعها الجديد إلى ماريوس الذى أعطى اهتماماً خاصا إلى القوات المسلحة وأضاف أعدادا جديدة إليها بعد قراره فتح باب التطوع فى الجيش الرومانى ودخل هذا الجيش فى بعض عمليات حربية تمهيدية فى شرق المغرب تهدف إلى إعادة توطيد السيادة الرومانية فى المنطقة قبل مواجهة يورجورتا بصفة مباشرة . وكان من أهم معاونى ماريوس شخصية رومانية قوية أخرى هى شخصية سلا Sulla الذى اتخـــذ وسيلة خاصة فى الصراع مع يورجورتا تظهر فيها الخديعة والالتواء . فقد عمل سلا على تحقيق خطة التفرقة بين البربر الغربيين وبربر يوجورتا وذلك باغراء الملك بوخوس على التخلى عن تحالفه مع يوجورتا نظير مكاسب معينة وانهاء هذا الصراع الرومانى البربرى . ونجح سلا فى هـــذا السبيل وتدخل بوخوس فعلا محاولا اقناع يوجورتا بهذا الموضوع الذى يؤدى إلى السلام بين الطرفين البربرى والرومانى وطلب منه الحضور بنفسه للتفاوض فى هذا الشأن . وكان سلا على اتفاق سابق مع بوخوس فى تدبير هذه المؤامرة للايقاع بيوجورتا والقبض عليه وبالتـالى التخلص منه . وقـــد تحققت هـذه العملية الغادرة وقبض على يوجورتا ثم قتل بعد ذلك ســـنة ١٠٤ ق.م . وبوفاة يوجورتا بدأت صفحة أخرى فى تاريخ المغرب القديم اقتربت فيها السيادة الرومانية من نشر نفوذها على أرجاء المنطقة بصورة أقوى من قبل ، لأن تخلص الرومان من هذا الزعيم البربرى القوى قد أتاح لهم تحقيق أغراضهم

إلى حد كبير . وتنبغى الإشارة فى هذا الصدد إلى أن التفرقة والإنقسام بين العنــاصر البربرية كانت من أهم أسباب تلك الهزيمة أمام الرومان الذين اشتهروا عبر التاريخ بحكمتهم المبنية على إيقاع الفرقة بين العناصر التى يرغبون فى التحكم فيها مما يساعد على تنفيذ أغراضهم .

وكان من المنتظر بعد هذه التطورات فى تاريخ المغرب القديم أن يستحوذ الملك بوخوس على ثمن خديعتــه للملك البربرى يوجورتا بضم جزء من المملكة النوميدية الغربية إلى مملكة موريطانيا كما كانت المنطقة الشرقية من نوميديا قد ضمت إلى الملك غودة ، وبذلك توزعت التركة البربرية بعـد وفاة يوجورتا وأصبح مصير هذه الممالك البربرية الضعيفة متوقفـا على مدى رضا السادة الرومان . ولذلك يلاحظ أن التطورات الداخليـة والخارجية فى الجمهورية الرومانية فى تلك المرحلة قد أثرت كل التأثير على أحداث هذه الممالك البربرية ومستقبلها . وقبل التعرض إلى أمثلة لهذه الحقيقية يلزم التعرف على بعض التطورات الداخلية فى روما فى تلك المرحلة وبصفة خاصة الصراع الداخلى حول السيـادة السياسية ووجهـات النظر المختلفة بين طبقات المجتمع الرومانى سواء الطبقة الارستقراطيـة التى كانت لها السيادة السابقة أو الطبقة الشعبية التى كانت تحاول انتزاع الحقوق من طبقة الأشراف. وقد انعكست هذه التصرفات الرومانية البحتة على الاحداث المغربية وما تضمنته من تطورات .

موجز للتطورات السياسيه الرومانية الداخليه فى أواخر عهد الجمهوريه :

على الرغم من انتصارات الرومان وتمكنهم من القضاء على الدولة القرطاجية فقـد كانت تواجههم فى الواقع عدة إشكالات سياسية داخليـة

وخارجية . فمن الناحية الداخلية اشتد النزاع حول السيادة السياسية بين طبقات الشعب وكان من المنتظر حدوث هذا الصراع الداخلى لما تضمنته العناصر الخاضعة لنفوذ مدينة روما فى شبه الجزيرة الايطالية من مجموعات مختلفة تطلبت بعض الوقت لإندماجها وحصولها على حقوق متساوية وتتفق جميعها فى حمل صفة المواطن الرومانى . وقد كانت طبقة الأشراف لا تزال تحاول المحافظة على كيانها وتمانع فى السماح لطبقات الشعب الأخرى فى المساواة معها فى الحقوق . كما تجسمت الاشكالات الداخليــــة حول السيادة السياسية فى عدد من الأحزاب الأرستقراطية والشعبية . ولما كان مجلس الشيوخ الرومانى تغلب عليه الصفة الارستقراطية فقد بدأ صراع شديد بينه وبين القادة الشعبيين . ومن ناحية أخرى كان لبعض الأوضاع الناجمة عن الحروب القرطاجية والأسبانية وكذلك الحروب فى منطقة الشرق الأدنى أثرها فى ظهور بعض المشاكل مثل مشكلة الجنود المسرحيين بعد انتهاء هذه العمليات الحربية فقد كانوا يمثلون عبئا ثقيلا على المجتمع الرومانى وهم فى نفس الوقت يحملون مشاعر معينة بعد تحقيقهم للأغراض الحربية. وهذه المشاعر تتطلب المكافأة المناسبة بالمال أو بالأرض. وكذلك أيضا طبقة العبيد التى لم تفتأ عن الثورة من آن إلى آخر طالبة الحصول على بعض الحقوق من السادة الرومان . وقد كان مجلس الشيوخ الرومانى يحاول حل هذه المشاكل الداخلية على أيدى القناصل المنتخبين ولكن تلك المهمة لم تكن بالهينة نظراً لتعدد وجهات النظر بين الطبقتين الأرستقراطية والشعبية فلكل حزب رأيه الخاص فى حل هذه المشاكل مما ينجم عنه وجود معارضة شديدة تؤخر حل هذه المشاكل وتؤدى إلى تفاقم الأزمات الداخلية وكانت العناصر المتبربرة فى وسط أوروبا والتى جاءت نتيجة الضغط البشرى

والاقتصادى تحاول انتهاز وجود هـــذه المشاكل وتغير بدورها على الدولة الرومانية وتحاول سلب مايمكن أن تقع يدها عليه بل تحاول التحكم فى بعض الأراضى الرومانية ممـــا كان يتطلب حلا سريعا ومنح سلطات استثنائية للقادة الرومان . وقد حدث ذلك سنة ١١٣ق.م. عندما تسللت هذه العناصر الجرمانية ووصلت إلى شبه الجزيرة الإيطالية واقتربت من مدينة روما ولكن نجح ماريوس فى انقاذ الجمهورية الرومانية وكذلك ظهرت إغارات القراصنة فى البحر الأبيض المتوسط ونتج ذلك عن عـدم تواجد النشاط البحرى الهائل الذى كان للدولة القرطاجيـــة يد فعالة فى تحقيقه والذى توقف بانتهائها ، وقد وصلت جرأة هؤلاء القراصنة ، الذين كانوا ينتمون أصلا إلى بعض الجزر فى شرقى البحر الأبيض المتوسط وساحل آسيا الصغرى، إلى مهاجمة الأراضى الإيطالية والاستحواذ على مايمكن لهم سلبه والعودة إلى سفنهم . وقد أدت هذه التهديدات إلى عدم شعور الرومان بالأمن والاستقرار مما جعل هذه المسألة من أولى المشاكل المباشرة فى ذلك الوقت .

ومما يؤكد مدى تفاقم الاشكالات الداخلية السالفة الذكر تلك الحادثة الخطيرة فى حياة الجمهورية الرومانية إذ تجرأت بعض العناصر الإيطالية فى خضم معارضتهم للرومان لأجل الحصول على المساواة فى الحقوق ، على إقامة حكومة أخرى مستقلة داخل الوطن الرومانى تناوىء حكومة مدينة روما ، واتخذت مدينـة كورفينيوم Corfinium عاصمة لتلك الدولة الإيطالية[١]. وقد أدت تلك الخلافات الداخلية إلى درجة الحرب العلنية. ولم يجد

---

(١) عبد اللطيف أحمد على ، نفس المرجع ، ص ١٨٥ .

مجلس الشيوخ الرومانى حسما لهذا الخطر المهدد للكيان الرومانى بأسره إلا الاعتراف بحقوق هؤلاء الإيطاليين ومساواتهم بالسادة الرومان وحملهم للجنسية الرومانية. ويمكن اعتبار هذه الحادثة بمثابة خطوة فعالة فى طريق الحصول على الحقوق المساوية للسادة الرومان وهى فى الحقيقة انتصار للقوى الشعبية فى عملية صراعها مع القوى الارستقراطية فى المجتمع الرومانى.

وتنبغى الإشارة إلى أن هذه التجارب الشديدة التى واجهت الرومان قد أعطتهم الجانب التجريبى الكافى فى قيادتهم السياسية مما سمح لهم بممارسته فى المرحلة التالية لعصر الجمهورية وهو عصر الامبراطورية . فرغم هـــذه الشدائد الداخليـة التى لحقت بالرومان فقـد أدت إلى اكتسابهم الحنـكة السياسية اللازمة من وجهة نظرهم فى تحقيق أهدافهم .

ولم تقتصر هذه الاشكالات الداخلية والخارجية على النطـاق الأوربى أو الافريقى بل لقـد وصلت مشاكلهم إلى الجـانب الآسيوى أيضا ، فى منطقة الشرق الأدنى القديم. ولقد كانت تلك المنطقة صاحبة السيادة الحضارية والسياسية قبل الرومان بعشرات القرون ، وكانت تحمل فى طياتها تركة حضارية هائلة توقفت تحت الضغط الخارجى منذ سيادة الإسكندر الاكبر وخلفائه عليها ولكن ذلك لم يمنع من محاولتها من آن لآخر آداء دورها السياسى والحضارى مره أخرى. ولذلك لم تكن تلك المنطقة لتقبل بسهولة سيادة الرومان عليها بقوة السلاح وهكذا وجد الرومان صعوبات شتى فى عملياتهم الحربية فى شرقى البحر الأبيض المتوسط وبصفة خاصة فى منطقة أرمينيا وبنطوس وبارثيا وسوريا وفلسطين ومصر. وذلك لأن هذه المناطق التى كانت لا تزال مراكز للفكر والحضارة رغم ضعفها فى المجال السياسى . تختلف إختلافا كبيرا عن المناطق الأوربية والغربية فى ذلك الوقت . وعلى سبيل المثـال لا تزال

الآثار المصرية وغيرها حتى الوقت الحاضر تشهد على محاولة الرومان التقرب من الآلهة المصرية والشعب المصرى القديم باقامة المعابد إرضاءله وتخفيفا لمقاومته لهم، بل لقد سجل الرومان أسمائهم باللغة المصرية القديمة والخط الهيروغليفى أثناء فترات حكمهم لمصر كمحاولة منهم فى سبيل التقرب من هذا الشعب القديم العريق .

ومثال واضح لحركة المقاومة الشديدة للنفوذ الرومانى فى الشرق الأدنى القديم يظهر بوضوح فى شخصية ميثراداتيس السادس ملك بنطوس قرب نهاية القرن الثانى وبداية القرن الأول قبل الميلاد . وكان الملك قد توغل فى آسيا الصغرى مما اعتبره الرومان خطراً شرقياً يهدد كيانهم السياسى فى الشرق . وقد جندت الجمهورية الرومانية شخصية فذة هى شخصية سلا الذى كان ينتمى إلى الجانب الارستقراطى فى مجلس الشيوخ الرومانى. وسافر سلا إلى الشرق وبذل جهوداً كبيرة فى حروبه مع ميثراداتيس ولكنه كان يتطلع فى نفس الوقت إلى ضرورة العودة إلى العاصمة الرومانية لمواجهة إشكالات الصراع الداخلى مع الحزب المعادى له وهو الحزب الشعبى برئاسة ماريوس . وقد زاد فى رغبته الملحة فى ضرورة العودة إلى روما انتهاز الحزب الشعبى فرصة تغيب سلا والانتقام من الحزب الارستقراطى . ولذلك لم يترك سلا فرصة عقد صلح مع ميثراداتيس سنة ٨٥ ق‌م واتجه إلى روما لأخذ الثأر من الحزب الشعبى . وعندما وصل إلى روما بدأ يستحوذ على السلطة الكاملة لشخصه ولحزبه الارستقراطى ، وبطبيعة الحال لمجلس الشيوخ الرومانى التى كانت غالبية أعضائه من هذا الحزب . ولم يترك سلا أية فرصة لتحقيق أغراضه، فاستغل تواجد بعض المؤيدين لوجهة نظره

من طبقة الفرسان ,واقترح زيادة عـــدد أعضاء مجلس الشيوخ الرومانى حتى يتمكن من إدخال أولئك المؤيدين له إلى المجلس تدعيما له ولحزبه وإضعافا للحزب الشعبى . ومن أهم الخطوات التى مارسهـا سلا فى سبيـــل تحقيق السيادة الرومانية اقتراحه تنظيم وظائف ثابتة فى الولايات الخاضعة للنفوذ الرومانى مثل وظيفة نائب القنصل وذلك لادارة تلك الولايات فى المجال المدنى والحربى مع التحكم فى أوضاع هـذه الولايات بجعـل مجلس الشيوخ الرومانى صاحب السلطة الأولى فى تسيير شئونهـا الهامة . وتعتبر هذه الخطوة مرحلة هامة فى التطور نحو الامبراطورية الرومانية لأنها ثبتت أقدام الرومان بصورة منظمة ومخططة فى هذه الولايات الرومانية مما استلزم بناء المدن وتجهيز الطرق الخاصة بهـا واتخاذ عاصمة بها قصر الحاكم الرومانى كمركز رئيسي لإدارتها . وقد استكملت هذه الخطوات وإجراءاتها التنفيذية بصورة فعلية وعلى نطاق واسع فى عصر الامبراطورية الرومانية .

ولكن هذه الخطوات الهامة التى نجح سلا فى إقامتها لم تكن نهاية المطاف فى طريق التطور السياسى فى هذه المرحلة الحاسمة من التاريخ الرومانى بل لقد كان لعمليات التوسع الرومانى الخارجى أثرها فى إزدياد عدد من الاشكالات الداخلية السالفة الذكر لأن هذه التوسعات قد تطلبت زيادة القوات العسكرية البرية والبحرية وبالتالى ترتبت على انتهاء عملياتها الحربية ضرورة تسريح هذه القوات وضمان أماكن معينة لاقامتها . ومن ناحية أخرى لم يكن القادة المنتصرون فى هذه الحروب ليقبلون الامتثال لما يصادفهم من إشكالات داخلية فى روما بعد عودتهم إلى وطنهم بل كانت انتصاراتهم الحربية فى الجبهات الخارجية تدفعهم إلى الرغبة فى استكمال انتصاراتهم فى الجبهة الرومانية الداخلية . وقد تجسم ذلك فى بعض الشخصيات الرومانية الفذة التى بدأت تتطلع إلى تحقيق مطالبهـا فى

المجتمع الرومانى وعلى رأسها شخصيتى پومبى ويوليوس قيصر . ولم يكن مجلس الشيوخ الرومانى ليستطيع الوقوف أمام هؤلاء القواد العظام الذين أنقذوا الجمهورية الرومانية من عدد من الإشكالات الخارجية سواء كانت فى منطقـة الشرق الأدنى أو فى القطاع الأوربى وبصفـــة خاصة فى منطقة غالة .

ومن أمثلة انتصارات هؤلاء القادة العظام مما كفل لهم تسلم زمام الأمور السياسية فى الجمهورية الرومانية تلك العمليات الحربية الهائلة التى قام بهـا پومبى فى غالة وأسبانيا وبنطوس . فعلى الرغم من وعورة تلك العمليـات الحربية وشدة المقاومة المحليـــة فقـد نجح پومبى فى إحراز الانتصار ضد القائد الايبيرى سيرتوريوس Q. Sertorius سنة ٧٣ ق.م. ومن الأهمية الإشارة إلى أن أعداء الرومان كانت لديهم الفطنة الكافية فى عملياتهم الحربية ولم تقتصر جهودهم على الانفراد بها بل عقـــدوا المحالفات فيما بينهم ضد الرومان . ومن أمثلة تلك المحالفات الغير المنتظره تحالف سيرتوريوس فى أسبانيا مع ميثراداتيس فى بنطوس على ساحل البحر الأسود .(١)

ولذلك فقد كانت خطوة پومبى التالية بعد انتصاره على سيرتوريوس التوجه إلى منطقة الشرق الأدنى لمحاولة إيقاف ميثراداتيس عن تهـديد الكيان الرومانى فى القطاع الشرقى . وكان هذا التهديد قد وصل إلى مداه عندما تمكن ميثراداتيس من تحقيق الإنتصار على القوات الرومانية فى بداية الحرب . ولكن عندما تمكن بومبى من تسلم قيادة القوات الرومانية فى تلك المنطقة نجح فى إحراز الانتصار على ميثراداتيس ملك بنطوس وتيجرانيس

(٣) عبداللطيف أحمد على « نفس المرجع » ص ٢٢٤ .

Tigranis ملك أرمينيا. ولم يقتصر هذا الانتصار الرومانى على الجانب البرى بل شمل أيضا الجانب البحرى فى البحر الأسود .

ولم يكتف بومبى بقدراته الحربية الفائقة فى سبيل تأمين سلامة الجمهورية الرومانية على عملياته العسكرية فى شبه جزيرة أيبريا والشرق الأدنى بل لقد نجح أيضا فى القضاء على عمليات القراصنة التى كانت تهدد الامن الرومانى. ولم يقتصر فى هـذا الصدد على القضاء عليهم فحسب بل حاول حل إشكالهم الرئيسى وهو الإشكال الاقتصادى بتوفير أماكن اسكناهم تكفـــل لهم الاستقرار وإيقاف عمليات السلب والنهب والتهجم غير المشروع على السكان الامنين فى المدن الاصلية وكذلك فى السفن التجارية فى حوض البحر الابيض المتوسط . وكان لهذه الخطوة الفعالة أثرها فى ارتفاع أسهم التقدير الكامل الشخصية بومبى فى المجتمع الرومانى .

ومن أعماله الحاسمة أيضا فى الاطار الداخلى فى سبيل الامن الرومانى نجاحه فى القضاء على الثورة التى قام بها العبيد بقيادة زعيمهم سبارتاكوس Spartacus . وكانت تلك الثورة قد وصلت إلى مداها الخطير فى تهديد الامن الرومانى كلية . وقد تمكن بومبى بفضل جدارته وخبرته الطويلة فى انهاء هذه الثورة ثم بدأ فى التفرغ بعد هذه الجهود المتواصلة إلى القطاع الرومانى السياسى الداخلى الصرف . وتقدم إلى وظيفة القنصلية سنة ٧٠ ق م، وكانت وجهته السياسية تميل إلى جانب الحزب الشعبى، ولذلك يعتبر تبوأه السلطة السياسية انتصارا للجانب الديموقراطى على الجانب الارستقراطى الممثل فى مجلس الشيوخ الرومانى . وليس معنى ذلك أن جميع المشروعات التى سبق لسلا اجراءها قد عمل بومبى على إزالتها انتقاما منه ومن حزبه

الارستقراطى ، فيلاحظ المؤرخ أن بعض تلك المشروعات الخاصة بتنظيم الولايات الرومانية قد عمـــل پومبى على تدعيم أسسها تأكيداً للسيادة الرومانية فى الخارج ، فلم تكن المعاداة بينه وبين سلا لتكون على حساب مصلحة الرومان فى الخارج . وقد اتجه پومبى الى هذه الجوانب التنظيمية فى سياسة الجمهورية الرومانية بعد خبرته الطويلة فى الولايات الخاضعة للنفوذ الرومانى والتى كان قد نجح فى تنظيم إدارتها مما هيأ للدولة الرومانية مصدراً ثابتاً من الثروات المختلفة التى ساعدت على تحقيق الكثير من المشروعات الرومانية . ولكن انتصارات پومبى المتواصلة لم يتقبلها بعض منافسيه داخل نطاق الحزب الشعبى وبصفة خاصة كراسوس . ولكن من ناحية أخرى كان لدى پومبى بعض الشخصيات الهامة المؤيدة لوجهه نظره مثل الخطيب الرومانى الشهير شيشرون Cicero . وقد حاول كراسوس أن يكسب إلى جانبه شخصية رومانية أخرى لامعة فى ذلك الوقت بدأت تظهر فى مجال السياسة الرومانية الداخلية وهى شخصية يوليوس قيصر C. Julius Caesar. وقد وصلت مظاهر هذا الصراع الداخلى إلى أشدها بين هذه الشخصيات السالفة الذكر و حاول شيشرون إيقاف هـــذا الصراع والتوفيق بين مختلف وجهات النظر . ورغم علم پومبى بهـذه الجوانب المختلفة التى تدور بعنف حوله فقد قرر تسريح قواته المسلحة بمجرد عودته أخيرا إلى روما سنة ٦٢ ق م بعد تثبيت أركان النفوذ الرومانى فى الشرق الأدنى فى بنطوس وسوريا وفلسطين . وكان فى إمكانه فرض وجهة نظرة بالقوة العسكرية لانهاء هـذه المعارضات الموجهة ضده ولكنه آثر التفاهم السلمى وطالب باقرار الإجراءات التنظيمية التى سبق له اتخاذها فى شأن الولايات الخاضعة

للنفوذ الرومانى ، ولكن مجلس الشيوخ الرومانى قد رفض الموافقة عليها ، وبذلك هزم پومبى البطل فى الإطار الرومانى الداخلى رغم جهوده الموفقة السالفة الذكر فى سبيل الرفعة الرومانية . ومنذ ذلك الوقت بدأ نجمه فى الأفول وتطلعت شخصية يوليوس قيصر إلى الازدهار فى المجتمع الرومانى وبصفة خاصة عندما نجح فى الحصول على وظيفة القنصلية سنة ٥٩ ق م .

وقد اتبع يوليوس قيصر سبيل پومبى فى الحصول على المجد العسكرى الخارجى لتأمين السيادة الرومانيـة وزيادة الثروات العائدة إلى الجمهورية الرومانية . وكان مجال نشاطه فى منطقة غربى أوروبا وبصفة خاصة غاله . وكانت هذه المنطقة تهدد الأمن الرومانى لما اجتاحتها من تحركات بشرية هائلة هى الشعوب الجرمانية ولذلك ركز يوليوس قيصر جهوده فى إيقاف هذه الهجمات وتأمين الحدود ، وحقق ذلك فعلا ووصل إلى أبعد مدى عندما نجح فى إنزال قواته فى الجزيرة البريطانية سنة ٥٤ ق م . وكما سبق أن واجه پومبى إشكالات النزاع الداخلى الرومانى رغم إنتصاراته الخارجية فقد واجه قيصر أيضا هذه الإشكالات مرة أخرى ، فقد كانت المعاداة القديمة بين كل من پومبى وكراسوس لاتزال على اشدها وحاول يوليوس قيصر التلطيف من هذه الإشكالات الداخلية والتوفيق بين كل من پومبى وكراسوس ولكن سرعان ماتطورت الأوضاع الداخلية مرة أخرى حينما انفرد پومبي بوظيفة القنصلية بعد وفاة كراسوس . ولم يكن هذا الموقف ليرض يوليوس قيصر الذى لمس رغبة پومبى فى الاستحواذ على السيادة السياسية وخاصة عندما وصل پومبى الى درجة بعيدة فى هـــذا الصدد باقتراحه باخلاء طرف يوليوس قيصر من زمام القيادة العسكرية تمهيدا لإبعاده عن النشاط الحربى والسياسى . بل لقد حصل پومبى على موافقـة

مجلس الشيوخ على اعتبار يوليوس قيصر عدوا [1] للجمهورية الرومانية . ولكن هذا الإجراء لم يكن ليتقبله يوليوس قيصر بسهولة ولذلك تقدم فور علمه بذلك بقواته نحو روما. وهكذا وصل الصراع الرومانى الداخلى إلى أشده ومهد إلى إحداث التطور الكبير فى السياسة الرومانية الداخلية وهو بداية الانتقال نحو مرحلة الامبراطورية الرومانية . ويغلب أن بومبى كان يدرك تماما مدى قوة قيصر العسكرية ولذلك على الرغم من كفاءته وقدراته السالفة فقد فضل الرحيل عن إيطاليا واتجه إلى بلاد الإغريق مصطحبا معه عددا من أعضاء مجلس الشيوخ الرومانى . وكان تصميم قيصر على اللحاق ببومبى والتخلص منه أكيدا لدرجة أنه بذل جهدا مضاعفا فى اقتفاء أثر بومبى بل ومؤيديه فى كافة أنحاء الولايات الخاضعة للنفوذ الرومانى. ولذلك اتجه أولا إلى أسبانيا لتحقيق هذا الأمر وتأمين ظهره قبل أن يتجه إلى الشرق . وقد نجح قيصر فى غرضه وتمكن من الحاق الهزيمة ببومبي عند فارسالوس Pharsalus فى شمال شرق بلاد اليونان وفر بومبي إلى مصر. ولكن لم تستمر حياته طويلا لأنه قتل هناك . وقد تتبعه قيصر إلى مدينة الإسكندرية العاصمة المصرية فى عصر البطالمة وقد كان الحكم فى تلك الفترة قد انتقل إلى الملكة كليوباترة ذات الشخصية القوية التى نجحت فى إجتذاب عدد من الحكام الرومان إلى جانبها وكان يوليوس قيصر أول أولئك الذين تأثروا بها . ولم يكتف يوليوس قيصر بهذا القدر من انتصاراته على خصمه بومبي بل لقـــد تابع خطته فى القضاء على مؤيدى عدوه فى كافة أرجاء المناطق الخاضعة للنفوذ الرومانى فى ذلك الوقت وعلى رأسها منطقة المغرب .

---

(١) عبد اللطيف احمد على ، نفس المرجع ، ص ٣٨٣ .

وانفرد بعد ذلك بالسلطة السياسية ولكنه على الرغم من قدراته وعملياته الحربية السالفة الذكر ونشاطه المتواصل فى سبيل السيادة الرومانية فقد انتهت حياته على إثر مكيدة قام بها عدد من أعوانه وبصفة خاصة ماركوس يونيوس بروتوس وديكيموس بورتوس وتمكنوا من اغتياله فى مجلس الشيوخ الرومانى ، فى سنة ٤٤ ق م .

وانتقل الحكم من بعده إلى ماركوس أنطونيوس الذى كان فى خدمة يوليوس قيصر . وتكونت لجنة ثلاثية من أنطونيوس ولبيدوس وأوكتافيان للقيام بتوطيد الاستقرار السياسى مرة أخرى فى الدولة الرومانية . ولكن تصرفات أنطونيوس الخاصة لم تكن لتحظى بالقبول من طرف أوكتافيان ومثال ذلك اتجاهه إلى كليوباترا ملكة مصر وتزوجه منها على الرغم من كونه ملتزما بالزواج من أوكتافيا بل لقد تطرف الموقف عندما ازداد تقرب أنطونيوس من كليوباترا إلى درجة أنه قد أثير احتمال أنه قد أوصى بأملاك الرومان الشرقية إلى كليوباترا[1]. وبدأ هذا الصراع يتخذ مظهره الحربى بين كل من أوكتافيان وأنطونيوس ومعه كليوباترا . وحدثت الموقعة البحرية بين الطرفين سنة ٣١ ق م فى أكتيوم Actium وتمكن فيها أوكتافيان إحراز الانتصار مما أدى إلى التمهيد لانفراده بالسيادة السياسية الرومانية. وقد تم ذلك فعلا عندما أتجه انطونيوس إلى الانتحار بعد فراره إلى الاسكندرية وسماعه عن إشاعة إنتحار كليوباترا . واتجه كذلك

---

(١) لانجر ، وليم ؛ موسوعة تاريخ العالم ، جـ ١ ، ترجمة زكى على للفصل الخاص (روما فى المرحلة المتوسطة والأخيرة من الجمهورية) ، أشرف على الترجمة محمد مصطفى زيادة ١٩٥٢ ، ص ٢٦٧ .

أوكتافيان إلى الاسكندرية ولم يكن أمامه إلا استكمال انتصاراته بضم مصر إلى نطاق النفوذ الرومانى . ولم يقبل أوكتافيان محـــاولات كليوباترا للتأثير عليه كسلفه ولذلك سرعان ما نفذ هدفه السياسى ورجع بعد ذلك إلى روما بادئا مرحلة الامبراطورية الرومانية حاملا إسم الامبراطور أوغسطس Augustus .

من ذلك يتبين مدى جسامة التجارب السياسية والحربيــة التى واجهتها الجمهورية الرومانية فى مرحلتها الاخيرة داخل نطاق الوطن الرومانى وفى أرجاء الولايات الخاضعة أو فى طريقها إلى الخضوع للسيادة الرومانية . ولم تكن منطقة المغرب بالخارجة عن هذا النطاق فقد كانت صلة الرومان بها أقدم وأوثق من غـيرها من مناطق البحر الأبيض المتوسط . كما أن تجربة الرومان السياسية الطويلة مع الدولة القرطاجية ليست بالبعيدة ، ممـا جعل هذه المرحلة الأولى من العصر الرومانى فى المغرب بمثابة مرحلة انتقال من نشر النفوذ الرومانى فى المغرب تحقيقا لتثبيت أركان السيادة الرومانية، إلى مرحلة التحكم المطلق الحربى والسياسى فى المغرب وتحويله كلية بالقوة إلى ولاية رومانية داخل نطاق الامبراطورية .

أما عن أهم الظواهر التاريخية المغربية فى تلك المرحلة وبصفة خاصة بعد وفاة الملك بوجورتا فيلاحظ انعكاس تلك الأحداث الرومانية، بما تضمنته من مظاهر صراع داخلى وخارجى حول السيادة الرومانية، فى الإطار المغربى. وقد ظهر ذلك فى مكافأة الرومان للملك بوخوس بمنحه نصيبا من نوميديا الغربية نتيجة تعاونه معهم. ولكن ذلك لا يعنى استمرار هذا النفوذ الرومانى فى فاعليتــه فى المجتمع المغربى القديم فى تلك الفترة بل لقــد كانت لا تزال

هناك بعض الاتجاهات البربرية المحلية التى تهدف إلى إبعاد النفوذ الرومانى وإرجاع الاستقلال الذاتى لتلك الممالك البربرية . وقد نجح فى هـذا الصدد الملك ماسينسا الثانى ابن الملك غوده واستعاد السيادة البربرية مرة أخرى .
وقد اتضح انعكاس الصراع السياسى بين كل من ماريوس وسلا فى المغرب عنـدما ظهرت شخصية بربرية قوية وهو حيرباص الذى كان يميـل إلى حزب ماريوس ، فى تحقيق توصله إلى حكم المملكة البربرية وإحلال نفسه مكان كل من ماسينسا الثانى وأخيه هيامبسال ، ولكن لم يكن سلا ليقبل هذا التطور السياسى فى حكم المغرب ولذلك آثر العمل على الانتصار على حزب ماريوس فى هذه المنطقة أيضا وتمكن بالقوة الحربية من تحقيق غرضه فى إعادة الحكم مرة أخرى إلى ماسينسا الثـانى وهيامبسال . وتدل هذه التقلبات السياسية بوضوح على مدى عـدم استقرار التاريخ المغربى فى تلك الفترة لإرتباطه الكلى بالتطورات فى الجانب الرومانى .

وتظهر حلقة أخرى من انعكاسات هذه الأحداث الرومانية الداخلية فى الإطار المغربى فى مرحلة الصراع الشديد بين كل من بومبى ويوليوس قيصر . ذلك عندما كان كل من الملك يوبا الأول ملك نوميديا الشرقية ، وهو ابن الملك هيامبسال ، ومعه الملك ماسينسا الثـانى يميـل إلى جانب بومبى . ولكنهما لم يكونا ممثلين لكافة وجهات النظر البربرية فى المغرب بل كانت هناك وجهة نظر أخرى تؤيد جانب يوليوس قيصر وكان على رأسها كل من بوخوس الصغير وبوغود اللذين كانا يحكمان المملكة الموريطانية فى أقصى غربى المغرب . وكما التجأ سلا إلى استخدام السلاح فى تحقيق سياسته ، كذلك اتجه يوليوس قيصر إلى اتباع نفس الوسيلة وتمكن من

الانتصار سنة ٤٦ ق م فى معركة تايسوس وهو موقع رأس الديماس على الساحل التونسي . وقد أدى هذا الانتصار الهام إلى تحول خطير آخر فى التاريخ المغربى القديم وهو إقامة ولاية رومانية جديدة بالإضافة إلى ولاية أفريقيا التى حلت محل الدولة القرطاجية ، وهذه الولاية الجديدة حملت اسم ولاية أفريقيا الجديدة . ولم يكن هنـــاك مكان للملك يوبا الأول ولذلك أنهى حياته بالانتحار وكوفىء الملك بوخوس على تعاونه مع يوليوس قيصر بتوسيع مملكة موريطانيا الشرقية على حساب مملكة نوميديا الغربيـة . وبذلك بدأ الرومان يثبتون أقدامهم فى المغرب مما مهد فى السنوات التالية إلى إحتلال كامل للمنطقة واعتبارها جزءاً من الامبراطورية الرومانية .

ومثال ثالث يبين مرة أخرى انعكاس التاريخ الرومانى على الأحداث المغربية عندما تتطور الأمور السياسية الرومانية تطورا حاسما بعـد مقتل يوليوس قيصر فقد حاول البربر انتهاز تلك الفرصة والتخلص من الممالك البربرية التى استحدثت فى عهـــده . وكان على رأس هؤلاء البربر أرابيون ابن ماسينسا الثانى . وعلى الرغم من نجاحه فى هذا الشأن ولكنه لم يستمر طويلا لانه لم يكن من المستساغ من وجهة النظر الرومانية عودة البربر المتحررين إلى مـــكانتهم مرة أخرى ولذلك سرعان ما اتجه الرومان إلى إعادة الأمور إلى ما كانت عليـه بالقوة العسكرية سنة ٣٨ ق . م . وبذلك ازداد النفوذ الرومانى مرة أخرى فى المغرب وقد تأكد ذلك أيضا بعـد وفاة الملك بوخوس ، واتجاه أوكتافيوس إلى ربط هذه الممالك البربرية بالإطار الرومانى وذلك بتعيين حكام رومان على عرش المملكة الموريطانية منتهزا فرصة عدم وجود وريث للعرش بعد الملك بوخوس .

وقد استمر الرومان فى حكم هذه المملكة حوالى الثمانى سنوات إلى أن عين الملك يوبا الثانى ملكا عليها وذلك سنة ٢٥ ق.م. وقد دخل المغرب فى حقيقة طور الامبراطورية الرومانية .

ويتضح من دراسة هذه المرحلة الأولى من العصر الرومانى مدى ارتباط تاريخ المغرب القديم وبصفة خاصة الممالك البربرية بمجريات الأمور فى العالم الرومانى ولكن ذلك لا يعنى زوال الصفة المغربية القديمة بل لقد ظلت الصفة فى التواجد فى ذلك الوقت فى المجال الحضارى والسياسى . وحتى فى المرحلة الثانية من العصر الرومانى يلمس الدارس رغم تحقيق الصفة الرومانية جوانب من الصفة المغربية القديمة فى شكل عدد من الثورات البربرية فى المجال السياسى وفى شكل استمرار لبعض الظواهر الحضارية البربريه والقرطاجيـــة فى تلك المرحلة .

الفصل السابع

العصر الرومانى فى جانبه السياسى

المرحلة الثانية

استكمالا للمرحلة الأولى فى تاريخ المغرب أثناء العصر الرومانى يمكن اعتبار المرحلة الثانية وهى مرحلة الامبراطورية الرومانية انعكاسا آخر فى تاريخ المغرب القديم للتاريخ الرومانى بتطوراته المختلفة فى المجالات السياسية الداخلية والخارجية والاقتصادية والدينية . ولكن درجة الانعكاس فى هذه المرحلة الثانية أقوى منها فى المرحلة الأولى نظراً لاختلاف الكيان الرومانى فى المغرب فيها . ففى المرحلة الثـــانية تمكن الرومان من تحقيق سيادتهم السياسية والحربية وبالتالى أصبحت نسبة كبيرة من الأراضى المغربية تابعة للنفوذ الرومانى المباشر وخاضعة لـكافة الأحداث الداخلية والخارجية فى نطاق الامبراطورية الرومانية الشاسعة التى امتدت فى جوانبهـا الأوربية والأسيوية والإفريقية تحت سيادة مدينــة روما العاصمة . وقبل الإحاطة بالتاريخ المغربى فى هذه المرحلة يحسن التعرض إلى موجز عن المرحلة الأولى من عصر الامبراطورية الرومانية .

يلمس الدارس فى هذا العصر انتقال الدولة الرومانية من مرحلة الجمهورية إلى مرحلة الامبراطورية . وكان من الطبيعى أن يواجه الرومان الكثير من الإشكالات السياسية الداخلية والخارجية والاقتصادية والعنصرية والدينية نتيجة اتصالهم بشعوب كثيرة وتحكمهم السياسى والحربى فى أقاليمها . ولكن على الرغم من ذلك فقد عمل الرومان على المحافظة على هذه الامبراطورية

واكتساب الكثير من غلاتها الاقتصادية ونشر الحضارة الرومانية والأدب اللاتيني في ربوعها والقيام بعدد من العمليات التحصينية والعمرانية في الكثير من ولاياتها . ولكن ذلك لم يكن ليحوز استجابة مرضية من العناصر المحلية مما أدى إلى قيام ثورات كثيرة استنزفت جهوداً مضاعفة من الرومان في محاولة اخمادها . ومن أهم الظواهر التاريخية والفكرية التي بزغت في تلك الفترة مولد الديانة المسيحية التي واجهت الكثير من الإضطهادات الرومانية وكانت من المسائل التي واجهت الرومان لمدة طويلة . كما أن المشكلة الاقتصادية كانت من أهم العقبات التي اتصلت اتصالا وثيقاً بكثرة الحروب التي خاضها الرومان وتطور طبقات المجتمع الروماني وحصول الأفراد إلى حد كبير على الحقوق الرومانية . وقد تطور القانون الروماني بتشريعاته المختلفة تطوراً حاسماً في تلك الفترة لأن هـذه المسائل قد اقتضت إصدار عدة قوانين تنظيمية في كافة المجالات مما دفع إلى هـــذا التطور في المجال القانوني . ولكن لم يستطع الأباطرة انهاء هذه الاشكالات المختلفة وتثبيت أركان الامبراطورية والسلام الشامل في ربوعها إلا في فترات محدودة ، مما أدى إلى حدوث الانفصال داخلها وإلى امبراطورية شرقية وأخرى غربية.

أما عن أهم الأباطرة الذين قاموا بدور فعال في بداية عصر الامبراطورية فعلى رأسهم الامبراطور أوغسطس الذي استمر من ٣١ق م - ١٤م. ويلاحظ تدخل الامبراطور المباشر في شئون حكم الولايات الامبراطورية بالاشتراك مع مجلس الشيوخ الروماني . وتتكرر ظاهرة تدخل الأباطرة في شئون هـــذا المجلس بصورة سافرة تؤدي في النهاية إلى ضعف سلطانه وبروز سلطات الأباطرة . ولـكن تواجد الجيوش الرومانية في بعض الولايات

لاستكمال عمليات الدفاع والقمع المباشر لأعداء الامبراطورية سواء أكانوا من القبائل الجرمانية التى كانت تهدد الامبراطورية فى مجال أوروبا الغربية أو فى نطاق الحدود الشرقية فى مناطق أرمينيا وبارثيا والفرس ، دعا قادة هذه القوات إلى التدخل فى بعض الأحيان تدخلا مباشراً فى الشئون السياسية الرومانية ووصل بهم الأمر إلى تنصيب بعض الأباطرة ومحاولة فرضهم على مجلس الشيوخ الرومانى . ويتضح ذلك فى فترة الأباطرة الضعاف الذين لم يتمكنوا من فرض السيادة الكاملة على القوات العسكرية الرومانية المرابطة فى الولايات . ولذلك فظاهرة تواجد هذه القوات العسكرية كانت من أهم القرارات التى تحمل مسئوليتها الامبراطور أوغسطس ولكنه قد نجح فى التحكم فيها مما حقق السيادة الامبراطورية فى عهده . وكان نهر الراين يعتبر الخط الفاصل بين الحدود الجرمانية والرومانية . ومن المشاكل التى واجهت الرومان فى ذلك العصر مشكلة الخلافة على عرش الامبراطورية فكان مبدأ الوراثة هو المنتظر تحقيقه ولكنه لم يكن ليفى بالغرض المطلوب فى بعض الأحيان مما استدعى استخدام التبنى بدلا منه أو مجرد اختيار من يقوم بهذه الوظيفة .

وقد وصل الاضطراب فى الأوضاع السياسية الداخلية والخارجية فى هذه المرحلة من تاريخ الامبراطورية الرومانية إلى درجة تهدد بالمخاطر مما أدى إلى تعدد الثورات فى أنحاء متفرقة فى الامبراطورية وبصفة خاصة منطقة غاله وذلك فى عهد الإمبراطور فسبسيان T. Flavius Vespasian. الذى استمر فى الحكم من سنة ٦٩ م ـ سنة ٧٩ م . وقد تطلب هذا الموقف ضرورة تدعيم الوسائل الدفاعية الرومانية ضد هـــذه الثورات واستخدم

الرومان الحصون والأسوار ذات الأبراج والأنفاق للقيام بهذا الدور الدفاعى . ولكن هذه الوسائل لم تحل دون استمرار الإضطرابات الداخلية أيضا فقد كانت المنافسة بين أعضاء مجلس الشيوخ الرومانى وبين فئات الشعب الأخرى على أشدها . كما أن ظهور الديانة المسيحية كان عاملا جديداً فى المجتمع الروماني أدى إلى تكوين مجموعة جديدة من معتنقى تلك الديانة وقد ترتب على ذلك معارضة طوائف الشعب الرومانى الأخرى التى تعتقد فى الآلهة الرومانية لهؤلاء المسيحيين الأول مما أدى أيضا إلى عدم الاستقرار فى ذلك الوقت من تاريخ الامبراطورية الرومانية وخاصة أن بعض الأباطرة قد وصلوا إلى درجة اعتبار أنفسهم يحملون الصفة الإلهية[1]. ويظهر ذلك على سبيل المثال فى عهد الامبراطور دومتيانوس T. Flavius Domotianus الذى حكم من سنة ٨١م – سنة ٩٦م . وفى الإطار الداخلى قد أدت ممارسة ظاهرة التبنى إلى تولى عدد من الأباطرة التاليين للامبراطور نيرفا M. Cocceius Nerva وهم تراجان M. U. T. Trajan وهادريان P. Aelius Hadrian وبيوس T.A. Antonius Pius وماركوس أوريليوس Marcus Aurelius وذلك من سنة ٩٨م – سنة ١٨٠م . وقد فتح هذا الاتجاه المجال إلى هـــذه الشخصيات الجديدة مما أتاح فرصة تولى العرش لذوى الكفايات على خلاف الطريقة التقليدية المعتمدة أولا وأخيرا على مبدأ الوراثة. ولكن على الرغم من ذلك فقد حدثت بعض الإشكالات الاقتصادية فى عهد الإمبراطور تراجان وذلك نتيجة إزدياد المطالب الامبراطورية فى المجالات

---

(١) محمد عواد حسين ، ترجمة الامبراطورية الرومانيـة ، فى موسوعة تاريخ العالم أصدرها وليم لانجر وأشرف على ترجمتها محمد مصطفى زيادة ، ج ١ ، ص ٢٩٥ .

الحربية والسلمية ممـا أضطر الامبراطور هادريان إلى إجراء بعض الحلول المباشرة لهذه الأزمة الاقتصادية وذلك بالغــاء بعض الضرائب . وقد تطورت هذه الأزمة الاقتصادية فى عهد الإمبراطور ماركوس أوريليوس، والذى اشترك معه أيضا لأول مرة فى الحكم لوكيوس أوريليوس فيروس Locius Aurelius Verus، فمنحت الأقاليم الامبراطورية استقلالها الاقتصادى النسبى داخل نطاق الوحدة الإقتصادية الإمبراطورية .

ولم تقتصر التطورات الإقتصادية والسياسية على ذلك بل بدأت ظاهرة جديدة أخرى فى الموقف السياسى بأن حاولت القيــادات العسكرية فى الولايات الامبراطورية ترشيح الأباطرة . ولم يستقر الموقف فى هذا الصدد بل لقد تنافست الولايات فى ترشيحاتها مما أدى إلى إزدياد اضطراب الموقف السياسى الداخلى وتأكيد مدى الضعف السياسى الذى وصل إليـه مجلس الشيوخ الرومانى فى ذلك الوقت .

ومن ناحية أخرى فقد كان لقرار الامبراطور كراكلا Carcalla، الذى استمر فى الحكم من سنة ٢١١م - سنة ٢١٧م، الخاص باعطاء الحقوق الكافة المواطنين الأحرار فى أنحاء الإمبراطورية الرومانية أثره فى تمكن بعض الشخصيات المنتمية أصلاً إلى الولايات الامبراطورية فى الوصول الى كرسى العرش الامبراطورى وذلك مثل الامبراطور البربرى الأصل أوبليوس ماكرينوس T. Opellius Macrinus الذى استمر فى الحكم من ٢١٧ م - ٢١٨ وكذلك الامبراطور العربى الأصل يوليوس فيليبوس الذى استمر فى الحكم من سنة ٢٤٤م - سنة ٢٤٩م . وتنبغى الإشارة إلى أن دفع الشعوب القبلية الجرمانية وكذلك مهاجمة الفرس على حدود الامبراطورية الرومانية

قد تضاعف مفعولها رغم محـــاولة الأباطرة الرومان التحكم فى الموقف السياسى الداخلى والخارجى وذلك أثناء هـذه المرحلة الأولى من تاريخ الإمبراطورية الرومانيـة . وفيما يلى أسماء الاباطرة الرومان الذين حكموا الامبراطورية فى تلك الفترة .

قيصر أوكتافيوس (أوغسطس).	من ٣١ ق م – ١٤م
تيبريوس كلوديوس نيرون	١٤م – ٣٧م
جايوس كاليجولا	٣٧ م – ٤١ م
تيبيريوس دزوسوس	٤١م – ٥٤م
كلوديوس نيرون قيصر	٥٤م – ٦٨م
سرفيوس سليبشيوس جالبا	٦٨م – ٦٩م
فلا فيوس فسبسيانوس	٦٩م – ٦٩م
تيتوس فلافيوس فسبسيان	٧٩م – ٨١م
تيتوس فلا فيوس دوميتيانوس	٨١م – ٩٦م
ماركوس كوكايوس نيرفا	٩٦م – ٩٨م
ماركوس البيوس تراجان	٩٨م – ١١٧م
بوبليوس أيليوس هادريان	١١٧م – ١٣٨م
تيتوس أوريليوس انطونيوس بيوس	١٣٨م – ١٦١م
ماركوس أوريليوس أنطونينوس	١٦١ – ١٨٠م
ماركوس أوريليوس كومودوس أنطونينوس	١٨٠م – ١٩٢م
بوبليوس هلفيوس برتيناكس	١٩٣م
ل . سبتيموس سفيروس	١٩٣م – ٢١١م

م . أوريليوس أنتونينوس كراكلا	٢١١م – ٢١٧م
أوبليوس ماكرينوس	٢١٧م – ٢١٨م
م . أوريليوس أنتتونينوس إلاجابالوس	٢١٨م – ٢٢٢م
ماركوس أوريليوس سفيروس الاسكندر	٢٢٢م – ٢٣٥م
يوليوس فيروس مكسيمينوس	٢٣٥م – ٢٣٨م
ماركوس انطونيوس جورديانوس /٣	٢٣٨م – ٢٤٤م
يوليوس فيليوس	٢٤٤م – ٢٤٩م
ميسيوس كوينتوس ترايانوس	٢٤٩م – ٢٥١م
ك . فيبيوس تريبونيانوس جالوس	٢٥١م – ٢٥٣م
ب . ليكينيوس فاليريانوس	٢٥٣م – ٢٥٩م
ب . ليكينيوس اجناتيوس جاللينوس	٢٥٩م – ٢٦٨م
م . أوريليوس كلوديوس /٣	٢٦٨م – ٢٧٠م
ل . دوميتيوس أوريليانوس	٢٧٠م – ٢٧٥م
م . كلوديوس تاكيتوس	٢٧٥م – ٢٧٦م
م . أوريليوس بروبوس	٢٧٦م – ٢٨١م
م . أوريليوس كاروس	٢٨١م – ٢٨٣م

أما عن تاريخ المغرب القديم فى عهد هؤلاء الأباطرة فى هـذه المرحلة الأولى من الامبراطورية الرومانية فقد تحول من منطقة تسود فيها السيادة القرطاجية إلى منطقة يتحكم فيهـا الرومان . والواقع أن البربر كما سبقت الإشارة قد انقسموا على أنفسهم فبينما انحـاز البعض إلى الجانب الرومانى فقد أصر البعض الآخر على أن يحافظوا على استقلالهم الذاتى بكافة الوسائل .

وقد استمرت هـذه الظاهرة طوال العصر الرومانى فى المغرب سواء كان ذلك فى هـــذه المرحلة أوما تلاها وكذلك تكررت حلقات الصراع بين الطرفين وذلك لأن الطرف الثانى وهو مجموعة البربر الأحرار والذين تغلب عليهم الصفة القبلية ذات الأصالة فى الطبع غير المتأثر بالنزعات الحضرية قد داوم على مبـــادئه القائمة على الاستقلال وتحرير المغرب من النفوذ الرومانى . وكانت وسيلتهم فى هذا الصدد القيام بالثورات المتتالية فى سبيل تحقيق هذا الهدف منتهزين فترات ضعف بعض الأباطرة كما سبقت الإشارة إلى ذلك وأيضا إنشغال الدولة الرومانية فى توطيد أمنها الداخلى والخـارجى فى النطاق الأوربى والأسيوى وبصفـة خاصة فى غالة والدانوب والشرق الأدنى . وقد كادت هذه الثورات أن تؤدى إلى نتائج إيجابية ولكن اتجاه الرومان إلى تحويل المغرب إلى عدد من الولايات الرومانية وتدعيم ذلك بانشاء المدن الرومانية المرتبطة بالطرق الرئيسية التى تساعـد على التحكم فى المنطقة وكذلك مساندة هذه السياسة الدفاعية بسياسة اقتصادية تحكمية ، كل ذلك قد أدى إلى عدم وصول هذه المجموعة البربرية المتحررة إلى نتائج حاسمة من وجهة نظرها . ومن ناحية أخرى كان الطرف الأول من البربر يبذل كافة الجهود فى سبيل التقرب من الرومان تمكينا لاستمراره فى تولى حكومات تلك الممالك البربرية. وقد اتضح ذلك فى عهد الملك يوبا الثانى، انظر شكل رقم (١٠٣) ، ابن يوبا الأول ، الذى يعـــاصر الامبراطور أوغسطس . وتاريخ يوبا الثانى قـد اصطبغ منذ البداية بالطابع الرومانى البحت فقد نشأ فى العصر الرومانى فى روما واعتبر مواطنا رومانياً وقـد ارتبط أيضا بالزواج بكليوباترا ابنة الملكة كليوباترا ملكة مصر فى نهاية العصر البطلمى . ويمكن أعتبار عصر يوبا الثانى من الناحية الحضارية أقرب



شكل رقم (١٠٣)
نحت يمثل الملك الشاب يوبا الثانى

إلى الصفة الدولية لأنه كان نشيطا فى المجال الثقافى وحاول نشر هذا الجانب فى أرجاء المغرب . وكان يعتمد على كافة الثقافات الرومانية والقرطاجية واليونانية والمصرية ودعم ذلك الاتجاه بتكوين مكتبة شاملة لمختلف هذه الثقافات فى ذاك العصر، كما أنه هو شخصيا قد حمل جانب العلم والأدب والمعرفة وكتب عدداً من المؤلفات فى كافة العلوم والآداب . وكان عصره من هذه الناحية متقدما للغاية ولكنه فى نفس الوقت قد انقاد للثقافة الرومانية بصفة خاصة تحت تأثير نشأته الرومانية، ولذلك اتجه إلى تزكية الجوانب الرومانية ليس فقط فى النطاق السياسى بل أيضا فى العقيدة . فعلى الرغم من كون

البربر قد اعتقدوا فى الآلهة البربرية الأصل التى آمن بهـا أيضا الفينيقيون والقرطاجيون بالإضافة إلى آلهتهم السامية ، فقد اتجه الملك يوبا الثانى إلى عبادة الامبراطور الرومانى أوغسطس وشيد فى مدينة شرشال IoL ،التى أطلق عليهـا اسم قيصرية واتخذها عاصمة لدولته البربرية ، معبداً للامبراطور أوغسطس. وفى الإطار السياسى لم يستطع الملك يوبا الثانى تهدئة الأطراف البربرية المتحررة والتى قامت بعدد من الثورات ضده فى محاولة تحرير المغرب من السيادة الرومانية. ومن أهم هذه الثورات ثورة الزعيم البربرى تاكفاريناس Tacfarinas وكانت هذه الثورة بمثابة تعبير حقيقى لأولئك البربر الأحرار. وكانت ثورة تاكفاريناس من القوة بدرجة أن انتشارها فى أرجاء المغرب كان سريعاً للغاية فقد انحاز البربر إلى تاكفاريناس لتحقيق عمليـة تحرير بلادهم من الرومان ومن البربر الموالين لهم وبصفة خاصة الملك يوبا الثانى . ولم يكن النجاح فى بداية تلك الثورة ناجما عن الحماس المتدفق فى سبيل تحقيق أهدافه بل كان أيضا مرتبطا بدرايته بالفنون العسكرية فقد سبق له أن خدم فى الجيش الرومانى واكتسب بذلك خبره عسكرية فى أسلحة المشاة والفرسان . هـذا بالإضافة إلى أن العنصر البربرى يحمل فى سجاياه الفتوة وتحمل المشاق وسرعة الحركة مما يكفل له تحقيق الانتصارات فى المعـارك الحربية. وقد ظهرت شخصيات أخرى بربرية موريطانية موالية لتاكفاريناس وثورته مثل مازيبا Mazippa وقد تولى إحدى القيادات العسكرية بجانب تاكفاريناس . وانتشر هذا التيار الثورى بين القبائل البربرية وبصفة خاصة فى وسط قبائل جداله فى الجنوب . ولم يعد خطر هذه القوة البربرية الجديدة قاصراً على الملك الموريطانى يوبا الثانى بل بدأ الرومان يخشون تطور الموقف وازدياده فى المنطقة . وقد تجسمت هذه الثورة بصفة خاصة فى

أواخر عهد الملك يوبا الثانى. وتعاصر تلك الفترة حكم الامبراطور الرومانى تيبريوس كلوديوس نيرون الذى استمر فى الحكم من ١٤م – ٣٧م. وقد استمرت هذه الثورة فترة حوالى ثمانى سنوات من ١٧م – ٢٤م. وكان من المنتظر أن يلتجىء الملك يوبا الثانى الى القوات الرومانية لمعاونة قواته فى إيقاف هذه الحركة الثورية البربرية. وقد نجح الرومان فى بداية الأمر فى الانتصار على قوات تاكفاريناس ولكن لم تكن مهمة الحرب مع البربر لتنتهى بتلك السهولة أو بمجرد معركة واحدة وذلك لأن البربر سرعان ما كانوا يلجأون إلى الهضاب ويعيدون تأسيس وتنظيم قواتهم مرة أخرى بسرعة فائقة ويبدأون فى مهاجمة المراكز الرومانية والبربرية المعادية بصورة خاطفة تثير الاضطراب لدى أعدائهم. وقد نجح تاكفاريناس فى هذا الصدد وتمكن من إيقاع الهزيمة بالقوات الرومانية والبربرية المعادية مما كفل له الاستيلاء على عدد كبير من الغنائم والاسلحة التى تساعده على مواصلة الحرب والإنتصار فى المراحل التالية. وعلى ذلك لم يتمكن الملك يوبا الثانى من إيقاف هذه الموجة البربرية المتحررة وتوفى سنة ٢٣م دون أن يصل إلى تحقيق غرضه. وتولى ابنه الملك بطلميوس عرش المملكة البربرية وقد كان ضعف شخصيته وعدم جديته فى تصريف شئون الدولة البربرية فى هذا الموقف الدقيق من العوامل التى ساعدت أيضا تاكفاريناس على نشر ثورته البربرية بين الطوائف الموريطانية. ولما تنبه الرومان إلى خطورة هذا الموقف اتجهوا إلى تدعيم قواتهم العسكرية المساندة للقوات الموريطانية ضد تاكفاريناس. وقد استخدام الرومان طريقة الكمائن المفاجئة ضد قوات تاكفاريناس وضاعفوا من مهاجمتهم لقواته مما أدى إلى تمكنهم من التحكم فى الموقف وقتل تاكفاريناس سنة ٢٤م. وعلى الرغم من كون الملك البربرى

بطلميوس يعتبر فى جانب السياسة الرومانية فقد تصرف الامبراطور كاليجولا تصرفا شاذا عندما أمر بقتله على إثر اجتذابه انتباه الحاضرين بزيه الارجوانى اللون فى حفل رسمى وذلك سنة ٤٠م . ولكن يغلب ان السبب الرئيسى فى الامر بقتله يرجع إلى رغبة الرومان فى الاستحواذ على المناطق شبه المستقلة المتبقية بالمغرب تحت نفوذهم المباشر بضمها إلى الامبراطورية الرومانيـة . وتحقق ذلك فعلا ونشأت ولايتى موريطانيا القيصرية والطنجية داخل نطاق المغرب الرومانى .

المغرب فى عصر الاحتلال الرومانى :

حاول الرومان بكافة الوسائل العسكرية والتآمرية تثبيت أقدامهم فى أرض المغرب بعد نجاحهم فى احتلاله واعتباره إحدى الولايات فى اطـار الامبراطورية الرومانية . ولكن هذه المهمة لم تكن من السهولة بمكان لعدة أسباب محلية وخارجية سياسية واجتماعية واقتصادية ودينية وبشرية. أول هـذه الاسباب وأهمها هو شعور البربر بضرورة تحرير بلادهم من السيادة الرومانية والقيام فى سبيل ذلك بعدد كبير من الثورات المتتالية أثناء المرحلتين الثانية والثالثة من العصر الرومانى فى المغرب . ولم تواجـــه الامبراطورية الرومانية تلك الثورات البربرية فقط بل لقد كانت هناك ثورات أوربيـة وبصفة خاصة غالية تهدف إلى الاستقلال أيضا عن نطـاق الامبراطورية الرومانية واقامة دولة غالية مستقلة . هذا بالاضافة إلى الثورات المشرقية الفارسية والمصرية والمقاومات الشديدة التى واجهها الرومان فى تلك المرحلة. ويلمس المؤرخ أن الرومان لم يفرقوا فى نهـاية الأمر بين البربر الثائرين ضدهم وبين البربر الموالين لهم فقد انتابتهم موجة كراهية ضد البربر بوجـه

عام وسددوا كافة قواهم ضدهم إنهاء لمقاومتهم وتثبيتا للسيادة الرومانية فى المغرب . وقبل التعرض إلى وسائل الرومان فى محاولة إنهاء المقاومة البربرية تنبغى الاشارة إلى بعض تلك الثورات البربرية أثناء المرحلتين الثانية والثالثة من عصر الامبراطوريه الرومانية .

لقد انتشرت هذه الثورات أثناء غالبية عصر الامبراطورية الرومانية فى المغرب استكمالاً لمراحلها السابقة فى عصر الجمهورية الرومانية وقد احتلت مكانها خاصة فى عهود الاباطرة كلوديوس نيرون قيصر وتيتوس فلافيوس فسبسيان وماركوس البيوس تراجان ويوبليوس ابليوس هادريان وانطونيوس بيوس وكومودوس انطونيوس وسفيروس الاسكندر ودقلديانوس وغيرهم . ويلاحظ أن البربر الثائرين لم يقتصروا على البربر الذين استوطنوا الأودية والمدن والقرى ودخلوا فى نطاق المدنية بعد اتصالهم بالفينيقيين والقرطاجيين بل أيضا برير المناطق الجبلية والصحراوية وكانوا لايزالون على نزعتهم البدوية وشكيمتهم القوية فكانت مقاومتهم للرومان شديدة . ذلك مع العلم بأن هذه الاقاليم الجبلية والصحراوية صعبة المنال أمام القوى الرومانية لما تكتنفه بيئتها من مسالك وعرة وتضاريس طبيعية يعرف البربر خباياها . وكان البربر ينتهزون ضعف الاباطرة أو الاضطرابات السياسية أو الاقتصادية الرومانيـــة ويبادرون بالهجوم على المعسكرات والمدن والمراكز الرومانية تحت قيادة زعمائهم ورؤساء قبائلهم . ولقـد نجحت هـذه الثورات فى بدايتها ولكنها لم تصل إلى غايتها بسبب عناصر الخيانة المنبثة فى بعض صفوف البربر نتيجـة تحريض الرومان وتشجيعهم بكافة الوسائل . ولكن على الرغم من فشل هذه المحاولات فى أهدافها فانها

كانت تعاود الكرة مرة أخرى . ولقد كان استفزاز الرومان للبربر شديدا للغاية مما يدفعهم إلى المداومة على عملياتهم الثورية . فقد كان الرومان يحلون أنفسهم مكان البربر الآمنين فى المدن والقرى الغربية ويستولون على أراضيهم وماشيتهم ويدفعونهم إلى الالتجاء إلى المناطق الصحراوية القحلة مما يثير سخط البربر وغليانهم . وكانت عملية تهجير البربر وإجلائهم عن أراضيهم تهدف إلى الاستعمار الرومانى فى المغرب على حساب البربر . ولقد استخدم الرومان وسائل العنف والضغط الحربى لتحقيق غايتهم . ومن ناحية أخرى اضطر بعض أولئك البربر إلى التوجه إلى الصحراء وعبورها نحو الجنوب . ولقد كانت تحركاتهم نحو نهر النيجر وغربي ووسط افريقيا حلقة جديدة لتلك الرحلات الاقتصادية التى سبق لاسلافهم تحقيقها أثناء العصر القرطاجى. ولقد اختلطت هذه العناصر البربرية الحامية الاصل ببعض العناصر الزنجية وتمكنت من تأسيس دولة غانا القديمة (١).

ومن أهم الثورات البربرية التى كادت أن تنجح ثورة الملك البربرى فيرموس Firmus سنة ٣٧٢م وكان قد نجح فى تحقيق التحالف السياسى والحربى بين بعض القبائل البربرية، وكذلك استغل فرصة وجود مذاهب مسيحية جديدة معارضة للرومان ونجح فيرموس فى التحالف معها أيضا . ولقـــد كان البربر يؤملون فى الدعوة المسيحية السلمية ويعتبرونها خطوة جديدة نحو إنهاء السيادة الرومانية ، وأقبلوا على اعتناق الديانة المسيحية ولـكنهم قوبلوا بالتعذيب الشديد من جانب الرومان . واتجه فيرموس بقواته نحو مدينة شرشال العاصمة الموريطانية وتمكن من إحراز الانتصار

---

(١) Julien, A.; Histoire de l' Afrique du Nord, Paris, 1961, p. 160.

على الرومان والاستيلاء عليها . وإزاء هذا التطور الحاسم فى الكيان السياسى المغربى القديم اتجه الرومان إلى استخدام وسائلهم التآمرية التى سبق لهم استخدامها أثناء المرحلة الأخيرة من عصر الدولة القرطاجية ، فقاموا بتحريض أخيه جيلدون وتمنيته بكافة الوسائل وتشجيعه على خيانة أخيه فيرموس والايقاع به . ولما تنبه الأخير إلى ذلك فضل الانتحار سنة ٣٧٥م وبذلك انتهت هذه الثورة البربرية التى وصلت إلى درجة حاسمة فى مقاومتها للنفوذ الرومانى . ولم يستمر جيلدون فى موالاته للسادة الرومان طويلا بعد تبوئه المناصب العسكرية الرومانية فى المغرب بل سرعان ما انقلب عليهم قائدا ثورة بربرية جديدة سنة ٣٩٦ م . واستخدم الرومان مرة أخرى وسيلتهم التآمرية بتحريض أخيه مقزيل ضده وتكررت المأساة وانتحر جيلدون . وفى هذه المرة لم ينعم الرومان على مقزيل بالمناصب مثل أخيه بل تركوه دون ذلك رغم ولائه لهم .

أما عن الوسائل المباشرة التى اتخذها الرومان فى سبيل تحقيق سيادتهم الرومانية على الأراضى المغربية فكانت تتركز بصفة خاصة فى تدعيم قواتهم العسكرية ، فقد أمر الأباطرة بانشاء المعسكرات الدائمة المجهزة بكافة الاحتياجات الرئيسية لجنود فرق الاحتلال الرومانى وعلى رأسها فرقة أوغسطس الثالثة التى عهد إليها بالدفاع عن الكيان الرومانى فى المغرب . وكان المعسكر بمثابة مدينة عسكرية تتضمن المخازن والاسطبلات وساحات التدريب العسكرى . وقد اتجه الرومان إلى تجنيد البربر وكذلك العناصر الغالية والاسبانية والسورية ولكن تحت قيادة الرومان . ولقد تطلبت عمليات بناء هذه المدن الحربية بذل جهود ضخمة فى البناء والتشييد وتزويدها

بالمياه والغذاء . وتطور ذلك نحو استيلاء الجنود على الأراضى المجاورة واستغلالها لصالحهم . ولم يقتصر الأمر على الجيش بل لقد كان للرومان قواتهم البحرية أيضا ولكنها لم تكن بالجسامة التى كانت عليها فى فترات الصراع البحرى الشديد مع القرطاجيين ولذلك اقتصرت واجباتها على عمليات حراسة السواحل وإبعاد القراصنة وتأمين السواحل المغربية . وكان من أهم واجبات القوات العسكرية مراقبة تحركات البربر ومراكز تجمعاتهم والوقوف أمام ثوراتهم والدفاع عن الكيان الرومانى . ولكن تحقيق هذه الأغراض قد استلزم انشاء الطرق اللازمة للتحركات العسكرية والمدنية . وقد خلف الرومان شبكة طويلة من الطرق تعتبر من أهم مخلفاتهم فى المغرب . ومن أشهر تلك الطرق الطريق الساحلى الممتد من مدينة قرطاج إلى الشرق حتى لبده وإلى الغرب حتى طنجه وآخر من طنجه إلى شاله، وطرق داخلية تصل إلى تبسه وتمجاد وجميله وفولوبيليس وهى وليلى أو قصر فرعون . واستكمالا لهذه الوسائل الحربية التى خططها الرومان قاموا بحفر خنادق حول الأسوار والحصون تدعيما لخطوطهم الدفاعية .

ويتبين من ذلك أن هذه الوسيلة الحربية قد احتلت المكانة الأولى فى الخطة السياسية الرومانية فى المغرب ولكن استمر استخدام بعض الوسائل التقليدية الأخرى مثل محاولة اجتذاب زعماء البربر بكافة الوسائل للجانب الرومانى وكذلك محاولة عقد المحالفات السياسية مع القبائل البربرية . ولكن على الرغم من هذه الوسائل التى كانت تؤدى غايتها فى بعض الأحيان فقد ظلت بعض الجهات الجبلية تحت السيادة البربرية .

والواقع أن تاريخ المغرب القديم فى صميم عصر الامبراطورية الرومانية

قد تأثر كل التأثر بأحداث الامبراطورية الداخلية والخارجية كاشكالات المنافسة على العرش الامبراطورى وكذلك استهتار بعض الأباطرة وتصرفاتهم غير العادية، ومن الأمثلة الصارخة لذلك حادثة مقتل الملك البربرى بطلميوس فى عهد الامبراطور كاليجولا وكذلك تصرف الامبراطور كلوديوس نيرون قيصر بصدد حريق روما سنة ٦٤م، وأيضا تدخل القوات الامبراطورية . وتعدد الترشيحات فيها لوظيفة الامبراطور، ومن ناحية أخرى أيضا كانت هجمات العناصر الجرمانية وضغطها البشرى على أطراف الامبراطورية الرومانية فى أوربا من المخاطر الرئيسية التى واجهتها الامبراطورية الرومانية، ويتصل ذلك بتاريخ المغرب القديم فى أواخر عهد الإمبراطورية عندما تصل تلك الهجمات البشرية حتى شبه جزيرة ايبيريا وتتحرش بالمغرب وتهدد موريطانيا بصفة خاصة . كل ذلك قد أثر على تصرفات الرومان فى كافة أنحاء الامبراطورية متضمنة المغرب . ولكن كانت هناك بعض الأحداث المحلية فى المغرب قد ارتبطت بالمرحلة الأخيرة من تاريخ المغرب فى العصر الرومانى وعلى رأسها دخول الديانة المسيحية إلى المغرب واعتناق البربر لها . وقد اعتبر الرومان هذا الاتجاه متنافياً مع أفكارهم الدينية وقاموا بعملية معارضة شديدة وقاسية على أولئك المسيحيين الأول من البربر . وكذلك كان للناحية الإقتصادية أثرها فى تلك المرحلة لأن الطبقة الأرستقراطية من الرومان كانت قد تمادت فى إسرافها معتمدة على ضيعاتها الكبيرة والثروات التى تحصل عليها من ورائها مما أدى إلى اضطراب الأحوال الاقتصادية وعدم توازن اقتصادى إلى درجه أن الرواتب أصبحت تدفع بصورة عينية بدلا منها نقدية، وكان كل ذلك من الأسباب التى أدت إلى إضعاف السيادة الرومانية فى أواخر عصر الامبراطورية . ويمكن القول بأن هذه المرحلة

المتدهورة فى تاريخ المغرب القديم قد بدأت بعد انتهاء حكم الإمبراطور جورديان الثالث الذى حكم من ٢٣٨م – ٢٤٤م . وتستمر إلى حد كبير حتى سنة ٤٢٩م . وعلى الرغم من مظاهر هذا الضعف السالف الذكر فقد حاول بعض الأباطرة إنقاذ الموقف فى المغرب ، مثال ذلك قرارات الامبراطور ك. أوريليوس فاليريوس دقلديانوس الذى حكم من سنة ٢٨٤ م – سنة ٣٠٥ ق م . الذى قام بتوزيع السلطة الامبراطورية على أربعة من القياصرة ، واتجه أحدهم إلى المغرب وقام بعملية تقسيم الولايات المغربية إلى عدد من الأقاليم . ومما يسترعى الانتباه أن موريطانيا الطنجية قد انضمت إلى الولايات الأسبانية. ولكن هذا التقسيم سرعان ماغيره الامبراطور قنسطنطين الأكبر وهو فلافيوس فالريوس قنسطنطين الذى استمر فى حكمه من سنة ٣٠٦ م إلى سنة ٣٣٧ م . فقد جمع الولايات النوميدية فى ولاية واحدة واتخذ مدينة قرطه العاصمة السابقة عاصمة لهذه الولاية المتحدة الجديدة وحملت اسمه أى قسنطينه . ومن ناحية أخرى اتخذ هذا الامبراطور قراراً هاما وهو مرسوم ميلان الذى يقضى بمساواة المسيحيين فى المعاملة مع غيرهم من باقى معتنقى الديانات الأخرى وأعاد إليهم أملاكهم. وكانت نهاية العصر الرومانى فى المغرب على أيدى العناصر الوندالية التى كانت قد توغلت فى شبه جزيرة أيبيريا والتى انتهزت فرصة إختلاف أحد الحكام الرومان وهو بونيفاس مع روما واستعانته بهم فتقدموا نحو المغرب سنة ٤٢٩ م. وكان ذلك بداية مرحلة جديدة فى تاريخ المغرب هى العصر الوندالى . وقبل الانتقال إلى هذه المرحلة يلزم التعرض إلى الجانب الحضارى فى تاريخ المغرب أثناء العصر الرومانى .

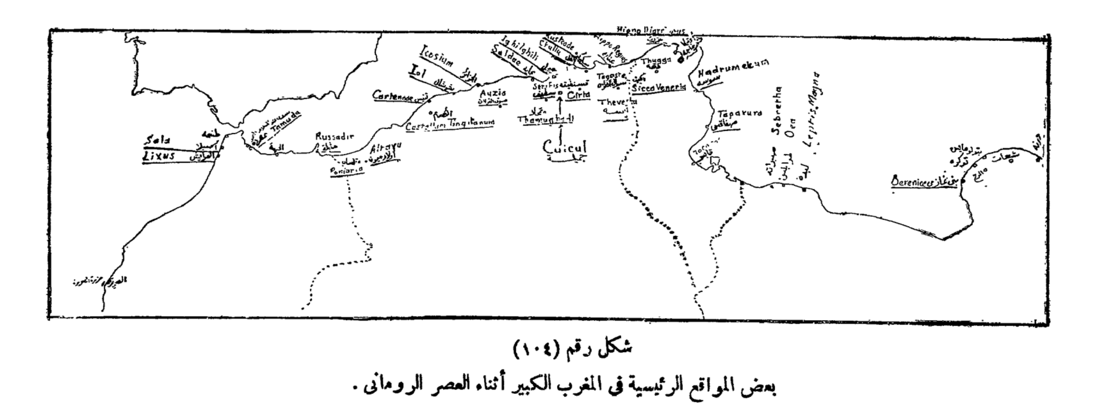
الفصل الثامن

العصر الرومانى فى المغرب فى جانبه الحضارى

أول ظاهرة يلمسها الدارس فى العصر الرومانى فى المغرب هى قيام الرومان بانشاء عدد من المدن [1] الرومانية الساحلية والداخلية فى كافة أنحاء المغرب، أنظر شكل رقم (١٠٤). وقد اختار الرومان فى غالبية الأمر نفس المواقع التى سبق أن اختارها الفينيقيون والقرطاجيون لإنشاء مدنهم. ويمكن تلمس ذلك فى المواقع الأثرية حيث يلاحظ تواجد الطبقة الرومانية فوق الطبقة الموريطانية التى تقع بدورها فوق الطبقة القرطاجية ، وذلك لأن عملية إختيار هذه المواقع كانت تتفق مع الرواد الأول من الفينيقيين من حيث صلاحية المكان وتناسبه مع كافة الأغراض الاقتصادية والدفاعية. وقد انتشرت هذه المدن الرومانية فى الولايات الأربعة الرئيسية فى المغرب وهى ولايات افريقيا ونوميديا وموريطانيا القيصرية وموريطانيا الطنجية. وقد امتدت الولاية الافريقية فى جانبها الشرقى حتى مدينة طرابلس وفى جانبها الغربى حتى مدينة عنابه. بينما تركزت نوميديا بصفة خاصة فى شرق الجزائر. أما موريطانيا القيصرية والطنجية فتحتل مناطق غربى الجزائر والمغرب الأقصى ويفصل بينها نهر ملوية. وقد اتخذت مدينة شرشال عاصمة لموريطانيا القيصرية بينما مدينة طنجة عاصمة لموريطانيا الطنجية . وقد تضمنت المدن الرومانية فى تخطيطها كافة العناصر الرئيسية الحكومية والخاصة ، فقد شيدت المبانى الحكومية والمكتبات والمعابد وأقواس النصر والحمامات

---

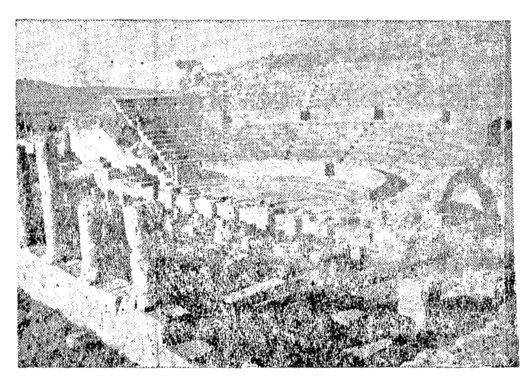
(١) أنظر خريطة المغرب الأركيولوجية للأستاذ أحمد المكناسى، تطوان ١٩٦١ .



شكل رقم (١٠٤)

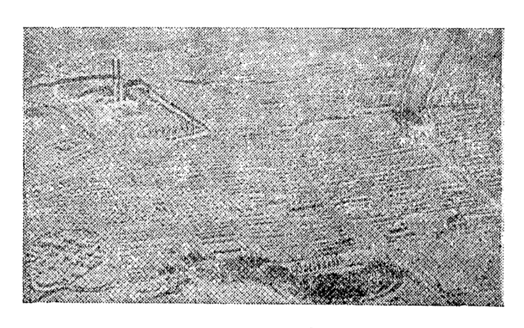
بعض المواقع الرئيسية فى المغرب الكبير أثناء العصر الرومانى .

والحوانيت والاسواق والمنازل ومعاصر الزيوت والمطاحن والساحات والمسارح نصف الدائرية ، أنظر شـــكل (١٠٥) ، والملاعب الدائرية والاسطبلات وغيرها من متطلبـات الحياة العـامة فى المدن . وكان يشق المدينة الرومانية فى تخطيطها طريقان أحدهما يتجه من الشمال إلى الجنوب والآخر من الشرق إلى الغرب ، ويتقابل الطريقان فى الساحة العـامة التى تعتبر بمثابة سوق المدينة ومركز النشاط الشعبى فيها . وكان يحيط بالمدينة حائط كبير له أبوابه ، وعلى سبيل المثال يبلغ طول حائط مدينة فولوبوليس ٢٥٣٠ متراً ويبلغ ارتفاع الحائط ثمانية أمتار وسمكه ١٫٦٠ متراً. ولم تكن عمليات تشييد هذه العمائر الجديدة بالمهمة السهلة بل لقـــد تطلبت جهوداً كبيرة لأنها تتصل بانشاء مدن كاملة . ومن الأهمية الإشارة إلى أن العمارة الرومانية قد اعتمدت إلى حد كبير على العمارتين اليونانية والشرقية. وعلى

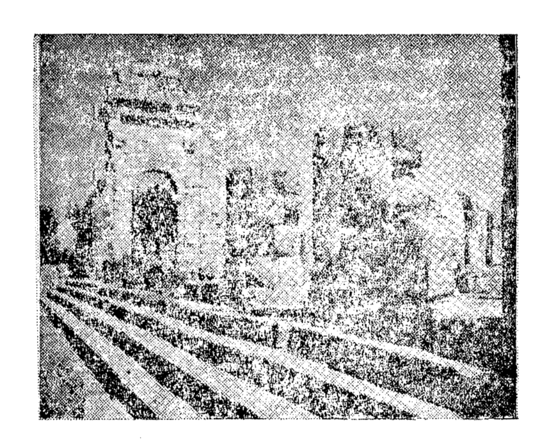


شكل رقم (١٠٥) المسرح الرومانى فى تمجاد .

سبيل المثال يلاحظ أن قوس النصر الرومانى يمكن إرجاعه فى اصوله التاريخية إلى الفن الآشورى . ويلاحظ أيضا تواجد بعض المسلات المصرية فى روما وكذلك بعض المقابر الرومانية ذات الشكل الهرمى المصرى القديم . ولم تقتصر الحمامات الرومانية على جانب النظافة العامة بل كانت بمثابة مراكز للنشاط الرياضى البدنى وأيضا للثقافة والقراءة العامة . وقد حاول الرومان طبع هذه المدن بالطابع الرومانى الصرف وكذلك التأثير على البربر بكافة الوسائل لإجتذابهم إلى الثقافة الرومانية وطبعهم بالتالى فى الإطار الرومانى . وقد كان المواطنون الرومان فى تلك المدن المغربية يحملون نفس حقوق المواطنين فى مدينة روما فقد كانت تلك المدن بمثابة أمثلة أخرى للعاصمة الرومانية . ولقد خلدت الآثار عدداً من هذه المدن الرومانية ، أنظر شكلى رقم (١٠٦) و (١٠٧) . فلا تزال بعض آثار هذه المدن الرومانية تشهد الكثير



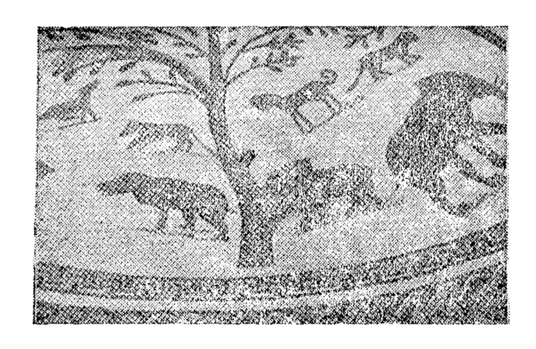
شكل رقم (١٠٦)
منظر عام لبقايا الآثار الرومانية فى تمجاد



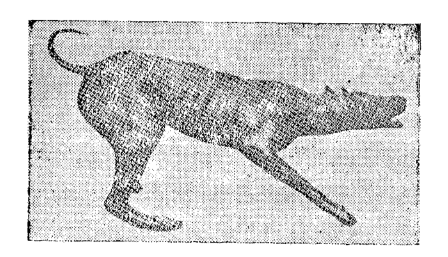
شكل رقم (١٠٧)

بقايا آثار رومانية فى فولوبيليس .

من هذه العمائر . وقد تخلفت بعض المنازل الرومانية الخاصة التى كان يقطنها أثرياء الرومان وقد زينت أرضية تلك المنازل بالفسيفساء الملون والذى يعبر عن بعض الأساطير الرومانية وكذلك يحمل بعض النقوش الإنسانية والحيوانية الفنية ، أنظر شكل (١٠٨). وكذلك تبقت بعض الآثار الفنية الرائعة فى النحت ومثال ذلك تمثال الكلب البرونزى، أنظر شكل رقم(١٠٩)، وتماثيل أخرى إنسانية ، أنظر شكلى رقم (١١٠) ورقم (١١١) . وقد تميز المغرب فى العصر الرومانى فى الصناعة الفخارية وكذلك صناعة الصباغة الأرجوانية من الأصداف المحلية على الساحل المغربى فى نواحى جزيرة



شكل رقم (١٠٨)
مثال للفسيفساء من فولو بيليس (وايلى) .



شكل رقم (١٠٩)
كلب من البرونز من فولو بيليس



شكل رقم (١١٠)
تمثال صغير لصانع مسن

الصويرة(١). وترجع هـذه الصناعة فى أصولها إلى العصرين الفينيقى والقرطاجى حيث كانت من الصناعات المستوردة أصلا من الساحل الفينيقى. هذا بالاضافة إلى صناعات أخرى مثل السجاجيد والأنسجة وغيرها. وتلزم

(١) م. أوزينة ، « من أصول تاريخ المغرب » ، تعريب الأستاذ محمد بنعبد الله مجلة التربية الوطنية ، الرباط ، ديسمبر سنة ١٩٦٠ ، ص ٤٠ .



شكل رقم (١١١)
مثال لتمثال نصفى من البرونز
قرب نهاية القرن الأول الميلادى من فولوبوليس (وايلى)

الإشارة فى هـــذا الصدد إلى دور القرطاجيين فى إدخال الكثير من هذه الصناعات إلى المغرب قبل الرومان .

ولقد نشطت هذه المدن الرومانية بعد إنشائها نشاطا كبيرا وأعطت للمغرب صفته المدنية أكثر من الصفة البدوية ، واجتذبت هذه المدن الكثير من البربر إليها وبصفة خاصة أولئك الذين كانوا يعملون فى المزارع والضياع

الرومانية التى كان يمتلكها كبار أثرياء الرومان . ولا يعنى ذلك أن أولئك البربر قد انفصلوا كلية عن مجتمعهم بل سرعان ما كانوا يتجهون إلى الانضمام إلى قبائلهم البربرية عندما تتجه تلك القبائل إلى الثورة ضد النفوذ الرومانى.

ولقد اتجهت السياسة الرومانية فى المغرب إلى استغلال أقاليمه استغلالا شاملا فى المجال الاقتصادى . ولم يقتصر هذا الاتجاه على المغرب بل لقد شمل أيضا كافة أرجاء الولايات الرومانية وعلى رأسها مصر . فقد اعتبر الرومان كلا من المغرب ومصر بمثابة مخزن كبير للحبوب وبصفة خاصة القمح لتموين المجتمع الرومانى . ولذلك اتجه الرومان إلى إعطاء عناية خاصة للجانب الزراعى وعملوا على تطوير الزراعة المغربية لتحقيق غايتهم الاقتصادية . والواقع أن القرطاجيين كانوا قد سبق لهم أداء دور كبير فى تطوير الحياة الزراعية فى المغرب وما يتصل بها من حياة حيوانية مستأنسة. فقد أدخل القرطاجيون زراعة الزيتون والكروم وفواكه مناخ البحر الأبيض المتوسط مثل التين والرمان واللوز بالإضافة إلى الخضروات المختلفة . وكذلك اهتم القرطاجيون بعمليات تصنيع بعض هذه المحاصيل وبصفة خاصة الكروم والزيتون واستخراج الزيوت واستغلالها فى كافة الجوانب الغذائية والصحية والطبية والاضاءة . وكان دور الرومان فى هذا المجال على نطاق أوسع من دور القرطاجيين لأن المدن الرومانية كانت تعتمد على اقتصاد ذاتى ، فلكل مدينة مطاحنها ومعاصرها الخاصة بها مما أدى إلى انتشار الزراعة والصناعة ، وبالتالى التجارة . ومما يسترعى الانتباه أيضا أن روما كانت تستورد بعض الأعشاب الطبية[1] من المغرب بجانب المواد الأولية الأخرى وعلى رأسها الحبوب والزيوت والأخشاب

---

(1) Julien A. ; Op. cit., p. 151.

وغيرها . ولم يقتصر النشاط التجارى مع شعوب البحر الأبيض المتوسط وعلى رأسها الدولة الرومانية بل اتجه نشاط المغرب أيضا إلى المنطقة الجنوبية منه، ويتصل ذلك بالنشاط البشرى والاستكشافى والتجارى الذى سبقت الاشارة إليه منذ العصرين الفينيقى والقرطاجى فى منطقة النيجر وساحل أفريقيا الغربى .

وقد تطلبت هذه التوسعات الزراعية توفير المشروعات المائية اللازمة لتحقيق هذه الغاية الإقتصادية فاهتم الرومان فى المغرب بعمل السدود لتخزين مياه الرى ، هذا بالإضافة إلى حفر الآبار وبناء مجارى المياه الرئيسية والثانوية وكذلك جمع مياه الأمطار وتخزينها ، وحفر القنوات لرى مختلف الزراعات .

وقد ألحقت بالمزارع الرومانية فى المغرب مايلزمها من الحيوانات المتصلة بالحياة الزراعية كالعجول والخيول وكذلك أيضا الدواجن والنحل . وكذلك استمرت طلبات صيد الحيوانات المفترسة كالنمور والفيلة والأسود من الغابات المغربية حيث كانت تستخدم فى الملاعب العامة .

ولم تقتصر الحضارة الرومانية فى المغرب على تلك الجوانب المادية السالفة الذكر بل لقد حاول الرومان أيضا نشر الثقافة الرومانية بكافة الوسائل فى المجتمع المغربى ، فقد اهتم الرومان بضرورة فرض اللغة اللاتينية فى البيئة المغربية ولكن لم يتحقق ذلك بصورة عملية من جانب البربر الذين استمروا على استخدام لهجاتهم البربرية المتأثرة باللغة البونية . وفى المجال الدينى حاول الرومان أيضا فرض ديانتهم فى المجتمع المغربى القديم وعلى رأسها عبادة الامبراطور الرومانى ولكن البربر لم يتقبلوا ذلك بسهولة فقد كانوا

يعتقدون فى آلهتهم البربرية مثل الالهة تانيت والقرطاجية مثل الإله بعل حمون. ولكن الرومان حلوا إليهم عبادة الامبراطور وكذا عبادة الآلهة الرومانية والشرقية مثل أوزير وإيزيس . وعلى الرغم من موافقة الرومان للديانة اليهودية بالاستمرار فى أداء شعائرها فانهم فى بداية الأمر لم يوافقوا على مثل ذلك للديانة المسيحية لأنهم كانوا يعتقدون بأن البربر قد اتخذوا تلك العقيدة كوسيلة لمعارضتهم . هذا وقد أقبل البربر على اعتناق المسيحية متخذين من صفتها السلمية دافعا ضد السيطرة الرومانية وقد ظهرت فى المغرب عدة مذاهب دينية واجتماعية فى ذلك الوقت . وعلى رأسها المذهب الدوناتي . وكذلك ظهر بعض الأدباء المسيحيين فى المغرب فى ذلك الوقت مثل أوغسطين مما يؤكد تواجد جانب فكرى فلسفى فى المغرب .

ولكن هذه العناصر الحضارية الرومانية المادية والفكرية لم تتمكن من إحلال نفسها بصورة نهائية فى المغرب وصبغه بالصبغة الرومانية البحتة ، فقد ظل البربر يقاومون الرومان بثوراتهم المتتالية فى المجال السياسى والحربى محافظين على تركتهم الحضارية البربرية والقرطاجية حتى أثناء المرحلتين الوندالية والبيزنطية .

من ذلك كله تتبين تلك الحقيقة التاريخية التى يلمسها الباحث فى التاريخ المغربى القديم أثناء العصر الرومانى وهى احتفاظ المغرب بنزعته الحامية والسامية رغم محاولات الرومان المستمرة لطبعه بالطابع الرومانى فى كافة المجالات الحضارية المادية والفكرية . وهذه الحقيقة تؤكد الصفة المميزة للمغرب القديم وهى أصالته المشرقية الأولى قبل العصر العربى . وكما سبقت الإشارة استخدم الرومان فى هذا الصدد الكثير من الوسائل الحربية المدنية

المشروعة وغير المشروعة فى سبيل تحقيق وجهة نظرهم ولكنهم لم يتمكنوا من الوصول إلى غايتهم النهائية . والتفسير التاريخى لذلك هو أن المغرب فى العصر القرطاجى قد تمكن من الوصول إلى صميم العصر التاريخى وبدأ يؤدى دوره السياسى والحضارى فى منطقة حوض البحر الأبيض المتوسط على قدم المساواة بالدولة الرومانية ولذلك لم يكن للاحتلال الرومانى فاعليته الكاملة فى تعديل هذا الاتجاه إلى أن أستقبل المغرب مرحلة حاسمة جديدة فى التاريخ وهى المرحلة العربية كون فيها المغرب والمشرق أمة عربية جديدة .

موضوعات الكتاب

قائمة الأشكال

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

قائمـــة الخرائط

قائمة الجـــــداول

فهرس الأعلام

(ا)

(ب)

(ت)

(ث)

(ج)

(ح)

(خ)

(د)

(ر)

(ز)

(س)

(ش)

(ص)

(ط)

(ع)

(غ)

(ف)

(ك)

(ل)

(م)

(ن)

(هـ)

(و)

(ى)

موجز لبعض المراجع الرئيسية

العربية :

أحمد توفيق المدنى ، قرطاجنه فى أربعة عصور ، تونس ، ١٩٢٦ .

أحمد المكناس ، ليكسوس .

، خريطة المغرب الاركيولوجية ، تطوان ، ١٩٦١ .

، دراسة تمهيدية عن معجم المصطلحات الأثرية اللاتينية، تطوان، ١٩٦١.

أحمد صقر ، مدنية المغرب العربى فى التاريخ ، تونس ، ١٩٥٩ .

أوزينه . م « أصول تاريخ المغرب » ، مقال فى مجلة التربية الوطنية ، تعريب محمد بنعبد الله ، الرباط ، ديسمبر ١٩٦٠ .

توفيق الطويل ، قصة الكفاح بين روما وقرطاج .

حسين مؤنس ، مقالات عن هانيبال .

رشيد الناضورى ، دراسة لبعض العناصر الحضارية فى تراث الشرق الأدنى القديم فى المراحل السابقة للعصر التاريخى وأثنائه، الاسكندرية، ١٩٦٠.

عبدالرحمن بن خلدون، مقدمة كتاب العبر المشهورة بمقدمة ابن خلدون، القاهرة.

عبد العزيز بن عبد الله ، الحضارات المغربية ، الرباط ، ١٩٦٠ .

عبد اللطيف أحمد على ، روما ج ١ ، تاريخ الجمهورية والامبراطورية الرومانية ، القاهرة ، ١٩٥٩ .

عبد الله كنون ، مدخل إلى تاريخ المغرب ، تطوان ، ١٩٥٨ .

عبد المنعم عبد الحليم ، الجمهورية الصومالية ، القاهرة ، ١٩٦٠ .

فيليب حتى ، تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين ، ترجمة جورج حداد وعبد الكريم رافق بيروت ، ١٩٥٨ .

محمد عبد السلام ابن عبود ، تاريخ المغرب ، تطوان ، ١٩٥٧ .

محمد عواد حسين ، « الامبراطورية الرومانية » ، فى موسوعة تاريخ العـالم ج ١ ، أصدرها وليم لانجر ، أشرف على الترجمـة محمد مصطفى زيادة ، القاهرة ، ١٩٤٢ .

محمد محى الدين المشرفى ، أفريقيا الشمالية فى العصر القديم ، الرباط ، ١٩٦٠.

نجيب ميخائيل ، مصر والشرق الأدنى القديم ج ٣ ، سورية ، الاسكندرية ، ١٩٥٩ .

الأجنبية :

Balout, L. ; Préhistoire de l' Afrique du Nord. Paris, 1955.

Biberson, P.; La paléolithic inférieur du Maroc Atlantique, Rabat, 1961.

———————; Choubert, G., Faure - mauret, A. et Lecointre, G. ; " Contribution à l' étude de La Pebble Culture, du Maroc Atlantique ", Bulletin Archaologie Marocaine Tome III, 1958.

Cagnat, R.; Carthage, Timgad, Tibessa et les villes antiques de l' Afrique du Nord, 1909.

Cambridge Ancient History, Vol. IV, Chapter II.

Carpenter, "The Phoenicians in the West", American Journal of Archaeology, Vol. LXII, 1958.

Cintas, P.; La Ceramique Punique, Tunis, 1950.

Comptes Rendus d' Académie de Inscriptions et Belles - Lettres.

Conteneau, G.; Manuel d' Archéologie Oriental, A. Picard, Paris, 1927 - 47.

Drioton, E.; Contenau, G., and Duchesse - Guillemim, J.; The religions of the Ancient East, London, 1959.

Dussaud, R.; Les Decouverts de Ras Shamra, Paris, 1941.

Enouchi, E.: " Un neandertalien, l' homme, du Jebel Irhoud (Maroc) ", L' Anthropologie, Tome 66, Nos. 3-4, 1962.

———— ; " Les Néanderthaliens du Jebel Irhoud (Maroc) ", Comptes rendus des sciences de l' Académie des Sciences du 11 Mars, 1963.

Gauckler, Les nécropoles puniques de Carthage, 1915.

Gauthier, E. F.; Le passé de l' Afrique du Nord, Paris, 1912.

Gilbert et Colette Charles Picard; La vie quotidienne à Carthage au temps d' Hannibal, Paris, 1958.

وقد ترجمه للانجليزية A. E. Foster تحت اسم

Daily life in Carthage, London, 1961.

Gsell, S. ; Histoire ancienne de l' Afrique du Nord, Vols I - IV, Hachette, Paris, 1912 - 29.

Groag, E. ; Hannibal als Politiker, 1929.

Harden, D. B.; The pottery from the precinct of Tanit at Salambo, Iraq, IV, 1937.

Hésperis Institut des Hautes Etudes Marocaines, Rabat.

Julien, C. A.: Histoire de l' Afrique du Nord, Paris, 1961.

Mc Burney, C. B.; The stone age of North Africa, London, 1960.

Marcains, H.; " Découverte de restes humains fossiles dans les grès quaternaires de Rabat, " L' Anthropologie, Tome 46, 1934, pp. 583 - 97.

Picard, G. ; Le monde de Carthage, Paris, 1956.

_____________ ; Les religions de l' Afrique antique, Paris, 1954 .

Tarradell; Marrucos Punico, Tatuan, 1960.

Vallois, H. V. " L, homme de Rabet, " B. A. M., Tome III, 1958, pp. 87, 89.

Warmington, B. H.; Carthage, London, 1960.



